عدد خاص

محمد عودة

كتاب الجمهورية

العدد ٣١

ميلاد ثورة

ميلاد ثورة

محمد عودة







الثورة

كانت الأعوام الثمانية عشر الأخيرة ـ من عمر الثورة ـ هي أهم السنين التي مرت بتاريخ مصر كله ، ولكن نستطيع أن نستمر بالثورة لا بد أن نستعيد أحداث هذه السنين ، ونحاول ـ بعد أن عشناها ـ أن نراها مرة أخرى بموضوعية وبعمق . وقد كانت جذور هذه السنين الأولى في تاريخ مصر الحديث كله ، ولكنها كانت خاصة في جميع السنين التي سبقتها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وكانت سنى العمل والمثالي الأليم والبحث المتصل .

كانت مصر منذ نهاية الحرب منقلة « الحمل » بالثورة ، ولكنها كانت ثورة تجاوزت كل التنظيمات والتيارات القائمة .

لقد كان الثائر الطبيعي للثورة هو حزب الكفاح الوطني والأغلبية الذي ساد حياة مصر السياسية والوطنية منذ قيامه بعد الحرب العالمية الأولى واندلاع ثورة ١٩١٩ ، ولكن حزب الوفد كان موزعاً وربما منقسماً بين جناح أو أقلية تقليدية بقيادة العصر الحديث بتجاوزها ، وبقدر ما يزداد من تطور الثورة أو من اتجاهها إلى ثورة اجتماعية طبقية ، ودفعها هذا إلى البحث

من صيغة تماشي الا تهادن مع القوى التي حاربتها طوال حياتها ، بل التي قامت لمحاربتها . وقد كان الوفد على حسب الاصطلاح السياسي المعاصر هو حزب البورجوازية الوطنية ، ولذلك بدا القلق والصراع في داخلها وخاصة بعد ان سرى ، فانتقل ، الى داخل الوفد نفسه ؟ وقام فيه جناح يساري يجذبه من القيادات الشابة يطالب باستمرار الثورة والمضي فيها .

وهذا الجناح اليساري — وان لم يكن جناحا كبيرا او قويا او ذا برنامج واضح او متكامل او ذا تأثير كبير على القيادة او على القواعد — اشعل الصراع الداخلي ، ولاشك التردد الذي داخل الوفد نفسه .

وقد الغى الوفد معاهدة ١٩٣٦ ، وكان هذا عمله المجيد الاخير « باسم مصر وقعتها وباسم مصر الغيها » ولكن الوفد اعلن يوم الغائها ان الكفاح السياسي الدستوري المشروع لاستخلاص حقوق مصر وبحسب برنامجه قد فشل ، وان الكلمة للشعب ، وكان هذا يعني ان الكفاح لا مناص من ان يكون كفاحا شعبيا مسلحا ، وكان يعني ايضا ان على الوفد وهو القائد الاول للكفاح ان يتحول الى حزب ثوري مقاتل ، وان يقود حرب تحرير شعبية مثل الحروب التي كانت تتم اساسا في ذلك الوقت في الهند الصينية واندونيسيا وبورما وغيرها .

ولكن لم يفعل الوفد هذا بل كان اعجز من ان يفعل وهو منذ قضت الادارة البريطانية على تنظيماته واجهزته السرية المسلحة سنة ١٩٢٤ بعد اغتيال السردار اصبح لا يملك قوة ضاربة اكثر من منظمي المظاهرات الشعبية — الموسمية .

وقد انتهى الوفد تماما يوم عرض عليه ضباط الجيش الاحرار في اوج الازمة الاشتراك معهم ، وخلع الملك وتحويل المعركة الى حرب وطنية ، والاستمرار بالثورة . ولكنه انتحر بيديه حينما اعلن الاحكام العرفية يوم ٢٦ يناير ، واكد ولاءه للنظام

بالملكي الدستوري والشرعية القائمة ، واستقبل كتصالح القادمة ، والاستقلال وبارك الوزارة الجديدة التي جاءت بعد الثورة ، ثم سافر رئيس الوفد وسكرتيره الى أوروبا ، لتمضية الصيف .

وكان هذا يعني ان الوفد قد انفصل تماما عن الواقع الشعبي ، وان القيادة لا تدرك ان هناك ثورة لا بد ان تستمر وان تتحقق ..

وكانت التنظيمات الاخرى المرشحة نظريا للقيادة لا تقل عجزا ، كانت التنظيمات الماركسية هناك ، وكان الواقع المصرى معوقا لها بحدة المشكلة الاجتماعية والتحامها بالمشاكل القومية .

والتنظيمات الماركسية قديمة في مصر ، وقد بدأت بعد ثورة أكتوبر في روسيا ، ولكنها عجزت طوال تاريخها ومنذ نشأتها عن ان استطاعت هي والوفد ولم تستطع ان تتعايش معه او ان تنضوي تحته ، وان تتولى مسائل تلك المرحلة وضروراتها .. ظلت التنظيمات الماركسية كثيرة ومنفصلة ومتعادية ، وكانت تضم الكثير من الاجانب ومن يستطيع شبهه من اليهود ومن المتمصرين ، ولا تستطيع ان تنفذ الى صميم المجتمع المصرى والواقع المصرى ، ولم يكن هناك لينين او ماوتسي تونج أو هوشي منه مصرى لكى يمصرها ويجسدها فى الواقع ، ولكى يربطها بكل التراث والكفاح المصرى الطويل ، وربما كان السبب الاهم فى عجزها ان الوفد كان ما زال قائما مهيمنا ، والحركة الوطنية المصرية كانت لا تزال مطردة تلائم ولم تنفصل او تتفكك . وقد كان الوفد جبهة عريضة تضم كل الطبقات وكل الاتجاهات الوطنية : اقطاعيين وفلاحين ، وعمالا ورأسماليين ، ومثقفين ، ويسارا ويمينا ، وكانت مبررات الجبهة قائمة ، ولم تسقط بعد .

وقد انتصرت الماركسية فى الصين مثلا ، لان تشيانج كاى تشيك فشل وخان القضية الوطنية ، ولان ماركس ترجم

« صون » الماركسية (جعلها صينية) وصبغها فى تراث الصين وحياتهم . ولم يتحقق نجاح « مماثل » فى الهند ، لأن حزب المؤتمر بقيادة غاندي ونهرو واصل الكفاح والنضال ، ولأن الحزب الشيوعي الهندي لم ينجح فى تهذيب النظرية أو تطبيقها على بواقع الهندي الشديد التعقيد .

وقد حملت هذه التنظيمات فكرا ثوريا وعلما جديدا للحياة السياسية والفكرية فى مصر . فقد ضربت الأحداث الجديدة فى العالم ومنذ انتصار الاتحاد السوفيتى ومغزى ظهوره كقوة عالمية رئيسية ، وقامت بدور في إذكاء الصراع الفكري والسياسي الذي اضطرم محتدما في مصر وخاصة خلال العامين الأخيرين قبل الثورة ، وطرحت كل المشاكل المصرية والدولية من زوايا جديدة ، ولكنها مع ذلك ظلت أسيرة غربتها ، ولم تستطع التقدم وكانت أبعد ما تكون عن القدرة على قيادة الثورة .

وكان الاخوان المسلمون قوة أخرى ، وقد قامت هذه الحركة مستغلة عمق الشعور الدينى للمصريين وركود الحياة السياسية خلال الثلاثينات ، وتطلع الشباب الى قضايا ومثل وطنية وروحية ، لم تطلع الشعوب المهزومة عائدة الى الماضى المجيد تضمنها به وطلعها باستعادته ، وقد حققت الحركة نجاحا بلغ في بعض الأحيان كبيرا وواسعا ، ولكنه كان غالبا بين أشد الفئات تخلفا سواء فى القرية أو في المدينة .

ولكن الاخوان المسلمين تخبطوا منذ البداية ، ولم يضعوا تطبيقا أو تفسيرا اسلاميا لمشاكل العصر وأحداثه ، ولم يقدموا برنامجا واضحا ومفصلا لعمل الوطني والاجتماعي الثورى وفق مبادىء الاسلام ، ولم يسترشدوا بالثورة التى سلكها المفكرون والمصلحون المسلمون الأوائل ، كالأفغاني والكواكبي وغيرهم ، وكان سبب فشلهم الأول تخبطهم السياسي واستغلال كل القوى من ذوى الرأي الى حكومات الأقليات الى البريطانيين لهم فى

محاربة القوى الشعبية الرئيسية وهى الوفد ، ومن الحروب الحديثة التى اعلنت ضد الشيوعية على النطاق المحلى والدولى .

وبينما كان الاخوان قوة متعصبة ومتخلفة ومتحجرة فكريا وسياسيا وقد لمست غالبية الشعب المصرى الذى رسخ فيه التسامح الدينى والسياسى بتعصبها وبمجافاتها لروح العصر وللجوئها للارهاب فى غير محله .. ولتخاذلها فى تأييد الكفاح المسلح حينما اصبح واجبا وضرورة قومية ..

وكانت القوة الرابعة هى الحزب « الديمقراطى الاشتراكى » وكان حزبا جديدا وقديما ايضا فقد كان الحزب استمرارا للحزب القديم « مصر الفتاة » الذى كان امتدادا وانعكاسا لازدهار الفاشية والنازية فى اوربا ، ولكن لهذه الحركات صداها فى مصر لا ايمانا بالفاشية والنازية ، ولكن لما كان لالمانيا من رصيد بسبب عدائها التقليدى لبريطانيا — والامبراطورية البريطانية .

وبعد الحرب تحول الحزب الى الاشتراكية الديمقراطية متأثرا بحزب العمال البريطانى وبنجاحه الساحق فى الانتخابات ، ولقد أعلن الحزب يومئذ انه سوف يقود ثورة اشتراكية ديمقراطية فى اوربا ، بل فى كل بلاد الامبراطورية .

ولكن الحزب الاشتراكى المصرى كان حزب الفرد اكثر مما كان قوة سياسية منظمة ، وهو بالطبع لم يكن يملك التنظيم النقابى أو التنظيم التعاونى او التنظيم الحزبى أو الجمعية الفابية التى كان يملكها حزب العمال البريطانى ، ولكنه حمل نفحة جريئة قوية ومثيرة للحركة السياسية فى مصر ، وطرح الاشتراكية كقضية وشعار شعبى واسع الانتشار ، وقدم حلولا اشتراكية قومية وديمقراطية لمشاكل كثيرة ، ولكن الحزب كان يتكون اساسا من شخصية زعيمه وبعض المريدين ، وكانت برامجه القديمة

ما زالت واضحة في أسلوب عمله ، ولم تكن تلائمه قيادة الانفعال التاريخي الكبير القادم .

وكان يوم ٢٦ يناير هو الامتحان الحاسم لكل القوى ، في ذلك اليوم احترقت القاهرة ، ولم يبت بعد بالدليل القاطع من المسئول ، ولكن الشبهة حول الاستعمار وأجهزة المخابرات الغربية بعدئذ ، وقيل ذلك أيضاً ، أن مثل هذه العمليات المنظمة الدقيقة الإرهابية من صنع تنظيمات تتكون من العناصر المنحلة والمنحطة واللامنتمية ، وخاصة في المستعمرات وبلدان العالم الثالث ، تقوم بأي شيء يطلب منها .

وقد كان « إخوان الحرية » نموذجاً لهذه التنظيمات ، ومن بلا شك ، ولكن « المواقد » التي جمعت ، حول الشيوعيين ، كانوا « جزءاً » كونته المخابرات والدعاية البريطانية خلال الحرب من كل العناصر الضائعة والساقطة في المجتمع ومن كل الطبقات .

وفي رواية مشهورة عن الاستعمار البريطاني يقول الحاكم العام للحاكم الشاب الجديد : « إذا حدث لسبب ما عن أحقاد ثورة يقومون بها فاشعل حريقاً كبيراً يلتهم الذي ما لديهم ، وينشغلون وقتاً طويلاً ينسون خلاله الثورة » . وهي رواية « الرجل عند غروب الشمس » لجيرالد هانلي .

ولم يكن بين القوى والقيادات الذاتية في ذلك الحين من يستطيع أن يواجه المؤامرة أو يعبئ الشعب ، ويحول المأساة إلى ثورة وإلى حرب تحرير مسلحة ، وخاصة أن الجيش كان متململاً وانضمت عناصر منه وانخرطت قوات من البوليس بالفعل في قلب الثورة ..

.. كان الفشل ظاهراً تاريخياً لتلاقي كل هذه التنظيمات وتجاربها على المسرح السياسي .. ولكنه لم يكن بالطبع نهاية الثورة .

كانت الثورة المصرية قد دخلت طوراً جديداً منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، لم تعد ثورة « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » ولكن نمت وتطورت قوى مختمرة وثورية جديدة ذات مثل وشعارات جديدة « الجلاء بالدماء » و « الغذاء والكساء » .

وخلال الحرب ونضجها اكتمل جيل جديد مثقف هو الذي لم يعش ثورة ١٩١٩ ، ولم يشهد انتصارها ، وخلال الحرب والعمل في المعسكرات ، ونمو الكثير من الصناعات المحلية ، نمت قوة الطبقة العاملة ، وتفتح وعى هذه القوى الشعبية على المتناقضات الشديدة في المجتمع المصرى ، وطحن ارتفاع الاسعار وانغلاق الاسواق امام القطن ومطالب الحرب الريف والفلاح المصرى مرة اخرى كما حدث في الحرب العالمية الاولى ..

واستمع المثقفون لمواثيق الحرب ومبادئها وشعاراتها التي كانت تنطلق بسخاء من كل جانب ، وبالطبع صمموا الا تتكرر خديعة آبائهم بعد الحرب الاولى .

وبعد الحرب ايضاً خرج عالم آخر جديد تضعضعت فيه قوى الامبراطوريات القديمة البريطانية والفرنسية ، وقام الاتحاد السوفيتى كدولة أعظم أعلنت منذ البداية أنها ضد الاستعمار والاستغلال .. وأصبحت الولايات المتحدة الدولة الاولى ، وخرجت من عزلتها لتحمل مسئوليتها أمام العالم ، وكانت مبادىء روزفلت لا تزال قائمة لها صداها على الاقل .. وقامت منظمة دولية جديدة تتدارك كل أخطاء عصبة الأمم المنحلة ، ثم اشتعلت ثورات الشعوب ضد الاستعمار للتحرر النهائى .

وقد انعكست الثورة فى مصر .. فى طوفان المظاهرات التى شملت مصر كلها بعد نهاية الحرب وخلال عام ١٩٤٦ وخاصة في

سلسلة الاضرابات العمالية التي لم تنقطع والتي كانت اعلانا عن وجود قوة ذات مطالب ابعد من مجرد المطالب الوطنية ، واصطبغت أيضا في القاهرة التي حدثت لأول مرة وهي انتفاضات الفلاحين في بعض القرى وضد الاقطاع الكبير والمطالبة بالأرض وضرائب الصعبان والكفاح بالعنف من أجلها .. وكانت نذيرا بنضال الثورة حتى ذلك العمق ..

ولكن أهم الظواهر التي لم يلتفت اليها احد في ذلك الحين كانت نمو قوى جديدة في الجيش المصري .. كان الجيش بعيدا عن تصور الثوار والمفكرين بل محصورا في ناحية الابعاد !..

والجيش المصري جيش عريق ذو تقاليد وتراث .. لم يكن فقط جيشا محترفا ، منفصلا عن حياة الشعب ومصير البلاد الا في فترة الاحتلال ..

وقد كان الجيش المصري الأول « جيش محمد علي » اعلانا بميلاد القوة العسكرية العربية وتجديدا لفكرة أن المصريين غير مقاتلين ، وهو ما نشر ... وتجمعت أوروبا كلها للقضاء عليه بعد أن وصل الى أبواب القسطنطينية ، وفرضت الا يزيد عدده على بضعة آلاف والا يتجاوز حدود مصر !

وقد كان ذلك الجيش من أبناء الشعب الذين قاموا بثورات القاهرة ضد نابليون ، ثم بالثورة الكبرى ضد السلطان وتولية محمد علي ، وكان ضباطه من المتعلمين الذين تعلموا في الاكاديميات الأوربية الحربية ، وكان يضم عددا كبيرا من ضباط نابليون ممن تشربوا بمبادىء الثورة الفرنسية ، وعددا أيضا من اللاجئين السياسيين الأوربيين ، وكان هدف الجيش اللغة الملكية العربية المصرية وتحويل الامبراطورية العثمانية المريضة الى قوة أكبر تقف في وجه أوربا .

ولهذا تجمعت كل أوربا للقضاء عليه ، وبرغم كل الضمانات التي اتاحتها بمحتلة ظل الروح باقيا كامنا في الجيش المصري ..

وبعد هزيمة ساحقة منى بها الجيش المصري في الحبشة خلال عصر اسماعيل سرت روح السخط وخاصة بين الضباط المصريين ، ولكنها اتخذت شكلا مختلفا أكثر عصرية .. وقرر الضباط المصريون تنظيم أنفسهم داخل الجيش تنظيما سريا يعمل على الاستيلاء على الجيش وتسخيره في تحرير البلاد ، وقام أول تنظيم للضباط الأحرار بقصد الثورة .

وتطور برنامج الضباط حتى المناداة بالجمهورية الديمقراطية .. والتقى تنظيم الضباط الاحرار وتنظيم سياسي قام به بعض الباشوات والأعيان الوطنيين هو الحزب « الوطني » الذي بدأ البحث في تحرير البلاد من ربقة الأجانب ــ وكانت الرأسمالية الأوربية قد اجتاحت مصر من طريق القروض تمهيدا للاستيلاء عليها ، واندمج الضباط الراديكاليون والباشوات الليبراليون في حزب واحد وحركة واحدة بقيادة الأول .. وقد هزمت الثورة لأن الاستعماريين أدركوا مغزى نجاحها ، وكان من أهم أسباب هزيمتها كما يرى بعض المؤرخين هو التناقض بين الضباط الراديكاليين الذين كانوا يريدون ثورة وإصلاحات جذرية ، والباشوات الليبراليين الذين تخاذلوا ، ولم يكونوا يريدون سوى اصلاحات في إطار النظام القائم .

وقد نفى البريطانيون واعدموا وشردوا ضباط هذا الجيش وقواته ، ثم قبلوا ما بقى منه من آخره في حملة على السودان ، ولكن برغم ذلك ظلت الروح كامنة . وأقام البريطانيون جيشا استعماريا يقوده ضباط انجليز « مقام » ، وحرصوا على أن يكون الضباط المصريون من أبناء العائلات الاقطاعية والموالية تماما ، ولكن الجيش لم يستسلم ولم يعدم المواقف البطولية والوطنية ، وكان أبرزها الموقف عند ارغام مصر على اخلاء السودان سنة ١٩٢٤ ..

وبعد عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ رأى البريطانيون ــ مهادنة الوطنية المصرية وفي نفس الوقت استعدادا للحرب التي كانت قادمة لا محالة ــ السماح بتعزيز الجيش المصري كقوة معطلة ملحقة بالجيوش البريطانية وخادمة خلال الحرب ..

ودخل لأول مرة وبعد غيبة طويلة أبناء الشعب ، ليصبحوا ضباطا في الجيش المصري - وليحملوا السلاح وليتعلموا فنون الحرب الحديثة .. وليعيشوا بعد ذلك أحداث الحرب العالمية الثانية وحيثياتها ، وإن يكن ذلك على هامشها ..

وفي سنة ١٩٤٨ اشترك الجيش في حرب فلسطين ، وكان أحد الأهداف الرئيسية من تلك الحرب هو استهلاك القوى الوطنية العربية وحماسة القوى العربية - ، نحتاج الى هزيمة مصرية ساحقة تضع أنوف المصريين في الرغام ، كما قال مسئول بريطاني للصحفي اليهودي جون كيمش في ذلك الحين ..

وكما حدث مثل تاريخ بعيد لفرق الضباط أصحاب التربية ونظموا الغضب داخل الجيش للاستيلاء عليه وتحويله الى أداة للثورة لا للخدمة الثورة المضادة .

وقد عاد الضباط من فلسطين ليعيشوا كل الصراع السياسي والفكري الذي اضطرم وتزايدت حدته في مصر خلال السنين الخمس اللاتي سبقنا العاصفة .

وكان بترصيص ضابط شاب هو بلا شك العميد الناريعي الضابط الآخر الذي حول الجيش الى صف الشعب ولتحقيق الثورة وتكون ، لا نستعيد بعد اليوم ، "

وقرر أن يثأر لهزيمته ولكل هزيمة .



الجيش

ولد الجيش المصري الحديث ولادة ثورية ومصرية ، وكان استكمالا للثورة التي تمت بجـلاء الفرنسيين عن مصر ، والتي تسلمها وقادها محمد علي .

« كانت هنالك قوة رابعة ظهرت على المسرح السياسي ، وأخذت تنمو ويشتد ساعدها ، دون أن تأبه لها تلك القوات الثلاث — الأتراك والمماليك والانجليز — وتلك هي قوة الشعب المصري » .

.. « رأت الأمة من الحوادث والانقلابات ما فتح أعينها وحز أعصابها : رأت نابليون بونابرت يخطب ودها ويشيد بعظمتها ويتغنى بماضيها ، ويعلن حقها في أن تحكم نفسها بنفسها » .

« ورأت جماعة علماء فرنسا وأطبائها ومهندسيها يعرضون عليها آثار علمهم وتجاربهم » .

.. « ورأت ديوانا للحكم مؤلفا من صفوة أبنائها بعد أن كان الديوان القديم مقصورا على المماليك » ...

.. « وبعدما ازدهرت هذه الروح حتى قاومت نابليون قاهر الملوك ومزلزل العروش .. كانت ثورة الأمة المصرية التي ظلت

سنين طويلة رازحة تحت نير الاستعباد ، ولكن لم تفقد مواهبها القديمة التي ورثتها عن الحضارات السابقة ، بل كانت هذه المواهب كامنة تحت الرماد يطرها الضعف ؛ وما ان سمعتها الحملة الفرنسية حتى أخذت تبدو للعيان كما تشتعل الحسكات وتجلى جواهرها إلى لهب النار » .

ولقد رأت الأمة العسكرية الحديثة في جيش نابليون وجيش فرنسا الثورة . وكان ذلك الجيش هو بداية العسكرية المصرية الأوربية ، وكان بداية الانتقال من فرق الأمراء والملوك والفرسان أي الجيوش الاقطاعية والمرتزقة الى الجيوش الوطنية الشعبية « البورجوازية » ، وانتقلت الجيوش من الأسلحة القديمة التقليدية الى الأسلحة التكنولوجية التي تمخضت عنها الثورة الصناعية الأوربية . كانت عسكرية تختلف تماما عن عسكرية المماليك مهما تكن فروسيتهم وشجاعتهم ، وكانت تختلف عن عسكرية الأتراك وفرق جيوشهم المتخلفة المصبحة ، ولا شك ان هذه الصورة رسبت عميقة في خيال الأمة وفي خيال محمد علي .

وكان أول درس وعاه محمد علي هو أن بناء الدولة الحديثة لا بد ان يعتمد على بناء عسكرية حديثة . ولهذا ، أصبحت المصالح العسكرية الجليلة أهم من كل امورنا وشئوننا .

وقد بدأت العسكرية الجديدة من صميم مصر وكان أول تأسيس للنظام العسكري « ان صدر أمر الباشا الى أحمد طاهر باشا بأنه لضرورة اعادة الجنود الترك من السودان لعدم تحملهم حر البلاد ؛ استصوب جمع أربعة آلاف مصري من الوجه القبلي ليحضروا الى محمد بك لاظ أوغلي ناظر النظام العسكري ، ومن بعضهم يرسل الى سليمان بك أغا الفرنسي معلم الجنود بأسوان ليعلمهم حسب النظام الجديد » .

ويرى محمد علي في رسالة أخرى أن يؤكد « انه لما لم يكن من عادة الفلاح ان يقبل هذا الوضع فلا يمكن ثمة ما يجب ارغامه

عليه ولا مصادمته بالعنف فيه ، بل كان يلزم لتحرير الفلاحين وتعبئتهم باستدراج عقولهم اليه ، وذلك بتفهيمهم تدريجيا انه من منطو على خير ، ولا تعتبر كمسائل السخرة ومعالج لبعضها الفلاح ، داعيا الى اباء الفلاح وافتتانه » .

وكلف الشيخ العروسي شيخ الأزهر الشيخ خليل الرجبي ان يكتب فصلا من محاسن النظام الجهادي الجديد وموافقته للشرع الحنيف .

وتقرر في نظام التجنيد ، ان يستخدموا ثلاث سنين ، ويعطوا اللحمة وأرزا مطبوخا مرتين في الاسبوع ، ومرتبا قدره ثمانية قروش ، والكسوة اللازمة لهم » .

وتولى تدريب هذا الجيش ضباط أوربيون عديدون كان معظمهم فرنسيين من ضباط نابليون الذين تشتتوا بعد سقوطه ، وكان هناك ايضا ضباط اوربيون آخرون منهم لاجئون سياسيون شردتهم ثورات أوربا القومية خلال القرن الماضي .

وتولى قيادة الجيش ضباط مصريون تعلموا في المدارس او في المعاهد العسكرية الفرنسية والاوربية الشهيرة ، وكان بين هؤلاء ايضا ضباط لم يكونوا مصريين في الاصل ، كما يدل على ذلك قول بعضهم :

« جئنا الى مصر ، ولم تكن تتجاوز سن الطفولة ، ولذلك لم نعد اتراكا قط ، ولم تبق رابطة تربطنا بذلك الشعب ، واننا الآن ننتسب الى شعب انبل واكثر تنورا وسبق أوربا في مضمار الحضارة ، ننتمي الى الشعب العربي » كما قال مختار باشا ياور ابراهيم .

وكانت الجهادية الجديدة بداية وأساس الدولة والحياة الجديدة .

« ان مؤسسة الجهادية مصر فله ابى لى ثمانيا ثمة جليلة وقد وصلت ليالى بنهارى مضحيا بنومي وراحتي حتى بلغت وفق الحمد مرامى » .

« واود مخلصا ان تكون قد تخلصنا من الشعوذة والرذيلة والنملة ، والرخاوة ، وبدلنا عهدا يقوم على اساس الانصاف والانسانية وعلى اسلوب من اللطف والحسنى يدخلنا في مصاف الامم الراقية » .

وحينما استفزت رؤية العسكر الفلاحين بقايا العصبية التركية عند محمد على » وحينما بادر الالاى حسين بك مدينة دمياط ، واستقبل بحفاوة بالغة اغتاظ حق هذا التركى ناظر السلطانة وقال من محصل الاستقبال : « صار الفلاحون العمي عساكر ومهما كانوا فانهم لن يكونوا مثل عساكرنا الترك » .. وامر حسين على بضربه مائة نبوت على اليته وينفى وان عاد يصلب » .. وقد وجد الجيش المصرى بطله في ابراهيم الذى كانت له قدرة خارقة في استثارة حماسة الجنود ، وكان لا يرضى ان يحمل العسكر رجل في جيشه ما لا يطيق نفسه هو حمله ، وكان يطعمه الجميع ويخشونه اكثر من سواه . التفت حوله القلوب ، وكان دائم اليقظة كالصقر لا يغفل عن الرقابة ، وكان يدهش الاتراك بسرعة تنقلاته ، وكثيرا ما كان ينام على الثلج في العراء ليضرب القدوة .

. « وكان اسمه الشائع بينهم هو (ابو خليل) » وكان يثنى دواما عليهم على الامة التى انجبتهم حتى صاروا يعتبرونه درعا يحتمون بها من بعض خيلائهم الترك .

ولم يكن ابراهيم مجرد جندى عظيم ، ولكنه كان ثائرا ذا رؤية تاريخية شاملة .

كان نابليون خلال وجوده في مصر يقول : ان العرب امة عظيمة ولكنها تنتظر رجل الاقدار . وكان ابراهيم هو ذلك الرجل . كان

يرغب باخلاص في اقامة دولة عربية واحياء نهضة عربية على أساس راسخ ، هو احياء الشعب العربي . وكان ابراهيم اول مسلم ذي مقام في العصر الحديث يحلم بحركة وطنية عربية ويصمم على تحقيقها » .

ولهذا تحالفت أوربا كلها بقيادة بريطانيا حتى تقضي على ابراهيم والجيش المصري والعلم العربي .

وفي لندن سنة ١٨٤٠ ، اتفق عظمة السلطان مع أصحاب الجلالة : ١ ــ ملك بريطانيا ــ ٢ ــ امبراطور النمسا وملك هنجاريا وبوهيميا ــ ٣ ــ جلالة قيصر روسيا ــ ٤ ــ جلالة ملك بروسيا .. اتفق مع الجميع على ارغام محمد علي على قبول شروط الاتفاق الذي اتفقوا عليه » وكان انهار عهده وسكينه .. !

وخذلته حليفته الوحيدة فرنسا ، وانفضت الحلف ، ولهذا لم يبق مناص من أن يسلم ولكن كان لا بد أن نذكر له انه قبل التسليم » بدأ يستعد ويناهض الدفاع والف في مصر حرسا وطنيا بتجنيد العمال في الورش وتلامذة الكتاب ، وتقدم من المشايخ السيد المزيني لتأليف آلاي من الرديف والشيخ حسن سرور والشيخ على الجزار لتأليف آلايين وانعم عليهم برتبة الاميرالاي ، واستأذنه الشيخ عثمان السقاري بتأليف آلاي من شبان باب الشعرية والحسينية ، والف الشيخ محمد الاباصيري آلايا من قسم السيدة زينب ، وابراهيم عارف من الدرب الاحمر .. وتألف ١٢ آلايا من الحرس الوطني ، وزعت على الاسكندرية ورشيد ودمياط وبولاق وجهات القاهرة .. وكان الآلاي يؤلف من ٣٥٠٠ مقاتل ، وأمر محمد علي ابراهيم باشا يكن والي اليمن بالمجيء الى مصر مع عسكره المرابطة هناك لينضم لهذا الجيش » ، ولكن كانت المعركة غير متكافئة ، وكان تصميم أوربا حاسما .

وتلا عصر محمد علي وابراهيم ، عصر مظلم سيطر فيه النفوذ البريطاني على الوالي « عباس » لأول مرة ، وعملا معا على اعتبار مصر لتكون مجرد محطة على طريق الهند ولكن لحسن الحظ لم يدم العصر طويلا ، وانتهى بمقتل عباس الأول .

وتولى بعده « سعيد باشا » وكان شخصية من طراز مختلف ، وكان مع كل عيوبه ومتناقضاته يحب مصر حبا عجيبا ، ويتحمس للمصريين ، وروى عرابي في مذكراته :

« سمعت الخطبة التي ألقاها سعيد باشا في مأدبة أقامها بقصر النيل للعلماء والرؤساء الروحانيين واعضاء العائلة المالكة وأعاظم رجال الحكومة ملكيين وعسكريين ، وقال مرتجلا :

« أيها الاخوان ، اني نظرت في أحوال هذا الشعب المصري من حيث التاريخ ، فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من أمم الأرض ، فقد توالت عليه دول كثيرة كالرعاة والآشوريين والفرس حتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان ، هذا قبل الاسلام ، وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين والعباسيين والفاطميين من العرب ، ومن الترك والأكراد والشركس ، وقد أغارت فرنسا عليها واحتلتها في أوائل هذا القرن في زمن بونابرت .. وبما أني أعتبر نفسي مصريا رأيت أن أربي أبناء هذا الشعب وأعلمه حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغني بنفسه عن الأجانب ، وقد وطدت نفسي على ابراز هذا الرأي من الفكر الى العمل » .

وقال عرابي : « فلما انتهت الخطبة خرج القادمون من الأمراء والعلماء غاضبين حانقين متعجبين مما سمعوا ، وأما المصريون فتحركوا وخرجوا تتملكهم فرحا واستبشارا ، وأما أنا فاعتبرت هذه الخطبة أول حجر في أساس مصر للمصريين » وقد انعكس حب سعيد لمصر في اهتمامه بالجيش .

وكان أول ما فعله انه : « أعاد له سيادته الوطنية بعد ان كاد يقضي عليها عباس الذي جلب الالبانيين مرة اخرى ، وكون منهم حرسا بلغ عدده ستة آلاف » .

واحتفظ بمعظم وقته مع الجيش « لا يفارقه في حله وترحاله في مدن القطر المختلفة ، وكان يقدم لجنوده افخر الطعام من مائدته ، وكان دائما يغير ازياءهم الى اشكال مختلفة ، وقد البسهم افخر الملابس ، وكانت مناظر فرسانه المدرعة والمزركشة تشبه افخر جنود اوربا » .

ولم يكن سعيد يريد فتوحا او اقامة سياسات ، بل حرصا ملكيا - زعمي الاول . ومنه حبه للمصريين الى ، ان يقصرون ترقية العسكري من تحت السلاح الى ضابط ، وبهذه الطريقة ارتقى عرابي وغيره من ابناء مصر مثله الى مراتب القيادة في الجيش التي كان يحتكرها الاتراك والشراكسة ، وكان ذلك بدء النزاع الذي ادى الى الثورة العرابية » .

وكان سعيد هو الذي اهدى الى عرابي الكتاب الذي تبين تاريخه وتاريخ مصر . « ولشدة اعجابه به اهدى الى الفريق نابليون بونابرت طبع ببيروت ، وهو بادي الغيظ لأن الفرنساويين تمكنوا من التغلب على البلاد المصرية ، وكان يحرص على وجوب حفظ الوطن من طمع الأجانب » .

ولكن سعيدا « الذي كان يحب الشعب حبا جما لم يمن بتثقيفه وتنويره ، واكتفى عند توليه الحكم ديوان المدارس ، وكان اول من رحب بالاجانب ، وبالغ في اكرامهم ، وكانوا يحصدونه ويحصلون على امتيازات ومنح بلا حصر ، وكما قال نوبار : بدأ التدهور في عصر سعيد » .

وكان البعث الحقيقي القومي المصري في العصر التالي ــ عصر اسماعيل . وانبعث فيه النور الذي يترجم كلمة ، والجهود التي ظلت متقدة ، ولم تستطع اوربا استئصالها .ـ

وكان اسماعيل طموحا .. واسع الاحلام ، يريد اعادة مجد ابيه ابراهيم وجده محمد علي ، ولكن في صورة اخرى لا تستعدي اوربا ولا الدولة العلية ، وبهذا اراد ان يبني مصر دولة عصرية اوروبية « مصر في رأيه « قطعة من اوربا » » ولان تكون قاعدة اقامة دولة افريقية في السودان الكبير ... يمتد من مصر حتى اعالي منابع النيل التي آن الاوان لاكتشافها .

ولهذا « سلك اسماعيل نفس الطريق الذي سلكه جده في تكوين جيش قوي وما استلزم هذا العمل من اعادة فتح المدارس والمصانع الحربية التي اغلقت بعد وفاة محمد علي وفي عهد عباس وسعيد ، ومن شراء احدث الاسلحة الحربية التي تنتجها المصانع الاوربية والامريكية » .

واضاف اسماعيل اضافة جديدة مبتكرة اذ استخدم لاول مرة ضباطا امريكيين .

« استقر رأي الحكومة على الاستعانة باحدى الدول الاجنبية التي ليست لها مطامع في مصر والتي لا يربطها بالدول الاخرى معاهدات متشابكة ، واتجه الرأي صوب امريكا لاستخدام الضباط الامريكيين في تنظيم جيشه ؛ لان امريكا في ذلك الوقت لم يكن لها اي مطمع في مصر ، هذا فضلا عن كونها مركزا ممتازا من الناحية الحربية لتغلبها على الفرنسيين وطردهم من المكسيك » .

وبلغ عدد هؤلاء الضباط ما يقرب من خمسين ضابطا من الرتب الكبيرة والمتوسطة . وفي لقائهم بالخديو قال :

« ان خبرتكم التي نلتموها في الحرب الامريكية الاخيرة وعدم وجود اي مطمع لبلادكم في مصر كانا من الدوافع التي اوحت الي باستخدام الامريكيين .. واني اعتمد على اخلاصكم وكفاءتكم في معاونتي على تحقيق استقلال مصر » .

وقد اثار استخدام اسماعيل للضباط الامريكيين احتجاج اوربا .

« وقدمت فرنسا وبريطانيا احتجاجات واعتراضات على هذا الاسلوب من طرق تعيينهما في مصر ، وقد قوبلت هذه الاحتجاجات بالسخرية وعدم الاكتراث من جانب الخديو اسماعيل ، لأن كلا من هاتين الدولتين كانت تطمع في أن يكون هؤلاء الضباط من رجالها ليتسنى لها من هذا الطريق بسط نفوذها على مصر » .

ولكن كان الضباط المصريون هم الرواد الأوائل والمكتشفين الحقيقيين لمنابع النيل ، والكثير من الاكتشافات التي نسبت الى الأوروبيين والبريطانيين ، وكانوا أول من حملوا الحضارة الحديثة بمعناها الصحيح الى قلب افريقيا ، وحاولوا اقامة دولة افريقية متكاملة ويمكن أن تقف في وجه نهب واقتسام افريقيا .. الذى حدث بعد ذلك بقليل .

وكان الضباط المصريون هم الذين حذروا اسماعيل من خطورة استخدام الضباط الأجانب الأوروبيين في افريقيا « وقد نبه جعفر مظهر حكمدار السودان وقت ارسال صمويل بيكر مع حملة مصرية لاكتشاف وضم مناطق خط الاستواء الى خطر اعطاء مهمة كهذه لأجنبي ، ونصحه بتقرير مكتوب ان يرسل ضابطا من اركان حرب الجيش المصرى .. ولكن اسماعيل أراد مسايرة انجلترا ، واستمر في خطئه وعين غوردون خلفا لبيكر في حكومة خط الاستواء ، ثم عينه حاكما عاما في السودان » .

وقد عين اسماعيل غوردون بناء على توصية من ولي عهد انجلترا البرنس اوف ويلز .. ومن ذلك الحين بدأت المتاعب في السودان .

وكتب الكولونيل لونج الأمريكي رئيس أركان حرب غوردون يقول : « رأيت السودان في حالة رخاء ورفاهية ورأيته يتحفز ويتحرك للثورة بسبب ادارة غوردون . وقد اختارت الحكومة البريطانية غوردون شخصية لنشر الاختلال والارتباك في شئون

السودان ، ولأنها تعمل منذ زمن طويل على خلق الحوادث التي حدثت فيما بعد ، وهدفها الاستفادة منها لتكوين امبراطورية انجليزية في افريقيا » .

وكتب اوردين هو هنرى بنسه بقوله :

« ان عصر الرفاهية الكبرى في السودان كان عصر الحكام « الضباط » المصريين ، وان مسئولية الادارة الانجليزية من بكر الى غوردون تبين من الحالة التي آل اليها في آخر عهدهم » !!

ولم تكن لدى اسماعيل اصالة أبيه ولا حنكة جده ، ولهذا وقع فريسة سهلة للاستغلال والتخريب الذي مارسته اوربا في عصره ، وكانت السيطرة على مصر واحتلالها قد أصبحت مقدرة ..

والتهمته الهيدرا ذات الرؤوس العشرة ، وذات يوم قال هو نفسه ساخرا لضيف أمريكي كان يزوره « حالو باسيدي حين تهبط بالملائم ان تزلق لدمك وتبلعك الهيدرا الثيلة ذات الرؤوس العشرة التي ينبت لها رأس جديد كلما قطع واحد » .

« ومضى الخديو يعد على أصابعه : القنصل ، والقواد والنصاب ، والصحفي الأجنبي ، والكونت والبارون والمرابي ومزيف النقود واليوناني والأرمني » .

ومن مشروعاته الافريقية كانت الحملة التي أرسلها الى الحبشة سنة ١٨٧٦ وكانت مؤلفة من ٩٠ الف مقاتل بقيادة راتب باشا الذي اختاره الحرب التركي في الجيش وقد ، ناط اسماعيل القيادة الفعلية في الحرب بالقائد لورينج الامريكي ولوكان حربه ؟ ونجحت مضادة قوية في القيادة العليا بين الاثنين ، وأدى الخلاف الى هزيمة الحبش هزيمة منكرة في « قرع » وكان لها أسوأ الوقع في مصر » .

وكان سبب الهزيمة في تلك الحملة هو « السروج التركية المتأثرة والمطربة على الجمل والتعصب والجبروت والتي كلفت

الثورية مليون جنيه ونهبا » وبذرت في الجيش والشعب بذور الاستياء العام الذي نشأت منه الثورة العرابية » .

كانت تلك الروح وكانت السيطرة التركية الشركسية عامة قد عادت الى الجيش والدولة منذ موت ابراهيم ، وعجز سعيد من الحد منها ، ولذا تألفت في أوائل حكم اسماعيل « جمعية سرية » في الجيش برئاسة علي الروبي للدفاع عن مصالح العنصر الوطني ، ثم ازدادت نشاطا بانضمام احمد عرابي اليها بعد حرب الحبشة ، وكان مأمور الحملة في « مصوع » واتهمه الاتراك بالرشوة ظلما ليتخلصوا منه ، واقيل من وظيفته . ومن « هذا الوقت اخذ ينشر الدعوة بين اصدقائه ، وتمكن بجرأته وفصاحته أن يصبح الرئيس الفعلي لهذه الجمعية منذ عام ١٨٧٦ » .

وقد حدث أول صدام واختبار للقوة بين الضباط الوطنيين وبين السلطة بعد ذلك بقليل ، فقد رأت وزارة نوبار وويلسون — وهو مدير المالية البريطاني الذي عينته بريطانيا لتسوية مشكلة الديون — رأت انه من باب الاقتصاد رفت ٢٥٠٠ ضابط دون أن يدفع لهم المتأخر ، وكان لا يقل عن مرتبات خمسة عشر شهرا ، وهاج الضباط وقاموا بمظاهرة كبيرة في ١٨ من فبراير عام ١٨٧٩ ، وحاصروا نوبار وويلسون امام وزارة المالية ، واوسعوهما لكما وضربا حتى جاء الخديو بنفسه واخمد الفتنة .

وبعد هذا الحادث اضطر نوبار للاستقالة ، واقترض ويلسون ٤٠٠ ألف جنيه من بيت روتشيلد دفعت منها متأخرات الجيش .

« وكشفت هذه الحركة الجندية عن قوتها ، وصار الجيش من ذلك الوقت الى جانب المجلس النيابي احد قوى المعارضة التي يعتد بها » .

وكان الضباط يدركون ان اسماعيل لا يؤيدهم ، ولكن يريد ان يستخدمهم لاغراضه ، وهو قد سكت لثورة الضباط وطلباتهم ، ولكنه بدأ في تشريد قادتهم ، ربما بمرتبات الذي نقل مغضوبا عليه الى الاسكندرية ..

وقيل ان صبري روى : « عقدنا اجتماعين ، واقترحت فيهما ان نقوم بعزل اسماعيل ، وكان هذا هو افضل الحلول الممكنة ، كان عزل اسماعيل اشرف لو تم على ايدينا وفيما به وكان في استطاعتنا يومئذ ان نتخلص من اسرة محمد على كلها وان نعلن الجمهورية ، ولم يكن القناصل او الدول الاجنبية لتعارض ، وكنا نلاشينا كل التعهدات التي حدثت ، وكنا وفرنا الخمسة عشر مليونا التي استلفها اسماعيل ، وقد ووفق على اقتراحي ، ولكن لم يكن هناك من يأخذ المبادرة ولهذا لم ينفذ ».

كان هؤلاء هم الضباط الوطنيين الراديكاليين الذين يريدون ثورة تحقق الجمهورية .. ولكن ظهرت هناك قوى اخرى .

وقد تألفت في حلوان « جماعة من الكبراء باسم الحزب الوطني من اعضائها شريف باشا وشاهين باشا ناظر الحربية سابقا وعمر باشا لطفي وراغب باشا ، وسلطان باشا » وارسلوا الى باريس (الى اديب اسحق) لاصدار جريدة على نفقتهم توزع سرا في مصر .. ووزع الحزب في نوفمبر سنة ١٨٧٩ نشرة باللغة الفرنسية وزع منها ٢٠ الف نسخة كانت بيانه ضد النظام ، وجاء في المنشور ان « الحزب يريد انقاذ مصر من الهوة السحيقة التي تردت فيها تحت ثقل الربا والاستبداد ، وان اكثر من ٦٠ مليون جنيه قد استولى عليها السماسرة ، وان الحكومة الحالية لا تمت الى مصر بنسب حقيقي ، لان الدول هي التي انشأتها ولا دخل للامة فيها ، وان مصر تريد ان تتخلص من ديونها بشرط ان تتركها الدول حرة في تنفيذ الاصلاحات العاجلة »

وتحالف الضباط الوطنيون الراديكاليون – عرابي وعبد العال حلمي وعلي فهمي ومحمود سامي – مع الباشوات على تنظيم الخطط المشروعة للحزب الوطني ، وتقرر العمل على ضم الكثيرين في المديريات ، وكان المقصود جعل القيادة على اتصال دائم بالمناطق الزراعية .

وقد أصبح عرابي زعيم الحزب والجيش والأمة كلها ، وبعد قليل تقرر أن يقود المظاهرة التاريخية في ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ الى عابدين لتأكيد قوة « الأمة » وتحقيق مطالبها .

« ولما اجتمع الجيش في عابدين نزل الخديو من السراي وتوسط الساحة ، فمثل بين يديه عرابي ، فخاطبه الخديو قائلا :

— ما أسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟

— جئنا لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة !

— وما هذه الطلبات ؟

— هي إسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربي ، وابلاغ الجيش العدد المعين في الفرمانات السلطانية ، والتصديق على القوانين العسكرية التي أمرتم بوضعها .

— كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا !

— لقد خلقنا الله أحرارا ... ولذا لا نستعبد بعد اليوم !

وخاف الخديو ، وأشار عليه المستر كوكسن القنصل لانجلترا الذي كان يقف معه بالرجوع الى السراي ، وتصدى هو ومعه كولفن المراقب المالي لمخاطبة عرابي بالنيابة عن الخديو .

ـ ان طلب اسقاط الوزارة وطلب تشكيل مجلس نواب من حقوق الامة لا من حقوق الجهادية ، ولا لزوم لطلب زيادة الجيش ، لان المالية لا تساعد على ذلك .

واجاب عرابى اجابة هي نقطة التحول واكتمال الوعى في تاريخ مصر السياسى والعسكرى :

ـ « اعلم يا حضرة القنصل ان طلباتي المتعلقة بالاهالي لم احضر اليها الا لانهم القانونى نائبا عنهم في تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم اخوانهم واولادهم ، وهم القوة التى ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة ، واننا لا نتنازل عن طلباتنا ، ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ .. »

كان ذلك اول اعلان لن « الجيش للشعب » ، وان القوة العسكرية سلاح الشعب .

وقامت الثورة العرابية ولم يقدر لها النجاح وانتهت بالفشل واحتلال البلاد .. ويرجع بعض المؤرخين اهم اسباب الفشل الى التناقض في صفوف الثورة وخاصة بين الضباط الذين كانوا يريدون ثورة كاملة جمهورية وطنية ثورية ، والباشوات الذين كانوا يريدون اصلاحا في ظل خديوية دستورية اصلاحية فحسب ، ولقد انقلب بعض هؤلاء على الثورة وخانوها مثل سلطان باشا ، وتولى بعضهم الحكم والسلطة بعد الاحتلال وعلى رأسه مثل شريف .. وحسب الدرس عميقا في ضمير مصر !

وقد كان اول عمل حرص الاحتلال البريطاني ان يقوم به بعد فشل الثورة هو تصفية الجيش وابادة آخر ما بقى منه .

وفى ١٩ سبتمبر عام ١٨٨٢ اى بعد خمسة أيام من احتلال العاصمة صدر مرسوم الخديو توفيق بالغاء الجيش المصرى ، وفى ٢٤ أكتوبر صدر مرسوم آخر بتجريد جميع الضباط الذين

اشتركوا فى الثورة العرابية من رتبهم وحرمانهم من أى حق فى المعاش ، أو الاستيداع ، وبدأت المحاكمات للكثيرين منهم ..

واختار الخديو توفيق ضابطا بريطانيا السير « فالانتين بكر » لتنظيم جيش مصرى جديد ، واختار بدوره السير « ايفلين وود » أحد قادة جيش الاحتلال ليكون قائدا عاما للجيش المصرى الجديد ..

وتقرر ان ينقص عدد الجيش الى ستة آلاف ، ووكلت القيادات كلها الى ضباط بريطانيين ، ولا يعين ضابط مصرى الا اذا تأكد ولاؤه للاحتلال ، واغلقت أكثر المدارس الحربية ، ولم يبق سوى مدرسة واحدة ، واغلقت جميع الترسانات التى كانت تقوم بصنع المدافع وصنع الذخائر والبنادق فى الاسكندرية واغلقت المدرسة البحرية بالاسكندرية ، وعطلت الترسانة البحرية وبيعت السفن الحربية ..

وادخل الاحتلال نظاما جديدا هو نظام « البدل النقدى » للاعفاء من التجنيد ، وادى هذا الى اعتبار الجندية تكليفا تختص به الطبقات الفقيرة ، وذلك لقتل روح الجندية ، وقرر الاحتلال اخيرا ابادة البقية الباقية من الجيش العرابى فى معركة بالسودان .

ووقعت هذه المعركة فى « كردفان فى ٥ نوفمبر عام ١٨٨٣ » وكان الجيش المصرى يبلغ ١٢ الفا يقوده ضابط انجليزى الجنرال هيكس » .. وتدل كل الظروف والملابسات على ان غرض الانجليز من ارسال هذا الجيش وتعريضه لأشد تعريضه للهلاك كان التخلص منه ، لان فيه البقية الباقية من جيش عرابى ؛ وقد هلك الجيش ولم ينج منه سوى ضابطين برتبة الملازم و ٣٠٠ جندى .. واطمأن الاحتلال بذلك » ولكن لم تنطفئ الروح ولم تمت مع هذا .

وفى يناير سنة ١٩٠٠ « حصل تمرد فى فرقتين بالجيش المصرى فى السودان ، وكان ذلك اثر صدور أمر نائب الحاكم العام

تجريد الجيش من سلاحه وكبريائه ، ورفضت الفرقتان الثامنة الامر لما فيه من الامتهان لكرامتهما وعدم الثقة في الجيش ، وقد سجن الضباط المتهمون بالتحريض على التمرد ، واحيلوا الى مجلس تحقيق لمحاكمتهم ، وانتهت المحاكمة بطرد سبعة من خدمة الجيش ، واحالة واحد الى المعاش ، وواحد الى الاستيداع وتوبيخ اثنين ! ..

كانت الشرارة التي اطلقها ابراهيم والجذوة التي أشعلها احمد عرابي لا تزالان قائمتين ، وحينما قامت ثورة ١٩١٩ كان من ابرز قادتها ضابط من الجيش المصرى هو عبد الرحمن فهمى الذى اشترك فى الحملة المصرية بقيادة كتشنر لاعادة فتح السودان ، وبعد الحملة اشتغل فى « المعية » الخديوية لعباس الثانى ، وفى عام ١٨٩٦ عين ياورا لوزير الحربية مصطفى فهمى باشا ثم نقل الى خدمة البوليس ثم الى الادارة ..

وكان عبد الرحمن فهمى احد اعمدة التنظيم والتخطيط والعمل السرى فى الثورة ، وقد اعتمد عبد الرحمن فهمي على الطلبة والعمال فى تكوين التنظيمات التى قامت بسلسلة من بطولات الثورة والتى اصبح كل هم الاستعمار بعدئذ تصفيتها ليتحول الوفد الى حزب سياسى كل همه المفاوضات الرسمية التى تدور وتخضع لعصا البوليس ... !

وقد حقق الاحتلال هدفه بعد مقتل القائد البريطانى للجيش المصرى السير « لى ستاك » عام ١٩٢٤ - وكان بين المطالب البريطانية فى الانذار الذى قدم للحكومة المصرية فى ذلك الحين اخلاء الجيش المصرى فورا من السودان ..

ولكن عندما صدرت التعليمات من السلطات البريطانية الى وحدات الجيش المصرى بالجلاء من السودان والانسحاب الى مصر ، ابى ضباطه وجنوده أن يغادروا مراكزهم الا اذا تلقوا امرا بذلك من الحكومة المصرية ، ووقفوا موقف مقاومة بقيادة الميرالاى

« احمد رفعت » قائد المدفعية ورلظي رفعت بك ومعه الضباط والجنود لتعيل الامر ، وحاصر الجنود الانجليز لكنات الجيش المصرى ، وحاولوا الاستيلاء على ذخيرته ، فردهم الضباط والجنود ، واستمروا في ثكناتهم يافعصون السعر . وارسل الملك رسولا خاصا ابلغ الضباط والجنود ان الملك يأمرهم بالانسحاب ، وانتهوا للامر آسفين محزونين » .

ولكن برغم كل الاسوار التى اقامها الاحتلال والسراى حول الجيش تسرب شيء من روح ثورة ١٩١٩ الى صفوفه ..

وقد حاولت الحكومات الوطنية التى تولت الحكم لفترات قصيرة محدودة ان تنفذ الى الجيش وتغير وتجدد من نظمه ولكن وقف الاحتلال سدا منيعا .

كان الاحتلال يسيطر على الجيش بعزله تماما عن الشعب وبالنظم التى وضعها منذ بداية حكمه وبسيطرة ضباطه وقادته البريطانيين وبقصر العسكرية على الطبقات والاسر الموالية للسراى والاحتلال ، ولم يكن يقبل سوى ابنائها في المعهد الوحيد وهو الكلية الحربية ..

ولكن في منتصف الثلاثينات تغيرت الظروف والاحوال ، اذ كانت الحرب العالمية الثانية وشيكة الوقوع ، واصبح ضروريا لهذا الاعداد الامبراطورية ..

وكانت الحرب العالمية الاولى قد علمت بريطانيا انه لا بد من اقامة قواعد صناعية وعسكرية محلية وصغيرة في ارجاء الامبراطورية تلافيا لتعطل المواصلات ونقص المؤن والذخائر والقوات . وفي ظل هذه الضرورة عقدت بريطانيا معاهدة ١٩٣٦ ، واردت بها تهدئة الثورة الوطنية في مصر ، واعداد الشرق الاوسط لاحتمالات الحرب القادمة التى ستكون ميدانا رئيسيا لها ..

وسمحت معاهدة ١٩٣٦ لمصر بزيادة عدد الجيش المصري وتقويته وتجديد أسلحته وهو المطلب الذي كانت تلح عليه وتعجز عن تحقيقه الحركة الوطنية ، كما سمحت المعاهدة أيضا بتمصير هذا الجيش وألا يكون لبريطانيا إلا بعثة عسكرية استشارية فيه .. وكانت بريطانيا تريد جيشا مصريا يلحق بالقوات البريطانية ويوفر جهدا وأرواحا بريطانية . وأصبح ممكنا أن يلتحق « العنصر الوطني » من أبناء الطبقات المتوسطة والصغيرة وفي أفواج كبيرة بالكلية الحربية ، وأن يصبحوا ضباطا في جيش مصر .. وما دام الأمر قد يعني الحرب والموت فلا ضرر أن يتحملهما هؤلاء !

كان الطلبة الجدد من أبناء الطبقات الصغيرة التي عانت وعانت مشكلة مصر والتي اشتركت دائما في ثورات مصر ، ولهذا كان لا بد حين يتعلمون العسكرية ويصبحون ضباطا أن يدب القلق الوطني في صفوف هذا الجيش ، وأن يشعر بمشاكل شعبه ، وأن ينتهي إلى تصحيح مكانه من حياة الشعب وثورته ..

وقام الجيش المصري خلال الحرب بدوره المرسوم له ، وشكره القادة البريطانيون ، العسكريون والسياسيون .

قال تشرشل : « إن مصر قامت بدور مشرف مهم له قيمته لا في دفاعها عن نفسها فحسب ، ولكن في الصراع العالمي » . وقال أيضا : « قام الجنود المصريون بدورهم خلال الحرب فحافظوا على الأمن في الدلتا ، وحرسوا كثيرا من المراكز والمستودعات ، وساعدوا مجهودنا الحربي بمختلف وسائل المساعدة ، وهو المجهود الذي نجح مرة أخرى في حماية الدلتا من الهجوم » .

وقال الجنرال أوكنلك : « إن المساعدة التي قدمها لنا الجيش المصري عظيمة ، لقد حرس المرافق الداخلية ، وأرسلت حامية مصرية إلى واحة سيوة ، وكانت خدمات الجيش المصري عظيمة !

وفي أعمال الرقابة والأنوار الكاشفة والبطاريات المضادة للطائرات ، وخفف بذلك الضغط على قواتنا الى حد كبير » .

واعترف رئيس البعثة العسكرية البريطانية لدى الجيش المصري بأنه « على الرغم من أن مصر بناء على نصيحة الحكومة البريطانية لم تعلن الحرب على المحور الا في عام ١٩٤٥ فان الجيش المصري وسلاح الطيران المصري ساهما بإخلاص مع القوات المتحالفة خلال أيام الحرب الحرجة من عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٤٢ وقدما للقوات المقاتلة خدمات رئيسية » .

وبذلك قام الجيش المصري بما تقضي به معاهدة عام ١٩٣٦ ، وكان جزءا من الاستراتيجية البريطانية والأهداف الامبراطورية خلال الحرب ، ولكن الجيش المصري أيضا تابع من وطنه ، وعاش ضباطه أكبر حرب عرفها التاريخ ، وتابعوا المعارك والأسلحة وأساليب القتال الجديدة ، وتابعوا أيضا الصراعات والسياسات وكل المبادىء والمصالح والمطامع التي تختفي وراء الحرب مطبقين المبدأ الألماني الشهير : « الحرب امتداد للسياسة بشكل آخر » .

وبعد نهاية الحرب انفجر السخط الذي احتدم طويلا في نفوس الشعب ، وكان لا بد أن ينتقل الى صفوف الجيش ، فلم يعد ممكنا اقامة الأسوار والأستار الحديدية وعزل الجيش عما يحدث في البلاد ..

وتلاقت فيه الاتجاهات والتيارات التي كانت تتلاطم في حياة البلاد .

ولكن لم يرد ذكر الجيش ، ولم يبدأ الوعي بالخطر لدى السلطة الحاكمة الا بعد أن رجع رئيس الوزراء من نيويورك بعد فشل عرض قضية مصر في هيئة الأمم صرح قائلا : سنحول وجهتنا شطر الجيش المصري سياج الوطن ، فنقويه بزيادة عدده والاستعانة

بالدول الأخرى لجلب عدد من الخبراء والمستشارين له وستدعم الإصلاح الداخلي بكل ما في وسعها . لكيلا تترك لانجلترة فرصة التدخل بما لا يليق » .

وقد حاول رئيس الوزراء أن يستعين بخبراء أمريكيين لتدريب الجيش ، ولكن اعترضت الولايات المتحدة ... كانت لها خططها الخاصة حول مصر ، وجيش مصر !

وأدركت بريطانيا مغزى تصريح رئيس الوزراء واتجاهاته ، وبعد أيام تشكلت الثالثة وزير الحربية ، اللواء محمد عطية ، وكان من السعديين الوطنيين السابقين ، وتعيين وزير يأمنه البريطانيون تماما على الجيش !

وكان الوزير الجديد « محمد حيدر » ، من « المخلصين » رجال الاحتلال وتلاميذه المتفانين وقد « صعد نجمه » منذ استشهر بقسوته في قمع المظاهرات خلال ثورة ١٩١٩ ، إذ كان ضابطا بوليسيا ، وأحد رجال الحكمدار الانجليزي المشهور « رسل باشا » وتدرج في خدمة الاحتلال حتى أصبح مديرا للسجون .. ثم وزيرا للحربية ..

ولم تكن كل الضمانات والاحتياطات التي اتخذتها « السلطة » في الجيش أو ضد الشعب ، وامتد القلق واشتد ولم يعد مقتصرا على مصر ، ولكن شمل المنطقة كلها ، وخاصة أهم القواعد بالنسبة للوجود والنفوذ البريطاني .

انفجر العراق في انتفاضة شعبية أسقطت معاهدة عقدها البريطانيون مع رئيس الوزراء صالح جبر .. على طراز المعاهدة التي عقدها صدقي — مع بيفن .. واجتاحت العراق مظاهرات واضرابات تحمل نذر ثورة كاملة ..

وتململ السودان بعد صبر طويل ، ثم اضطرم يشتعل بعد كل مطالب السودان .. وخاصة للطلب التاريخي ، وهو الجلاء ووحدة وادي النيل ..

وتطورت المشكلة الفلسطينية ، واثارت الشرق الاوسط كله .
وكان الرأى السائد فى البداية ان تقتصر الحرب على الفلسطينيين اولا ، وان تساعدهم الدول العربية لكى يحرروا انفسهم ، وان تسلحهم وتمولهم ، وتسمح للمتطوعين بالحرب وتجهزهم . وبذلك تقوم حرب ثورية ، شعبية ، طويلة المدى يمكن ان تستمر وتواجه الصهيونيين بنفس اساليبهم .

وقد خافت بريطانيا ان تؤدى ، مثل هذه الحرب الى تلاحم كل القوى الوطنية والثورية العربية ، والى ان تشب النار فى كل المنطقة .

وكان خوف الأنظمة العربية لا يقل عن خوف بريطانيا .
ولهذا تقررت الحرب النظامية ، بان تدخل الجيوش العربية النظامية وان تحسم الأمر ..

كانت بريطانيا تعتمد على العروش ، الهاشمية ، فى العراق والأردن لكى تظل الحرب الفلسطينية فى اطار الأهداف والاستراتيجية البريطانية فى المنطقة ولا تتخطاها .

ولقد كان الرأى السائد فى مصر الا يشترك الجيش فى الحرب ..

كان راى رئيس الوزراء الا يشترك الجيش لأنه غير مستعد بأية حال .

وكان رأى وزير الحربية حيدر ان اشتراك الجيش فى حرب مخاطرة ، وكان رأى القائد الذى اختير لقيادة الحملة ، المواوى ، ان الجيش المصرى غير معد لتحمل مسئوليات حرب ،

ومع ذلك اشترك الجيش المصرى بأمر « الملك » وضد كل هذه الاعتراضات .

كانت بريطانيا في البداية لا تشجع اشتراك الجيش المصرى في الحرب ، وان تمتد « الحرب » المصرية الى خارج حدود مصر ، والى العالم العربي ، ولكنها لم تمانع بعدئذ « ليهلك » الجيش المصري تماما في حرب لا قدرة له عليها ، فذ سوف يكون ذلك خدمة لبريطانيا !

وحارب الجيش المصرى ، واحتمل العبء الأكبر ، وخاض أشق المعارك ، وسجل صفحات البطولة المشرفة الثلاثة التي سجلها العرب في تلك الحرب .

« كانت معركة الفالوجا معركة مشرفة ، وهى قد أعطيت مكانا مشرفا في التاريخ العسكرى المصرى ، ولهم كل الحق ، فقد حاربت القوات المحاصرة بشجاعة وصمود ، وثبتت في موقف يدعو الى كل اليأس ، ورفضت بحث أى طلب في التسليم ، وخرجت بأسلحتها » . وذلك باعتراف صهيوني متعصب .

وأضاف أيضا : « لقد أثبت المصريون تفوقهم في الدفاع ، وتفوقوا فيه طوال الحرب » .

وقال ايجال الون : « كان المصريون هم أخطر ما واجهته اسرائيل وجيش اسرائيل » .

وخلال حصار الفالوجا تقدمت الأردن بمشروع أعده جلوب لفك حصار القوات المصرية ، ويقضى بأن تقوم القوات الأردنية والعراقية بهجوم يشغل الاسرائيليين في الوقت الذى تقوم القوات المصرية بتدمير أسلحتها الثقيلة ومعداتها ، وتنسحب متسللة على الأقدام وعبر طريق سرى في الصحراء يرافقه ضابط بريطاني واحد من ضباط جلوب يقوم بارشاد القوات !

ورفضت القيادة المصرية الشروع ، وأرسلت الى الضباط والجنود المحاصرين لكي « يدافعوا حتى آخر جندي وآخر ذخيرة كما يليق بجنود مصريين » .

وقالت القيادة المصرية : « ان مشروعا بهذه الخطورة لا بد ان يكون خطأ ، ولا بد ان يكون الاسرائيليون على علم به ! »

ويقول كتاب صهيوني عن حرب عام ١٩٤٨ : « كانت القيادة المصرية على حق وكانت اسرائيل على علم بالخطة ، ولكن من طريق آخر ، وكانت تنتظر القوات المصرية لابادتها » .

وكانت بريطانيا تريد تجريد مصر من اي نصر في تلك الحرب ، وكانت الحكومة البريطانية هي المورد الرئيسي للأسلحة للجيوش العربية ، ولم تستطع هذه الجيوش ان تجد موردا آخـــر لما يلزمها ، وقد حاول الجيش السوري وحاول الجيش المصري ان يشتري الاسلحة من غير السوق البريطانية ، ولكن فشلت كل المحاولات !

وفي المرحلة الأخيرة والحاسمة من الحرب ، ترك الجيش المصري وحده يتلقى كل الضربات ، وبالقوة المركزة لاسرائيل بكل الاسلحة والخبرة والقوات التي تدفقت وخاصة من الولايات المتحدة الامريكية وسكتت كل الجبهات العربية الاخرى ، وسحبت قواتها من الجناح الفرات المصرية فــاتحتها ، بل بدا واضحا ان القوات العاصمة – الاردنية والعراقية – تتفق مع بريطانيا في هزيمة الجيش المصري !

ولم يملك الجيش سوى ان يرتد وهو يقاوم مقاومة باسلة اعترف بها الاسرائيليون مرة أخرى ..

وانتهت الحرب في فلسطين ، ومنيت القوات بهزيمة ساحقة ومنكرة ،

دخل الجيش بلا استعداد ، وبأسلحة قليلة وفاسدة وبقيادة عاجزة وبخطط مرتجلة ، ومع حكام يعملون لسياسة العدو . ولكن الجيش المصري مع هذا لم يهلك ، بل على العكس تسببت الهزيمة مريرة وعميقة في نفوس الضباط ، واستخلصت عقليتهم الواعية أفضل دروسها . وكانت « الحركة الحقيقية في القاهرة » . أن رأس الفساد ومصدره الأول هناك ، ولا بد من القضاء عليه أولا .

وكلما حدث في حروب أخرى منذ زمن بعيد — عاد الجيش مهزوما ، وأدرك الضباط أن سبب الهزيمة الأول هو الاستبداد والاستعمار معا وهو ، الجهل المتسلط المتفوق على الشعب ! .

وكان قد تألف قبل الحرب ببعض الوقت وبين الضباط الشبان تنظيم ولد من لقاءاتهم واستعراضهم للشعور الوطني ؛ ولمشاكل البلاد عامة .

وكان على رأس هذا التنظيم ضابط شاب .. كان بطلا من أبطال الحرب ، ومن أبطال الفالوجا ، وتمكن ، بشجاعته وفصاحته ، أن يصبح زعيم التنظيم الذي أطلق عليه ، الضباط الأحرار » ، وبمجرد عودتهم بدأوا العمل فورا : أن ينظموا صفوفهم ، ويضعوا خططهم وبرامجهم ، ويبحثوا كل الثورة التي كانت تستثيرها البلاد ، وأن يقوموا بدورهم فيها ..

وفي عام ١٩٥١ بدأ الكفاح الشعبي المسلح ضد بريطانيا بعد إلغاء المعاهدة .

واشترك الضباط الأحرار في ذلك الكفاح : تطوع بعضهم في الكتائب ، واستولى بعضهم على الأسلحة والذخائر من مخازن الجيش ، وزودوا بها المقاتلين ، ووضعوا الخطط لتنظيم العمل وتسهيله .

كانت الحركة غير متكافئة وغير منظمة ، ولكنها كانت تشتد وتتطور كل يوم ، وخالت السراي والاحتلال اشد الخوف ، حتى لا تتحول الى ثورة شعبية مسلحة تكتسح كل شيء ..

واحرقت القاهرة في ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ ، وبينما كانت القاهرة تحترق كان كبار ضباط الجيش يتناولون الغداء على مائدة جلالة الملك احتفالا بميلاد ولي العهد .

وحينما استغاث وزير الداخلية بوزير الحربية وطالب بنزول الجيش ـ رد الوزير بانه يخشى ان ينضم الضباط الشبان والجنود الى الجماهير !

اصبح هناك جيشان : احدهما يتناول الغداء مع الملك ، والآخر مغلق في ثكناته حتى لا ينضم للجماهير !

واحرقت القاهرة ، واقيلت الوزارة الوطنية تمهيدا للانتقام واستئصال كل اسباب الشغب ..

وذهب رسول من الضباط الاحرار الى الحكومة المقالة يرجو ان يلوم الحزب والجيش باعلان الثورة وطع لذلك ، وباستمرار الكفاح الى حرب تحرير ضد الاستعمار ، ولكن تخاذل « الباشوات الليبراليون » الذين كانوا يؤمنون بالملكية الدستورية والكفاح في اطار الشرعية المتخمة .

وبعات تصفية وحشية لكل القوى الوطنية في صفوف
وبدات تصفية وحشية لكل القوى الوطنية . على ان تبدأ بعدها تصفية اشمل وادق في المعترك الاخطر وهو الجيش .

كان الجيش يعد لمهمة ومرحلة جديدة ، تحتم تطهيره ليظل « الجيش » جيش الملك « ودرع الملك » ويجب ان يظل كذلك ، ولم يكن الملك وحده هو الذي يريد الجيش كانت هناك قوى اخرى تتطلع للاعتماد عليه .



الجماهير

بدأ اعداد مصر مبكرا لعالم ما بعد الحرب .

اقيلت وزارة الوفد الثانية في ذلك الحين . في ٨ من اكتوبر عام ١٩٤٤ غادر السفير البريطاني مصر لقضاء اجازة في جنوب افريقيا ، وارسل الملك خطاب الاقالة الى رئيس الوزراء بعد ان ترك له السفير الاذن !

وقال الخطاب : « لما كنت حريصا على ان تحكم بلادي وزارة ديمقراطية تعمل للوطن ، وتطبق احكام الدستور نصا وروحا ، وتسوي بين المصريين جميعا ، وتقوم بتوفير الغذاء والكساء لطبقات الشعب — فقد رأينا ان نقيلكم من منصبكم ... » .

وقبل رئيس الوزراء الاقالة شاكرا ، وكانت الاقالة اهانة للحكومة وصفعة لتلك الاغلبية . ولكنه كان طبيعيا ، ودورة حكم معروفة ، ان ينحى الوفد للحكم في ظل ازمة حادة ، ويأتي بأغلبية ساحقة ، ويظل حتى يفقد كل شيء ويبرد ، ثم يقال فجأة وبطلاقة باسم الدستور وحرص الملك على حقوق شعبه .

واصبح طبيعيا ايضا ان يتقبل الوفد اللطمة شاكرا وينتحي لينتظر ازمة جديدة بعد حين تحتم مجيئه !

وقد جاءت الوزارة التي قامت مجيئا شاذا وفريدا في تاريخ الوزارات الوفدية ..

حاصرت الدبابات والقوات البريطانية قصر عابدين ودخل السفير وقائد القوات البريطانية شاهرا مسدسه وطالبا من الملك أن يستدعي الوفد الى الحكم أو أن يتحمل كل النتائج !

ولأول مرة يطلب البريطانيون وبالقوة أن يتولى خصمهم التاريخي — الوفد — الحكم في مصر !

كان الموقف في الداخل قد تدهور الى آخر مدى ، وكان الموقف في الخارج وعلى الحدود لا يختلف كثيرا بعد معارك الصحراء ، وكان لا بد من حكومة ، ذات شعبية تسيطر على الموقف وتهدئ الجماهير الساخطة وتحقق استقرارا وتكفل لبريطانيا مواجهة الأزمة التي كانت تهدد مصيرها كله . وليس لبريطانيا — وفق القاعدة المشهورة — أعداء دائمون ولا أصدقاء دائمون ، ولكن لها مصالح دائمة . وقد حتمت المصالح في ذلك الحين قيام حكم لا يمكن أن يحققه سوى الوفد وكان يجب أن يأتي .

وكان الوفد هو حزب الأغلبية الذي ما زالت تثق به الجماهير .

وكان الوفد هو الذي وقع معاهدة ١٩٣٦ . فلهذا كان السهر من يحفظها ..

وكان الوفد معاديا لبريطانيا وللامبريالية ، ولكنه كان يبغي النصر معاديا للفاشية والنازية معاداة مبدأ وسياسة ، ولهذا اختارت بريطانيا الاعتماد عليه ..

وقد أثار حصار السراي وإملاء بريطانيا ارادتها مشاعر متلاطمة ومتناقضة وبعث أزمة ضمير حتى في صفوف الوفد ؛ ولكن لم تتضاعف وتتفاقم ، لأن الملك كان المسئول الأول والأخير ؛ ولأن الموقف كان من الانهيار بحيث كان البديل هو حماية بريطانية مباشرة ..

وقد طالبت أحزاب الرأى والأحزاب الموالية بالاشتراك في الحكم وبأن تكون الوزارة ائتلافية . ولكن الوفد رفض ، وكان منذ رئس لند استقر على رفض اى ائتلاف مع هذه الأحزاب ..

ومن تلك الساعة أصبح الوفد : في رأي تلك الأحزاب خائنا ، فقد قبل الحكم على الحراب البريطانية ، عميلا لبريطانيا ومنفذا لسياسة الاستعمار .. وكانت تلك الأحزاب لا تأتي للحكم إلا على تلك الحراب وعليها وحدها !

وقد حكم الوفد أطول فترة حكمها حتى ذلك الحين ، ووفر لبريطانيا خلال عامين حاسمين الجو المناسب لكسب الحرب في الشرق الأوسط ، وظل الملك متربصا بالوزارة ، وأزاله بعد هدوء الموقف في أبريل من نفس العام فلم يتصدى منها ! ولم يول أحد رجاله ورجال بريطانيا المخلصين - أحمد حسنين رئيس ديوانه - « ومن أصدقاء وأعظم أصدقائنا » ولكن ذهب حسنين يستأذن السفير البريطاني الذى استشار لندن التى ردت ببرقية مقتضبة « لا تغيير » ، ولم يتغير شيء .

وفى أكتوبر كان الموقف العسكرى في الشرق الأوسط قد استقر وكان ميزان الحرب عامة قد مال فى كل الميادين ، وانتهت الضرورة ، وأدى الوفد المهمة ، وأصبح ذهابه ضروريا تماما كما كان مجيئه !

كانت بريطانيا لا تريد مواجهة عالم ما بعد الحرب فى مصر بحكومة تعتل في الغالب رضا الجماهير ، وتكون قيادة طبيعية للقوى الشعبية .. لم تكن تريد سنة ١٩١٩ أخرى ..

لقد ذاقت الوفد لقائها بالإرادة الجماهيرية والوعى السياسي للأمة : وكان منذ لبلته جبهة واسعة تضم كل المعادين للاستعمار من كل الفئات والطبقات ولكل الأسباب والمصالح المختلفة .

وأصبحت سياسة بريطانيا في مواجهته هي خلق الخلافات والصراعات ، لينقسم وينشق وليتحول الى احزاب عدة متصارعة وبذلك تتحول المعركة ضد بريطانيا الى معركة داخلية بين مختلف الاحزاب ، وتحكم بريطانيا في الجميع .. !

وقد كان الانشقاق الأول لكبار الاقطاعيين ابناء الهيوات ، الذين ازعجهم وانزعجهم دخول الرعاع الى الثورة ! وكونوا حزب الاحرار الدستوريين .

وانشق بعدهم افراد انضموا الى حزب الفئة السراي ــ ليكون حزبها الخاص ــ وهو حزب الاتحاد . وانشق آخرون ــ بالارهاب والاغراء ــ لينضموا لحزب اقامه « صدقي باشا » باسم حزب الشعب ليزيف تجربة فريدة باسم الشعب والدستور ثم انشق السعديون ..

وفي النهاية انشق حزب الكتلة ــ من سكرتير الوفد السابق وبعض اتباعه لأسباب فردية وشخصية .

ولم يكن لأى من هذه الاحزاب مبادئ، أو برنامج لجنة او قواعد للذكر بين الجماهير ، كانت مجرد ادوات في اللعبة السياسية ومصيرها المحتوم هو العمل من اجل السراى او الاحتلال فرادى او مجتمعين ! وفي النهاية راحت بريطانيا جميعهم ليعملوا معا في عالم ما بعد الحرب الخطر ..

وفي ٨ اكتوبر ذهب أحد سكرتيري الملك الى رئيس الوزراء في فندق « سيسل » بالاسكندرية وسلمه مظروفا ! فتحه وفوجيء بانه الاقالة ، ورد متشكرا ، وانتهت اللعبة !

وتألفت الحكومة الجديدة برئاسة السعديين وزعيمهم « احمد ماهر » ، وضمت كل الاحزاب الاخرى : الاحرار الدستوريين والكتلة والمستقلين ، وكانت جبهة تمثلها كوكتها السراى وبريطانيا لمواجهة الوفد ، ولقيادة مصر ما بعد الحرب ..

وكان السعديون انشقوا من الوفد إثر فصل النقراشي من الوفد ، وضم أنصارًا من دعاماته الكبار ، واعتبروا أنهم الوفد وورثة سعد زغلول الحقيقيون ، واشتقوا من هذا اسمهم ..

وقد التحق السعديون بعد توقيع معاهدة ٣٦ ، ومنحوا بانضمامهم لتلك الجبهة قدرًا من الاحترام .. كان لبعضهم ماض وطني لامع ، وكان من انتخابهم من بدأوا متطرفين على رأس الجهاز الثوري للوفد ، واشتهروا بالجبهة ثم رأوا الاحترام تسلب فقد كل مكانة عند الناس !

وكان السعديون — قد نصحوا منذ بداية الحرب الى أن تشترك مصر اشتراكًا كاملًا فيها والى جوار الحليفة بريطانيا ، وبهذا فقط تضمن مصر استيفاء كل حقوقها على مائدة الصلح حيث تكون طرفا مباشرا ومحاربا !

ولم تجد الدعوة التى تحمس لها السعديون ، وطالب زعيمهم بالبلاد يدعو لها — أى صدى لدى الناس ، بل زادت من عزلتهم وانصراف الشعب عنهم .

وحينما تولى السعديون الحكم قرب نهاية الحرب وعلى رأس جبهة مزعزعة سنحت لهم الفرصة لتحقيق امنيتهم ..

وكان مؤتمر سان فرانسيسكو على وشك الانعقاد لبحث قيام المنظمة الدولية الجديدة التى ستفصل فى مشاكل العالم وتخلف عصبة الأمم .

واشترط الداعون الى المؤتمر أن تشترك فيه كل دولة محاربة فعلا لدول المحور .

وكان الإعلان شكليا وضروريا ، ولكنه كان صدمة عنيفة للشعور الوطنى المصرى الذى كان حانقا ومريرا ضد بريطانيا ، ولأن تحالف معها ولو كان اسميا أو شكليا ..

واجتمع البرلمان في ٢٤ فبراير عام ١٩٤٥ ، ليستمع الى بيان رئيس الوزراء أحمد ماهر بإعلان الحرب على دول المحور .

والقى أحمد ماهر البيان في مجلس النواب ، ثم انتقل ليلقيه في مجلس الشيوخ ، وفي الردهة بين المجلسين فاجأته رصاصات أطلقها عليه محام شاب أودت بحياته ..

وسقط سياسي بدا موته لأثرا يلقي الرعب في رجال الامبراطورية ومات وهو يعلن الحرب صديقا وحليفا وفيا لبريطانيا، ومهما كان القتل وعدم شرعيته فإنه كان تعبيرا عن عمق ما يعتمل في قلب مصر الشابة ، وكان إنذارا بما لا يزال في الطريق ..

وخلف أحمد ماهر في الحكم الزعيم الآخر للسعديين « النقراشي » جنس الملعب وتلى السياسة ، وانتهت الحرب الألمانية الثقيلة في أوروبا في مايو عام ١٩٤٥ ، وانتهت في آسيا في أغسطس من نفس العام ..

وبدأت شعوب العالم تستعد بعد نهاية المحنة للعالم الجديد الأفضل الذي بشرت به نداءات الحرب ودعاياتها .

واجتمع مجلس الوزراء المصري في سبتمبر ، وأصدر بيانا وتحدد الحكومة قال فيه :

« ان حقوق مصر الوطنية كما اجمع عليها رأي الأمة وأعلنتها الحكومة هي جلاء القوات البريطانية وتحقيق مشيئة أهل وادي النيل في وحدة مصر والسودان ..

« والوقت الحاضر ، هو أنسب الأوقات للعمل على تحقيق اهداف البلاد القومية ، واتخاذ الوسائل لمفاوضة الحليفة على الاتفاق على هذه الأسس » مجرد المفاوضة لتعديل أسس التحالف والتعاون »

وانتظرت الوزارة فرصة أشهر طويلة لتطلق الرد في عام ١٩٤٦ ، وجاء فيه « ان المبادىء الأساسية التي قامت عليها

معاهــدة ١٩٣٦ سليمة في جوهرها ! ولن سياسة الحكومة البريطانية هي ان تدعم بروح الصراحة والود التعاون الوثيق الذي حققته مصر ومجموعة الامم البريطانية والامبراطورية خلال الحرب ، ولا بد ان يقوم هذا التعاون على اساس المشاركة الحرة بين طرفين متساويين للدفاع عن المصالح المتبادلة » .. وكان تجديدا في الصيغ ، وهي صيغ تخصصت بريطانيا في ابتكارها وتحويرها ..

وكانت الانتخابات قد جرت في بريطانيا بعد نهاية الحرب مباشرة ، وادت الي فوز العمال بالاغلبية ساحقة .

ولهذا جاء الرد صدمة .. فالعمال لايختلفون عن المحافظين الا في الصيغ .. وبدا ان لا طريق سوى العمل المباشر .

وكان على الطلبة ان يطلقوا الشرارة الاولى لكن السخط والقلق يسودان الامة كلها ، ولكنهما كانا يتمكنان اكثر ما يتمكنان في الطلبة ، نبض الامة وعقلها وقلبها الشاب ..

وكانت الجامعة منذ العشرينات قد اصبحت مركز الاشعاع والثورة الناضجة دائما ؛ ملتقى كل التيارات والاتجاهات ، وكل الطلائع الجديدة .. تنطلق منها الشرارة الاولى ..

وقد نشأت الجامعة المصرية نشأة قومية وشعبية بالاكتتاب عام ساهمت فيه كل الطبقات ، الاميرات اللاتي تبرعن بالاف الافدنة والفلاحات اللاتي تبرعن بحليهن واساورهن وبكوات واعيان تبرعوا بالارض والمال والافندية الصغار والعمال الذين تبرعوا بقروشهم القليلة .

وقد قاوم الاحتلال مقاومة مستميتة انشاء الجامعة ، ووصف العميد البريطاني اللورد كرومر المصريين لانهم يقيمون جامعة ، ولا يتمتعون كتاتيب هي كل ما يحتاجون اليه .. ولكن قام مشروع

الجامعة وفى رعاية سعد زغلول وزير المعارف يومئذ ، ومنه اكتسب المشروع روحه التى ظلت حية ..

وكانت الجامعة ردا على سياسة (دنلوب) والتعليم الاستعمارى الذى يجرد المدرسة من الشخصية الحضارية ، ويقطع صلتها بالأصول الروحية والثقافية للأمة ، لكى تكون مجرد مصانع لتخرج موظفين وكتبة دواوين وأدوات للاستعمار .

وقد أصبح هدف الجامعة تعليما عصريا علميا ، وخلق ثقافة عربية تكون استمرارا وتجديدا للتراث . وحققت الجامعة ما انتظرته منها الأمة ، وفد اليها عدد من الأساتذة الأجانب الكبار ، وظهرت عددا من الأساتذة المصريين وتحولت الجامعة الى المنير الأول والمحور الرئيسى للثقافة والثورة .

وفى العشرينات صمدت الجامعة للارهاب الفكرى والسياسى المسلط على أساتذتها ومناهجها ..

وفى الثلاثينات بدأ تفتح وتفتح جيل جديد نقدم مظاهرات ١٩٣٥ التى انتهت بجبهة وطنية ، وانتهت بمعاهدة ١٩٣٦ . وخلال الحرب اضطربت الجامعة بكل ما صنعته وأثارته الحرب وتبلورت أحلام وارادة جيل جديد صمم على أن يحقق دوره فى تاريخ بلاده وأن يحسم الثورة التى لم تستكمل منذ ١٩١٩ ..

ولهذا انطلقت الشرارة من الجامعة فى أوائل ١٩٤٦ .

وكصدى لتطور الأحداث بدأت الاجتماعات والاتصالات فى مختلف الكليات والمعاهد ، بل فى المدارس الثانوية والمتوسطة ، وبدأت ظاهرة فريدة هى تكوين لجان للعمل السياسى .. تكونت تلقائيا ، تعبيرا عن الارادة الجماعية لتلك القوى الجديدة التى أخذت تنتظم وتلتقى .

وانعقدت بعض هذه اللجان لتجتمع فى كلية الطب ، ومن خلال الاجتماعات والمناقشات نبتت فكرة اقامة لجنة وطنية للطلبة

وتكوين قيادة لم تجمد مطالبهم وتحقق نضـالهم ، وتكونت حوله اللجنة باسم « اللجنة التنفيذية العليا للطلبة » ..

وبعد الرد البريطاني دعت اللجنة الى مؤتمر عام يعقد بجامعة القاهرة يوم ٩ من فبراير عام ١٩٤٦ بحرم الجامعة ، ويشترك فيه كل الطلبة من الجامعة والمعاهد والمدارس ، وانعقد المؤتمر فعلا حاشدا : بمئات الخطب ، وأعلنت القـرارات ونصت على رفض الدخول في اى مفاوضـات مع بريطانيا وعلى الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، واتفاقية عام ١٨٩٩ المتعلقة بالسودان ، وجلاء القوات البريطانية جلاء تاما وعاجلا عن البلاد ، وعرض القضية على الامم المتحدة .

وبعد اعلان القرارات تحرك المؤتمر المسير في مظاهرة سلمية الى العاصمة لتقديم الطلبات للمسئولين ..

ووصلت المظاهرة الى الجيزة ، وكان عليها أن تعبر كوبرى عباس الى المدينة ، ولكن بينما كانت جموع المتظاهرين من الطلبة تتقدم فتح الكوبرى ، وتدخل البوليس وحدث اصطدام البوليس والطلبة عليه ، ونزل اسفله وسـاقط عشرات منهم في الماء وجرح كثيرون ، وحوصر الذين نجوا من العبـور حيث انهال عليهم البوليس ، بوحشـيـة تجاوزت كل الحـدود ، وتحولت المظاهرة السـلمية الى معركة دامية ، وكان يقـود المعركة لحـد ضـابط البوليس المشهورين — سليم زكي عميل بريطانيا — للعبد الحكمدار البريطاني رسل باشا ، وكان متطايا في خدمة سادته ، كون فرقة بوليس خاصة « فرقة الباشا » مهمتها الانتقام من الطلبة .. !

وصدمت وحشية البوليس ازاء طلبة الجامعة الرأى العـام كله ، ولكن لم تتوقف المظاهرات في اليـوم التالي ، واستخـدمت المظاهـرات والبوليس بالعنف نفسـه ، بل امتدت المظاهرات الى انحاء البـلاد المختلفة في الاسـكندرية والزقازيق والمنصـورة ، وسقط القتلى في المدن الثلاث ، وبدا ان البـلاد كلها على اهبـة انفجار شامل .

وكانت الحكومة قد أعدت احتفالا كبيرا صاخبا بعيد ميلاد جلالة الملك يبدأ بمهرجان في الجامعة — يسلم فيه الملك شعلة يحملها عداءون يطوفون بالقاهرة ، وأقيمت الزينات والاستعدادات ، ولكن تسلل الطلبة قبل الاحتفال وحطموا الزينات والشعلة وصورة الملك الكبيرة ، واشعلوا فيها النار ! وهتفوا بسقوطه ، وكانت أول مرة يرتفع فيها مثل هذا الهتاف !

وتم الاحتفال يخيم عليه الصمت ، وسارت الشعلة في الشوارع تحت جناحي الليل . وفي اليوم التالي ١٢ من فبراير استمرت المظاهرات في الاسكندرية ودعا الطلبة الى عقد مؤتمر في كلية العلوم ، وشاركهم جمع كبير من الناس ، وخرج المؤتمر من كلية العلوم ليلتقي هو والعمال ويعقد مؤتمر وطني عام .

واصطدم البوليس بذلك والمؤتمر ليمنع التقاء الطلبة بالعمال وخلال الصدام استشهد طالب صغير حمل جثته المتظاهرون الى كلية الهندسة ..

وإزاء هذه الأحداث الخطيرة كانت مناقشة حادة في البرلمان وانتهت باستقالة الوزارة ..

رأت بريطانيا ورأت السراي أن الموقف ينذر بأحداث الخطر ، وأن الموقف يتطلب رجلا قويا ، وكان هناك رجل تدخره لمثل هذه المواقف .. كانت الثورة على الاستعمار تجتاح آسيا ، وتهدد كل الامبراطوريات القديمة البريطانية والفرنسية والهولندية ، وأعلنت اندونيسيا في ١٥ من أغسطس ١٩٤٥ الجمهورية والاستقلال .. وأعلنت فيتنام في ٢ من سبتمبر عام ١٩٤٥ الجمهورية والاستقلال ، وكانت الهند درة التاج البريطاني وعصب الامبراطورية تموج وتضطرم بأحداث جسام تنذر بأخطر النتائج ..

وكان امتداد الثورة الشعبية الى مصر — مفتاح الشرق الأوسط وأفريقيا — خطرا لابد أن تمنعه بريطانيا والسراي بأي ثمن ..

واستدعى الرجل الذى يستطيع فى راى بريطانيا ان يكبح جماح هذه القوى وان يسحقها تماما قبل ان تمتد ثورة السخط ثم ان تتكرر مرة اخرى قصة ١٩٤٦ .

واستدعى للحكم اسماعيل صدقى باشا ، وكان صدقى باشا قد حكم من قبل ما يقرب من اربع سنوات ١٩٣٠ – ١٩٣٣ جرب فيها كل انواع البطش والعسف وتزييف الدستور والبرلمان .. اصدر دستورا والف حزبا سماه حزب الشعب ، وانتخب برلمانا ، وحكم حكما طويلا من عام ١٩٣٠ – ١٩٣٤ ، ولكن سقط فى النهاية امام المقاومة والمقاطعة من الامة .

وقد بعث من جديد ، ولكن فى عالم لا يفهمه ، والآراء قوى لا يعرفها ، وقد رسبت أحداث ٩ فبراير وما بعدها عميقة مريرة فى نفوس الطلبة ، وبدأ الوعى يتأكد فى الجامعة بأن الحاجة تدعو الى لجنة طلبة منتخبة ودقيقة التنظيم توجيه النضال ، وتواجه فيها استجابة المد الشعبى الثورى الذى بدا انه اضخم واقوى مما قدر وتصور الحد ..

واعلنت اللجنة التحضيرية للجنة الوطنية عن تكوين لجنة الطلبة ، وانتخبت الكليات والمعاهد العليا والمدارس ممثليها ، وتكونت اللجنة الوطنية للطلبة ، وعقدت اول اجتماع لها بكلية الطب ..

وما كان يحدث بين الطلبة كان يحدث بشكل آخر فى فئة أخرى تتشكل وتكمل قوى الطليعة ، هى العمال ، وبدأت لجان مماثلة فى المصانع وخاصة فى شبرا الخيمة ، وقد ازداد العمال كثرة خلال الحرب ، بنمو الصناعة ، وبصدور القوانين العمالية التى اصدرتها حكومة الوفد ، وبتفتح العمال على المبادئ والاتجاهات الاجتماعية والثورية التى حملتها الحرب . وبسعى عناصر كثيرة متقدمة وواعية الى العمل بين العمال ..

واتحدت المصانع الجانها ، والتحدت لجان المصانع الجنة وطنية للعمال والتحمت هـذه اللجنة ولجنـة الطلبة ، والتحمت « اللجنة الوطنية للطلبة والعمال » ، وكانت تحكى تحالف الطليعة من كل الاتجاهات ، ونواة لـبـدء القـوى الجـديـدة الراسخـة المتحفزة للثورة . .

وفى ١٨ فبراير اتخـذت اللجنـة الوطنيـة للطلبة والعمال قرارا بالاضراب العام يوم ٢١ فبراير ١٩٤٦ وبعقد مؤتمر وطنى عام وتنظيم مظاهرة اكبر .

ومع فجر الخميس ٢١ فبراير كانت القاهرة تتجمع ، وانتشر منـدوبو الطلبـة والعمـال فى كل مـكان لتنظيم الاضراب والمظاهرات . .

وتوقفت المواصلات وتجمع عمالها فى مخـازنهم بالجيـزة وشبرا والعباسية . . وتحركوا فى مظاهرات ضخمة ، وانضم اليها الشعب فى كل مكان ، وتدفق عمال شبرا الخيمة الى قلب القاهرة فى الساعات الباكرة مع شروق الشمس .

واغلقت جميع المصانع ابوابها ، واضرب عمالها ، وتوقفت المحال التجارية عن العمل ، واضربت جميع المدارس والكليات ، ومن كل مكان تدفقت المظاهرات على ميدان الاوبرا حيث كانت الترتيبات قد اعدت لعقد المؤتمر الوطنى ، واجتمعت المظاهرات هناك اجتماعا حاشدا ، يسوده النظام التام ، والقى ممثلو الهيئات والتنظيمات المختلفة خطبهم ، واتخذ المؤتمر قراراته بضرورة وقف المفاوضات وبالتمسك بالجلاء التام عن وادى النيل ، وبالغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية ١٨٩٩ ، وعرض قضية مصر على مجلس الأمن . .

وتحركت المظاهرات من الاوبرا الى ميدان قصر النيل .

وفى الميدان فى مواجهة الثكنات التى بدأ منهـا احتـلال القاهرة فى سبتمبر عام ١٨٨٢ خرجت فجأة سـيارات بريطانية

مسلحة ، وشقت بسرعة جنونية صفوف المتظاهرين وهي تطلق الرصاص ، وتساقط القتلى بالعشرات حولها ..

كان عملا تقليديا من أعمال المخابرات البريطانية .. ، ضربة تزرع كثير الرعب وتفرق الجموع وتتركها تلعق جراحها لمدة طويلة .. وسقط ٢٣ قتيلا ، وجرح حوالي ثلاثمائة .. كان بينهم عدد من الصبيان الصغار ..

وصدى الحادث بالبلاد صدمة أكبر .. بل أثار الرأي العام العالمي الذي تجاوبت في أرجائه أصداء الحادث .

وفي المساء أعلن صدقي باشا ، ضرورة « منع المظاهرات منعا باتا ، بعد أن اندس في صفوفها الغوغاء والرعاع وأخلطوا بالشغب والتخريب» ، ولم يلتفت إليه أحد وامتدت المظاهرات إلى الإسكندرية وعواصم المديريات تهتف بنفس الهتافات وتردد نفس المطالب .

وقرر مجلس النواب والشيوخ .. وقف جلستيهما يوم ٢٥ فبراير عام ١٩٤٦ ؛ حدادا على ضحايا الحوادث ..

واجتمعت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال وقررت أن تجعل يوم ٤ مارس عام ١٩٤٦ يوم الإضراب العام للاحتجاج ولتخليد ذكرى الشهداء واستمرار الثورة .. ونفذ قرار الإضراب في القاهرة منذ صباح يوم ٤ مارس عام ١٩٤٦ .

صمت كل شيء حدادا واحتفالا ، وأغلقت المدارس أبوابها وتوقفت المتاجر والمحال العامة والمقاهي وكان الإضراب عاما وشاملا ..

ولكن الإسكندرية انفجرت : قامت مظاهرة ضخمة من العمال والطلبة ، تحركت من محرم بك إلى قلب المدينة ، واصطدمت مع البوليس الذي تصدى لتفريقها ، ولكنها صمدت وتجمعت واستأنفت

سيرها ، وخلال سيرها أمام أحد الفنادق التي كان يسكنها ضباط البحرية البريطانية رأى المتظاهرون العلم البريطاني ، وسط حامل صغير ومنصة ، وأنزل العلم البريطاني ومزقته الجموع وداسته بالأقدام ..

وانطلق الرصاص على المتظاهرين ، ولكن المظاهرة استمرت في سيرها ، وانطلق الرصاص مرة أخرى من لنعق النمر يقيم به جنود بريطانيون ، وتقدم المتظاهرون الهاجمة اللفندق ، وتلقى منهم البوليس ، وتصدى لهم ، وأمرت المظاهرة على التقدم حتى مكان الاجتماع في ميدان سعد زغلول ، وكان هناك كشك البوليس المصري البريطاني ، عليه لافتة كبيرة بالإنجليزية فانتزعها المتظاهرون ، تحت وابل من الرصاص المطلق عليهم ، وحطموا الكشك وقتلوا من فيه .

تحولت الاسكندرية الى ميدان قتال بين الجماهير والبوليس والقوات البريطانية من شرفات الفنادق والمنازل ..

واستشهد ٢٨ وجرح ٣٤٢ .. وقتل من جنود الاحتلال اثنان وجرح اربعة ، وسمي ٤ مارس يوم الشهداء ..

ولعل صدقي باشا قمع المظاهرات بالقوة ، واضطر الحكومة البريطانية من أحداث فبراير ومارس وبدأ بينهما البحث عن طريق آخر : ان القوة لا تجدي ، كانت قوى أكبر من أن تقهر ..

كان ميلاد ونمو جيل جديد من أجيال مصر ، ورث الثورة وانتهت اليه قيادتها ، ولا بد أن يقوم ليؤدي دوره ، فلي يكملها ويحسم مسارها .. كان جيلا قد نشأ بين العربين في صراعات ومناقشات تلك الفترة الأليمة ، وساءه انحسار ثورة ١٩١٩ ، وتحولها الى صراع سياسي مطل ومبتذل بين الأحزاب ، لم يثبها وبين بريطانيا ، الى أن صار في نهايته حلقة من صفقات ومناورات ـ

وعاش ذلك الجيل أيضا أزمة أخرى بنفس الوطأة والشدة هي الأزمة الاقتصادية الطاحنة .. كانت أزمة الرأسمالية والامبريالية في الثلاثينات ، ولدت بعثات في نيويورك ، ثم امتدت حتى آخر قرية مصرية تزرع القطن وتعيش عليه وطحنتها ، ولم تنته الأزمة الا بقيام الحرب !

وخلال الحرب رأى الجيل بلاده تتحول باسم معاهدة « الشرف » والتحالف الى قاعدة عسكرية يسخر فيها كل شيء ويستباح كل شيء بلا شرف من أجل الدفاع عن الامبراطورية .. وان تنتصر بريطانيا .. !!

ولكنه كان أيضا الجيل الذي عاش تحت ثورة جامعة وطنية ، وربما عرف من تاريخ بلاده ومن زعمائها ما لم يعرفه جيل قبله .

وكان أيضا جيلا تفتح على العالم الذي أصبح قريبا ورهيبا بعد الأزمة وانفجار الصراع في أكبر حرب في التاريخ .. ورأى الجيل هتلر ، واعلان تفوق الجنس الآري ومبادئه ، واعلان الاشتراكية الوطنية الجرمانية ، التي ستقضي على الرأسمالية « البلوتوقراطية » وعلى البولشفية الآسيوية معا .

ورأى موسوليني ودعوى اعادة الامبراطورية الرومانية « القديمة » والبحر الأبيض : بحرنا ، وقيام الدولة النقابية الفاشية من العمال والرأسماليين معا ..

ورأى روسيا الجديدة وكل القصص عن البولشفية التي تريد أن تملك العالم وتقلبه أو الاشتراكية التي يبدأ منها تاريخ العالم وشبابه .

ورأى الجيل أيضا اليابان تعلن « آسيا للآسيويين » وقيام منطقة الرخاء المشترك لشعوب آسيا ، كمجرد شعار لامبراطورية شمس مشرقة لا تغيب عنها الشمس أيضا !!

ولقد بدأت ازمة العالم فى ذلك الحين فى الثلاثينات حين اكتسحت اليابان منشوريا ، واكتسحت ايطاليا الحبشة، لم وقفت عصبة الامم عاجزة، وحين قامت فى اسبانيا جمهورية ديمقراطية بـلرية بالانتخابات حرة ، سارعت اوربا الفاشية ـ ايطاليا والمانيا ـ للقضاء عليها وسارعت اوربا الاشتراكية الديمقراطية لتأييدها .. ولكن سقطت اسبانيا ايضا ، وعجزت عصبة الامم ووصلت الأزمة ذروتها .. الى الحرب !

وخلال الحرب قرأ الجيل الجديد ، واستمع خطب قادة العالم من الجانبين .. تشرشل وروزفلت وستالين ، ثم هتلر وموسوليني وتوجو .. وقرأت نشرات الدعاية — سواء دعاية الحلفاء او دعاية المحور » المصرية « ـ القاهرة .

كانت الاصوات تتلاحق فى الداخل والخارج .. وتقلب كل شىء دفعة .

لهذا كان جيلا يغلى ويضطرم ، وأخذ البحث عن طريق جديد حاسم ولا بد أن يجده .

كان أقوى من أن يقهره أو يقمعه صدقى باشا .

ولم يعد هناك مناص للسلطة من اسلوب آخر .

فقررت المفاوضات ..

نقل السفير البريطانى فى القاهرة « مايلز لامبسون » ـ وكان « كرومر آخر » ومن أنصار سياسة العصا الغليظة ، وكان بطل حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، وظل طول مدة عمله حاكم مصر الحقيقي ـ ثم تغير واستبدل به سفير آخر ، كان من أنصار سياسة الصداقة تماما كما استبدل بكرومر ذات يوم « الدون جورست » ليستبدل بسياسة البطش سياسة « الوفاق » ، وما لا تحققه بريطانيا بالقوة تحققه عادة بالمساومة .. وقد بدت

الامبراطورية بالاسطول تماما كما يثبت بالمساومة .. وما يمكن الاحتفاظ به بالقوة يمكن الاحتفاظ به ببعض التنازلات ، التنازل عما ليس جوهريا للاحتفاظ بما هو جوهري وأساسي .

وأعلن تأليف وفد المفاوضات المصري في ٧ من مارس عام ١٩٤٦ .. وتكون من جبهة عريضة ضمت كل أقطاب « العهد » والمستقلين ..

ورفض الوفد الاشتراك في هذا الوفد ، وبحق ، الا لم يشرف برئاسة الحكم القائم .

ورفض الحزب الوطني الذي كان ما زال يرفع شعار « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » ..

وعين الوفد البريطاني برئاسة اللورد ستانسجيت أحد لوردات العمال ، وكان مشهورا بعطفه على القضية العربية ، وضم الوفد السفير البريطاني وقادة الأسلحة البريطانية في الشرق الأوسط .

وبدأت المفاوضات في منتصف ابريل ، بمحادثات مغلقة بين صدقي باشا رئيس الوفد ورئيس الحكومة ، وبين السفير البريطاني ورئيس وفد المفاوضات ، ثم استؤنفت بين الوفدين .

وعقدت الجلسة الأولى في ٩ من مايو عام ١٩٤٦ .

وبدا واضحا ان الوفد البريطاني يريد استمرار معاهدة ٣٦ في شكل آخر .. قاعدة عسكرية كبيرة في القناة في ظل دفاع مشترك ، يضع مصر جزءا من نظام الدفاع الغربي ومن الحلف الغربي .

وفي ٢٢ من مايو بدا أن لا تقارب بين وجهات النظر ، وصدر بلاغ مشترك بأن تبادل الآراء بين الوفدين أظهر أن هناك بعض المسائل رأى الوفد البريطاني ضرورة الرجوع فيها الى لندن وتلقى

يطالب بجلاء القوات . وبعد شهرين استؤنفت المفاوضات . في يوليه عام ١٩٤٦ في الاسكندرية .

وقد رأى صدقي باشا لاخماد الرأي العام الذي كان يتابع المفاوضات ويهاجمها أن يقوم بحملة بطش واعتقال شاملة اعتقل فيها أكبر عدد ، اعتقل حتى ذلك الحين ، من الكتاب والمفكرين ، وأغلق كل الصحف وجرور النشر الجديدة التي كانت تحمل الأفكار الراديكالية الجديدة ، وتعبر بصفة خاصة عن الجيل الجديد .. عن العالم الجديد ، كان عربون صداقته لبريطانيا"

ووعد الانجليز .. بالجلاء عن القاهرة .. ورفع جلالة الملك العلم المصري على القلعة في احتفال مهيب ! ولكن استمرت المفاوضات طوال فصل الصيف حتى نهاية سبتمبر ، لم تقدم أنه من الحلول الشكلية ولو بحد أدنى من المطالب يقنع الرأي العام المصري .. وتعثرت المفاوضات ثم توقفت .

ورأى صدقي ـ الجبار ـ أن يسلم بالعجز وقرر أن يسافر بنفسه الى لندن ومعه وزير خارجيته « السعدي » ابراهيم عبد الهادي ، ليفاوض بيفن مباشرة .

وجاءت الأخبار في ضجة أكبر من وصولها الى اتفاق وتوقيع مشروع معاهدة في ١٠ من أكتوبر عام ١٩٤٦ ، وعاد صدقي باشا مزهوا مفاخرا بالنصر الذي حققه في لندن !

وعرض مشروع الاتفاق على وفد المفاوضات الرسمي ، ولكن فوجيء برفض سبعة منهم المشروع ونشرهم بيانا بهذا ، وعلم الشعب أكثر الباقين ..

وحل صدقي باشا وفد المفاوضات ، ولكن اتلي رئيس وزراء بريطانيا علق على المشروع مجمعا الدلائل بتفسير ينفي تفسير صدقي باشا للاتفاق وخاصة فيما يتعلق بالسودان .

ووجد صدقي باشا ان بريطانيا لبست خريصة عليه .. كانت صلاته بالرأسمالية اليهودية معروفة .. وكان كزعيم لحلف المنامات بدا يتطلع الى امريكا .. واستقال في ديسمبر عام ١٩٤٦ ، لينتهي تماما من السياسة المصرية ، لم يستطع ان يقمع القوى الجديدة ولم يستطع ان يقتلها ولم تسنده بريطانيا ..

ودارت الحلقة المفرغة وعاد النقراشي باشا الى الحكم ، واستؤنفت المفاوضات مرة اخرى بين النقراشي باشا والسفير البريطاني ، ولكن لبث اصرار بريطانيا على موقفها ، فتقرر تبلغ المفاوضات نهائيا في ٢٥ من يناير ١٩٤٧ بعد ان استغرقت مايقرب من العام ..

وقررت مصر طرح القضية على مجلس الامن لتقلها الى منظمة الامم المتحدة ، ارسلت مصر عريضة الشكوى الى مجلس الامن ..

« جناب السكرتير العام :

« تحتل القوات البريطانية الاقاليم المصرية على الرغم من ارادة الشعب الجماعية وان وجود قوات اجنبية في اراضي دولة عضو بمنظمة الامم المتحدة في زمن السلم بغير رضائها رضاء حرا يعتبر امتهانا لكرامتها وحائلا يحول دون تقدمها الطبيعي ، كما انه خرق للمبدأ الاساسي ، مبدأ السيادة في المساواة ، وهو بذلك يناقض ميثاق الامم المتحدة في نصه وروحه » .

وذهب النقراشي على رأس وفد كبير الى نيويورك « للمقاومة » ، ولكن لم تسحق بريطانيا عرض القضية امام الرأي واستجابات الحكومة في شرح القضية وعرضها .. ولطبيعتها لسياسة السلم العالمي قررت الجلاء من القاهرة والاسكندرية !

وفي ٣١ من مارس اقيم احتفال حبيب شهده جلالة الملك المعظم ، ورفع بيديه « الكريمتين » العلم المصري على ثكنات قصر

النيل ، حيث رفع علمه بيديه « الكرومين » العلم البريطاني سنة ١٨٨٢ ، ولكن في نيويورك حرصت بريطانيا على أن تجعل عرض القضية فرصة لتهليل وتشويه صورة مصر وكل تاريخ مصر ، نصبت كل مشتمها ، واهانت الشعب المصرى وتاريخه وكفاحه كله

وانتهى عرض القضية في سبتمبر عام ١٩٤٧ ، وتوالت الاقتراعات ، ولكن لم ينته الاقتراع الى شيء ، وعاد النقراشي باشا كما ذهب . !

لم يكن ممكنا الحصول على نصر في الامم المتحدة او الحصول على قرار بضرورة الجلاء عن مصر في الأمم المتحدة . كانت المنظمة قد تحولت بالفعل الي اداة للحرب الباردة ، تسيطر عليها الولايات المتحدة والحلف الغربي ..

وكان يمكن ان يصدر قرار بضرورة الجلاء عن سوريا ولبنان لانه ضد فرنسا ، أو بالجلاء عن ايران لانه ضد روسيا ، ولكن الجلاء عن مصر ـ كان مختلفا ..

كان النقراشي رئيس وفد مصر شخصية محلية ، ومحدودة الأفق ، ولم يكن لديه من الجاذبية ولا من القدرة ما يمكنه من أن يترك اثرا على مجمع أو منبر عالمي ، وكان لا يمثل حكومة شعبية تستند الى ثورة وطنية حقيقية ولكن تحالف احزاب اقلية . كانوا يريدون بأى حال أن يصلوا الى اتفاق مع بريطانيا ..

وكان البريطانيون يعرفون كل الحقائق ، وكان عرض القضية على مجلس الامن فرصة بالنسبة لهم للاستمرار في المماطلة وكسب الوقت لتشتيت وتمزيق القوى الثائرة والطامحة في مصر ..

وكان فرصة للتشهير بمصر وتشويه صورتها وتاريخها وكفاحها على منبر عالمي ، وكان فرصة ايضا ليثبتوا للمصريين ان العالم لا يستطيع شيئا لهم ، وأن الحل الوحيد مع بريطانيا هو مفاوضتها او التنازل منه ، وليس لهم مخرج آخر ..

وطلع النقراشي باشا صاغر اليدين ..
وانعقدت الأزمة السياسية في مصر ..
وانفلتت الأزمة الاجتماعية أيضا ..

أضرب ضباط البوليس ، وكان حدثا غريبا يحدث لأول مرة أن يضرب جهاز القمع الرئيسي ويقف ضد الحكومة .

وأضرب الممرضون في المستشفيات اضرابا كبيرا أثار الرأي العام بما اقترن به من يقظة وطرافة .

ولكن ما لبثت المشكلة الفلسطينية أن استغرقت الجميع : كانت مشكلة بين الفلسطينيين وبين اليهود الصهيونيين ؛ وكانت مشكلة بين القومية العربية ، وبين الحركة الصهيونية العالمية ..

وكانت مشكلة بين البيوت العربية الحاكمة وبينها وبين الشعوب العربية . ولكنها كانت أيضا أول وجه من أهم أوجهها صراعا بين الولايات المتحدة وبريطانيا حول الشرق الأوسط . لقد منحت الولايات المتحدة ولاء الحركة الصهيونية في مؤتمر بلتيمور . ووعدت الولايات المتحدة بتحويل الوطن القومي الذي كانت تطالب به في فلسطين إلى دولة كاملة ..

وبمجرد نهاية الحرب العالمية الثانية بدأ العمل وبدأ ترومان يطالب بإدخال ١٠٠ ألف مهاجر صهيوني إلى فلسطين .. وتفجرت المشكلة .. وبدأت الحركة الصهيونية بدورها مهمتها وشنت معركة حامية لتصفية النفوذ البريطاني من فلسطين تمهيدا لإقامة اسرائيل وتغيير الولاء .

وبدت بريطانيا وقد ضيقا .. يؤكد استعمارها وتشبثها بالشرق الأوسط ، وأن تكون القوة الأولى فيه . ولكن ما لبثت بريطانيا أن أدركت أن تصميم الولايات المتحدة أقوى من أن تقف

شدة ، وان حاجة بريطانيا نفسها الى الولايات المتحدة في اعادة بناء ما خلفته الحرب يجعلها أضعف من أن تقف ازاءها ..

ولهذا حولت القضية الى الأمم المتحدة ـ وهناك فرضت الولايات المتحدة قرار التقسيم وان توزع فلسطين بين الصهيونيين وبين العرب ..

ومن ذلك الحين أصبح هدف السياسة البريطانية أن تخلق دولة عربية متكافئة وموالية ازاء اسرائيل والنفوذ الامريكي ..

وقامت السياسة البريطانية على دفع الملك عبد الله لحرب محلية محدودة .. بقيادته تشترك فيها الجيوش العربية والجيش الأردني والعراقي أساسا ، وتكون استعراضا لقوة الشعوذة البريطانية ..

وكانت بريطانيا تريد توازن قوى في الشرق الأوسط تمسك بكل خيوطه وتستأثر فيه بالوجود الأول ، وكانت حكومة العمال الاشتراكية برئاسة اتلى ووزير خارجيته بيفن ترى في الملك عبد الله رجل بريطانيا : تماما كما كان يراه ايدن والمحافظون ، وكان العمال معروفين بتأييدهم للصهيونية ، وكانت صلاتهم بالمابام وزعماء الكيبوتز وثيقة ، وهم أعضاء معا في الاشتراكية الدولية الديمقراطية وكان معظم الوزراء البريطانيين أنصارا للصهيونية ، ولكن للامبراطورية ثانيا أولا ، وخاصة في عهد العمال ، وبهذا أصبح على الهاشميين في الأردن والعراق ، وأصبح على الجيش الأردني الذي يسيطر عليه جلوب والجيش العراقي الذي يسيطر عليه عبد الاله ونوري السعيد ـ أن يضموا الجزء العربي الباقي من فلسطين الى الأردن في مظاهرة عسكرية عربية بريطانية باسم تحرير فلسطين !

وخيمت الهزيمة على الوطن العربي كله ، واقترنت بحالة كئيبة من اليأس والسواد ، الا لم يتعرض العرب لخطر ، ولكن التعاسة

قطعة من وطنهم ، واقيمت عليها دولة جديدة ، استجلب لها من اركان الارض شعب آخر يحمل حقدا دائما على العرب لا ينتهى ، وطرد الشعب الاصلي في سلسلة من المذابح والفواجع وتحول الى لاجئين مشردين بلا مستقبل ولا امل لزمن طويل ..

وحقق الاستعمار الامريكي الجديد — اهدافه — باقامة دولة لحسابه .. ستكون اساسا لنفوذه وتوسعه السياسي والاقتصادي والاستراتيجي ..

وحقق الاستعمار القديم ايضا اهدافه :

هزمت القوى الوطنية والثورية هزيمة هزت ثقتها في نفسها ، وثقتها في المستقبل ، وكان رد الفعل في مصر عنيفا وعنيفا ، اجتاحت مصر موجة ارهاب عاتية ، والارهاب والاغتيال الفردي لا يحرر الامم ، ولا يخلع الاستعمار او الاستبداد ، ولكنه يكون احيانا رد فعل محتوما وتعبيرا عن التحدي ازاء قوى غاشمة وغير متكافئة ..

وقد بدأ هذا الارهاب خلال الحرب العالمية الثانية نفسها ردا على جرائم القوات البريطانية التي اعتدت على كل الحرمات .

واستمرت الموجة بعد الحرب في اتجاهين : احدهما ارهاب يمارسه شبان لم تستقطبهم التنظيمات والاحزاب السياسية سواء الاحزاب القديمة التقليدية او الاحزاب الجديدة العقائدية ، وكانوا فاقدي الثقة بالاثنين وبأي قيادة قائمة ، ومعتقدين انه لا بد من العنف المتواصل لزلزلة نواتج نظام يقوم اساسا على الارهاب والعنف .. لم يكن هناك برنامج او خطة سوى اسقاط النظام القائم ، وبذلك يزول الكابوس عن صدر الشعب وتظهر قوى تتولى التحرير . وقد بدأ هذا الارهاب السياسي بمقتل احمد ماهر رئيس الوزراء ثم بمقتل امين عثمان وزير المالية الوفدي وكان قد كبيرا في تأكيد حتمية العلاقة بين مصر وبريطانيا غير مقدر لحساسية الشعور الوطني ..

ويتوالى الارهاب بمحاولة للقضاء على النحاس باشا زعيم الوفد ثم بسلسلة لم تنقطع من جرائم الاغتيالات ضد القوات البريطانية والسفارة البريطانية ، ثم جرائم بلا هدف كوضع قنبلة في دار سينما لتلقى مئة من الرواد المصريين بلا سبب ؛ وحينما يبدا الارهاب الأعمى فلا بد أن يعود أحيانا الى ضحاياه بنفس عمياء ..

ولكن كان هناك فرع آخر من الارهاب بلغ ذروته بعد الحرب الفلسطينية ؛ وهو ارهاب منظم تقف وراءه هيئة سياسية لها مبادئه وبرامج هم الاخوان المسلمون ..

وبعد قيام باكستان ، شجعت السياسة البريطانية حركة الوحدة الاسلامية وان تكون الدولة الحديثة أساس « اسلامستان » .

وكان الرأي أن الوحدة الاسلامية حركة ضد القومية .. وهي ضد الشيوعية الملحدة ، وضد الاتحاد السوفيتي وهناك مسلمي آسيا الوسطى ، وهناك ست جمهوريات اسلامية في آسيا ، وايضا ضد الاشتراكية التي وصمت بأنها الملحدة ..

وازدهرت فدائيان اسلام في ايران وازدهرت حركة الاخوان المسلمين في مصر ؛ وامتدت للبلاد العربية . وكان الاخوان المسلمون يتكونون من قواعد بريئة يدفعها ايمانها او تطلعها الى الماضي ومجد الاسلام والحضارة والامبراطورية الاسلامية . ومن قيادات كبيرة مريبة تخبطت وتعثرت في العمل السياسي من التحالف مع صدقي باشا والسراي والعمل ضد الوفد والتنظيمات التقدمية والاشتراكية حتى الارهاب العام ..

وبعد حرب فلسطين ـ وجد الاخوان الجو صالحا لاثارة القلق واليأس السائد لمحاولة الوصول الى السلطة ؛ ونشبت حرب على السطح بين الحكومة وبين الاخوان بدأت باغتيال رئيس

الوزراء النقراشي ، ثم امتدت باغتيال زعيم الاخوان ، ثم السعى الحثيث الى مطاردة عامة والى ارهاب متبادل .

وكان الشعب باغلبيته بعيدا عن هذه الحركة التي بدأت بين قوتين على السطح .. لم تكن الشعب بغالبيته مع أي من القوتين او وراء احداهما ، بل على العكس كانت كراهيته للحكومة لا يفوقها سوى قلقه وفزعه من ارهاب الاخوان .

وهكذا وصلت الحركة الى طريق مسدود ، ووصلت البلاد كلها الى طريق مسدود ! نشأت الأزمة التي تحتم مرة اخرى مجيء الوفد ..

وفي كل مرة كانت تجري فيها الانتخابات بصورة حقيقية كان الوفد يعود باغلبية ساحقة ، ومهما طالت غيبته او جرب ضده من وسائل ونظم ، ومهما اعلن عن انصراف الناس عنه ونهايته — كان شبه قانون الحياة السياسية في مصر — ان يعود ، وتأتي حكومة محايدة لاجراء انتخابات ..

وعاد الوفد باغلبية جارفة كاسحة ، ولم يصدقها حتى قادته ، وبعد خمس سنوات من النفي ، وبعد حملات لم تنقطع من التشهير تولتها دار صحفية ظلت لهدف رئيسي هو هدم الوفد .. عاد الوفد اقوى من أي يوم كان ..

ولكن جاء الوفد متغيرا هذه المرة : استطاع سراج الدين ، وخيل ان يقاوم سياسة استعماله واستخدامه ثم التخلص منه بعد تلك كعشرة البرتقالة !

لن يكون هذه المرة منتخب فقط ، او صمام امن ، ولن يسحق ساقطا بانقلاب او لورا تتجمع ثم تطيح ، لابد ان يبقى وان يحكم ولن يسقط ، وكان هناك تياران يمثلان اسلوبين في طريقة الحكم ووسيلة البقاء ..

كانت القوى التقليدية والكبيرة ترى من الحكمة مهادنة القصر ومهادنة القوى السياسية الأخرى ، لتحقيق وحدة وطنية تمكن من مواجهة الانجليز . كانت هذه المواجهة في رأيها تعني تحقيق وحدة وطنية تشبه من بعض الوجوه ما تحقق سنة ١٩٣٥ وادى الى معاهدة ١٩٣٦ .. اى تسوية مع الانجليز .

وكانت هذه القوى الوطنية قد بدأت تشعر بالقلق والخوف من القوى ومن التيارات التى بدأت تنمو — وتتنامى — في داخل الوفد وخارجه والتى تثير الرأسماليين والاقطاعيين عامة ..

وكانت هناك قوى جديدة في الوفد من القواعد الشعبية التى نما وعيها باطراد خلال الحرب ، ومن القيادات الشابة المتفتحة ، وكانت تسعى الى اسلوب آخر ، وتريد تجديد حيوية وثورية الوفد ليقوم بدوره كحزب الثورة الوطنية والاجتماعية في الفترة الحرجة الحاسمة .. كان رأيهم أن الشعب جاء بالوفد ليهذا التصدى لمواجهة الملك والاحتلال بمواقف وحلول حاسمة ! وبأن يتحالف هو وكل القوى الوطنية والثورية .. ولا بد ان يكون الوفد عند حسن ظن الجماهير .

وقد اشتد الصراع حادا واحيانا علنيا داخل الوفد بين التقليديين والراديكاليين .. وادى في النهاية الى ان انتهى الوفد والقطب الشعبي الثوري ولم يستطع الا ان يتقدمه ويقوده !

وكانت فترة حكم الوفد هى عادة فترات التفتح والممارسة الديمقراطية والسياسية الوحيدة ، ولكنها فى تلك الفترة وفى ظل الوضع والظروف يومئذ أصبحت فيضانا هادرا ..

انطلقت كل الآراء وطرحت كل الحلول ، ورفعت كل الشعارات ، ودار صراع وحوار على كل المنابر وبين كل المذاهب والايدلوجيات الديمقراطية والقومية والماركسية والاشتراكية والاسلامية .. وضد كل انواع الامبريالية القديمة البريطانية

والمعاهدة .. والأمريكية .. وسرت موجة جديدة عارمة بين الجماهير .

وقد بدأ الوفد حكمه بمباحثات لاستئناف المفاوضة ، ثم من مجهودات المفاوضة . ونبه الترك بعد قليل استحالة التقريب بين ما يطلبه الشعب ، وما يتنازل عنه البريطانيون .. كان الشرق الأوسط قد أصبح بالنسبة لبريطانيا مسألة حياة أو موت .. وكان لا بد أن تظل قاعدة السويس قائمة ، وترتفع عليها الراية البريطانية ونظرا لأن بريطانيا ما زالت هناك ولسوف .. !

ولقد بدأت مفاوضات الوفد مع حكومة العمال القائمة .

ولكن سقطت حكومة العمال بعد مجيئها بقليل ، ولقيت المصير الذي تستحقه حكومة خانت الاشتراكية ، وللباحثة الوفد والمحافظون ، وكانت مفاوضة مستحيلة بالطبع .

ولهذا قرر الوفد أن يحسم الأمر ، وأعلن قراراته التاريخية بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وإلغاء اتفاقية السودان ١٨٩٩ ، ثم أعلن قرار: أنه كان أخطر ما أعلن وهو أن الطريق الوحيد أمام الشعب أن ينتزع حقوقه بنفسه وبكفاحه ! وهذا كانت بداية مطالب الجماهير منذ نهاية الحرب ومنذ مظاهرات ١٩٤٦ ، ولم تستطع كل المحاولات أن تثنيها عنها ..

وفي النهاية اعترف بها الوفد وانتهى إليها .. !

وأثار إلغاء المعاهدة هزة كبيرة في المعسكر الاستعماري ، وتدخلت الولايات المتحدة الأمريكية تدخلا سافرا ولأول مرة ، وقادت مظاهرة سياسية من الدول الكبرى الثلاث أمريكا وبريطانيا وفرنسا ومعها تركيا ، وطالبوا بانضمام مصر إلى حلف جديد يسمى حلف الشرق الأوسط ، وتكون مصر قاعدته ، ويكون حلا « جماعيا » للمشكلة .. ولكن رفض المشروع كاستبدال للاستعمار « الفردي » باستعمار جماعي .

وبدأت معركة الشعب والجماهير ..

وبدأت تتكون الكتائب ، وتتوزع المقاومة ، وبدأت محدودة ومتناثرة ، ولكن أخذت تنتظم وتتعاظم كل يوم ، أقبلت عليها كل فئات وطبقات الشعب ، وبدأت مجموعات وشخصيات من الجيش ومن البوليس تتعاطف ثم تنضم اليها .. كل العلامات والنذر الأولى لتحول المقاومة الى حركة عامة وحرب تحرير .

وقد كان الخوف من حرب تحرير هو الشبح الأسود يسيطر على بريطانيا منذ مظاهرات ١٩٤٦ ، وتزيد دقته يلي لمن ..

ولم يكن الوفد يستطيع بصراعاته الداخلية ، وبوجود القوى التقليدية ، البورجوازية فيه ، ثم باعتماده ولعوده زمن طويل على العمل السياسي الدستوري وحده — لم يكن يستطيع ان يتحول الى حزب للثورة ، وان يقود ثورة وحرب تحرير شعبية ضد بريطانيا والحلف الغربي ..

وبعد معركة بين جنود البوليس العزل في الاسماعيلية والدبابات البريطانية رفض الجنود الاستسلام ، وحصدتهم الدبابات والمدافع ، فانفجر الشعب وأصبحت الثورة حقيقة في الشوارع ورأت بريطانيا انه لا بد من عمل كبير .. لا بد من عمل يوقف هذا المد .. مهما يكن الثمن .. لقد عاش البريطانيون حتى الحرب العالمية الأولى في خوف من شبح الثورة العرابية ، ومنذ ١٩١٩ عاشوا في خوف من شبح تلك الثورة مرة أخرى ..

ولكن اليوم يقتحم شيء جديد الخطر لم يحدث .. الشعب والبوليس والجيش معا في الطريق لحمل السلاح لقتال الانجليز ..

لا بد من حدث هائل مروع يوقف هذا السيل ..

وكتب الحريق الغاضب المروع الذى احرق العاصمة احمل واشعل الفتن ، وكان حريقا لا يشابهه سوى حريق الاسكندرية الذي بدأ به الاحتلال سنة ١٨٨٢ .

« اضرم حريقا كبيرا .. يلتهم المبنى ويقلق ما للجهد .. حريقا سيطيع بالرهبة .. وسوف يظلون بعده لزمن طويل في هم ودأب لا ينتهي ولا يستطيعون معه شيئا » .

واتبل الوعد ، فقد جاء ليهدىء الامور ويستعيد البخار ، ولكنه اشعل الثورة : ولذا لا بد ان يذهب ، وهذه المرة لا بد ان يذهب ولا يعود ، لا بد ان ينتهي من تاريخ مصر .. لم يعد له مبرر ..

واستقر الرأى على حكم قوى من نوع جديد .. لقد فشلت كل انواع الحكم السياسي .

فشل حكم احزاب الاقلية وقاد حكم حزب الاغلبية الى الثورة .. لا بد من حكم قوى يعتمد على قاعدة القوى .. حكم عسكري ..

ولكي يقوم هذا الحكم لا بد اولا من تصفية القوى الوطنية السياسية ، ولا بد من تصفية اشد القوى الوطنية فى الجيش .. لا بد من تطهير الجيش لكي يصبح اداة حكم قوى ..

وكان هناك واحد جديد وسيادة جديدة فى المنطقة تريد هذا الحكم .

الوطن

كانت القضية المصرية عام ١٩٥٢ تاريخا طويلا معقدا .. احتلت بريطانيا مصر احتلالا كاملا سنة ١٨٨٢ ، ولم يحدث هذا بعد مناورات ومؤامرات ومحاولات لم تنقطع لأكثر من ثمانين عاما .. منذ معركة « أبو قير » البحرية .

وقد قال نابليون : انه سار بالحملة الى مصر للقضاء على بريطانيا في الشرق ، وليس هناك سوى وادي النيل ليكون قاعدة هذه المهمة التاريخية ، ومن وادي النيل يمكن ضرب الوجود في الهند وآسيا ، والاستيلاء على مصر لا بد أن يؤدي الى ضياع المستعمرات البريطانية في الهند وأمريكا ، وحين يصبح الفرنسيون أصحاب الكلمة العليا في موانئ ايطاليا وفي الاسكندرية يصير البحر الأبيض بحيرة فرنسية !

وفي القرن الماضي - وحتى اليوم - كان من يسيطر على البحر الابيض يسيطر على بحار العالم ثم على قاراته بالتبعية .

وبذلت بريطانيا أقصى جهدها لكي تتم هزيمة الحملة الفرنسية ، ومن ثم جلاؤها عن مصر ..
وبعد الجلاء بدأت على الفور العمل لفرض نفوذها على مصر : اشترت ولاء محمد الألفي الزعيم الثاني للمماليك ، وجعلته

الى بريطانيا حيث اكرم الانجليز وفادته ، وقدموا له الاموال والهدايا الثمينة ، واعدوا معه خطة بان يتحصن في الصعيد ، ويزحف منه ليستولي على مصر على ان يحتلوا هم سواحل مصر الشمالية لحماية حكمه وتأييده . واسرع محمد على وتحالف مع والبرديسي الزعيم الآخر للمماليك ، وسار الى الصعيد حيث قضى على الالفي ومشروعات بريطانيا ..

وبعد فشل الغزو غير المباشر تقدمت بريطانيا « مباشرة » ، وارسلت حملة الى مصر لاحتلالها والقضاء على محمد على واعادة سلطة المماليك ، وهي حملة فريزر المشهورة سنة ١٨٠٧ ، وتصدى الشعب للحملة وهزمها رغم الجنود والمدافع ، واسروا الذخيرة وطافوا بهم في شوارعها ، وانتهت الحرب بين بريطانيا ومحمد على بانتصار آماله ونجاح سياساته . ولم تهدأ بريطانيا حتى اعدت حملة صليبية اوروبية حاولت القضاء عليه .. قال السفير البريطاني في الآستانة : ان بريطانيا لا يسعها سوى ان تعلن بصراحة انه اذا كان محمد على قد انتصر في الحرب ضد السلطان ، فان بريطانيا لن تسمح له بأن يجنى ثمرة واحدة لانتصاره ! وسوف تقطع عليه كل السبل . وتستطيع ان تقضى على نفوذه نهائيا وان تقذف به هاربا الى الصحراء .. !

وقال بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا : ان مصلحة بريطانيا ان يسترد السلطان سورية ومصر . وان دولة قوية في مصر هي امر خطر يهدد المصالح الاوروبية في الشرق . واعلن ان مصر لا بد ان تعود ولاية عثمانية كبقية الولايات .. !

وحققت بريطانيا ما ارادت .. ففي عصر اسماعيل قادت بريطانيا حملة افساد الحكم والحاكم — حتى تستطيع غزو مصر اقتصاديا من الداخل -- ولقد كان اسماعيل اميرا طموحا متحمسا وقادرا وكانت البلاد تعلق عليه آمالا كبيرة ، وبدأ حكمه بداية طيبة قال : « ان اساس كل ادارة جيدة انما هو النظام والاقتصاد

في المالية ولكني اقدم دليلا محسوسا على ارادتي هذه عزمت من الآن على ترك الطريقة المتبعة منذ تسلمي ، ولتقرير مرتب سنوى لي لن اتجاوزه ابدا ، فاستكن بذلك من تخصيص عموم ايرادات القطر لانماء شئونه الزراعية وتحسينها ، وانني آمل يا حضرات النواب ان اجد منكم اهتماما بهذه العواطف التي كلها تؤدي واقبالا على وضع ايديكم في يدي بالاخلاص لنعمل معا على ما فيه خير البلاد وساكنيها ! !

وتقلت بريطانيا الى هذا الشديو وتمت على تفاصيله ، واسددته بالقروض وحماة البلح الاوربية ، واصبح اشد حكام مصر قسادا وانحلالا .. !

وفي مصر اسماعيل وفي ظل الخراب الذى ساد به اشتدت الدعوة الى احتلال مصر ، وان تضع انجلترا يدها على مصر مقابل تحمل مسئولية الوفاء بتعهدات مصر لدائنيها واصلاح الادارة المصرية ، والى انتهاز الفرصة التي لم تسنح منذ ٧٥ سنة وهي انشغال فرنسا بالصراع مع المانيا ، وامكان الاستيلاء على مصر دون التعرض لخطر الحرب مع فرنسا ، وذلك كما كتب احد دعاة التوسع والاستعمار ادوارد دايس عام ١٨٧٧ ، وادت السياسة البريطانية الى شيء لم تتوقعه ..

بدأ الفلاح يخرج من صمت العبودية الذى كان يرزح تحته طويلا ، وكتبت جريدة البروجريه اجيبسيان في عدد ١٤ من يوليو عام ١٨٦٩ .. ان الفلاح بدأ يجهر بالشكوى وهو حال يسمع عنه من قبل في مصر ، وهو يواجه الأوروبي بما ينتابه من حقوقه ، تلك ، وكتبت نفس الجريدة في ١٥ من سبتمبر من نفس العام ان الرأي العام بدأ يتكون في مصر ..

وبعد قيام الحزب الوطني ارسل اديب اسحاق الى باريس ليصدر جريدة مصر القاهرة واعلن ان غايتها : ان تثير بقية النخبة الشرقية وترفع الشكوة من امور السلاطين ليعلم القوم

ان لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه ، وحقا منهوبا فيطلبوه ؟ تطور الوعي الى سخط ثم الى ثورة ضد الاستبداد والاستعباد ومن اجل مصر حقيقية لاهلها المصريين ..

كان خطرا — واضح لا بد من احتلال مصر احتلالا تاما ودائما ، وفي البداية اعلنت بريطانيا واكدت انه ليس احتلالا ، ولكن عملية بوليسية مؤقتة للقضاء على العصيان ، واقرار النظام .. !

واحتلت بريطانيا ٧٤ عاما في مصر توالت فيها الوعود بالانسحاب اكثر من عدد السنين ، وقد كانت اهداف بريطانيا من احتلال مصر هي :

القضاء على الثورة العرابية ، وكانت اول ثورة من نوعها في المستعمرات او البلاد الواقعة على مدى المطامع الاستعمارية ..

وقد كانت ثورة ١٨٥٨ في الهند انتفاضة للاقطاع الهندي والامبراطورية المغولية واخر نفس لها .

وكانت ثورة الصين منذ حرب الافيون في معركة مستمرة مع بريطانيا واوربا عامة ، ولكنها كانت ايضا معركة الامبراطورية والصين القديمة ضد الاستعمار الحديث ؛ وكانت ثورة التايبنج في منتصف القرن الماضي هي آخر انفاس امبراطورية الصين القديمة .

ولكن الثورة العرابية كانت حدثا مختلفا .. كانت ايذانا ببداية عصر الثورات الوطنية الديمقراطية والشعبية ضد الاستبداد وضد الاستعمار وضد الاستغلال معا ؛ لم تكن دفاع عن امبراطوريات متهالكة وآخر انفاسها ، ولكن بداية ثورة الشعوب والقيادات الوطنية المصرية ضد رجعية الاقطاع الذي يؤيده الاستعمار الأوربي ..

وكان القضاء على الثورة العرابية لهذا حتميا حتى لا تكون سابقة ومثلا تحتذيها ، وكان قيام دولة وطنية ثورية على

الطريق الى آسيا وافريقيا خطرا لا بد من دفعه ، وقد قال بالمرستون فى بداية القرن : ان قيام دولة قوية ــ فى مصر فى ايام محمد على ــ تهديد « لكل المصالح الاوربية » ولكن قيام دولة قوية وثورية ايضا يحكمها فلاحون خطر اشد وابشع .

كان لابد ان يردع الشعب الذى يريد الاستقلال ، او الانتصار على بريطانيا وعلى حضارة اوربا ولن تحتل الباشويه حتى لا تقوم ثورة اخرى ..

وكانت بريطانيا تريد ايضا من احتلال مصر التوغل الى افريقيا .

وفى اواخر القرن الماضى بدأ الصراع الاوربى من اجل افريقيا والتهافت على اقتسامها .

كانت آسيا قد قسمت بالفعل ، وكانت الولايات المتحدة الامريكية قد فرضت سيطرتها على امريكا اللاتينية بمقتضى مبدأ مونرو ، فلم يبق سوى افريقيا .

وكان لابد لبريطانيا ان تفوز بنصيب الاسد كما فعلت فى آسيا .. والتغلغل الى افريقيا والسيطرة عليها يبدأ بالتغلغل والسيطرة على البلاد المؤدية اليها ، ومن مصر يمكن التغلغل الى السودان والسودان هو مفتاح القارة السوداء ..

ولقد اصبحت بريطانيا تهدد الخطة منذ شجعت الخديو اسماعيل على التوسع فى افريقيا ، ووضعت فى خدمته عددا من « المكتشفين » والحكام البريطانيين والاوربيين للمديريات الاستوائية المصرية ، وكان من اشهرهم جوردون ــ ولقد وضع هؤلاء كل الخطط والمشروعات التى تكفل كراهية مصر ، ثم طردها من هناك وحلول بريطانيا الاستعمارية محلها فى معظم افريقيا ..

وكانت بريطانيا تريد ان تحتل مصر لتجعل منها قاعدة لوراثة الامبراطورية العثمانية ، وكانت هذه المشكلة دائمة ومزمنة فى السياسة الاوربية وسميت المشكلة الشرقية ، فى الصراع

للاستيلاء على الولايات العربية للامبراطورية - والدولة الاوربية التي ستولى عليها تكون الدولة الاولى في الشرق الاوســـط ، وبعدئذ سوف تسيطر على كل الطرق المؤدية الى آسيا وافريقيا وعلى البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ، وسوف تتحكم في القارات الثلاث .

ولم تستطع الدول الكبرى أن تتفق على خطة ، ولهذا ظلت كل منها تسرق شريحة من الامبراطورية في غفلة من الأخريين ، أو بالمساومة والمقايضة معها وتجعلها قاعدة لتوسيع أكبر .

وقد استولت فرنسا على الجزائر وعلى تونس ، ولمطلقا كان لابد ان تحتل بريطانيا مصر ثم السودان ..

وقد احتلت بريطانيا مصر للســـــــيطرة الكاملة على قناة السويس والطريق البحرى الى الهند .

وكانت لها سيطرة على الطريق البرى عبر سوريا والعراق وايران ، ولكن كان لابد أن تسيطر ايضـــــا على الطريق البحرى الجديد ، وكانت قناة السويس هي اهم طريق تجارى الى الشرق .. والى استراليا وهى التى تحقق استغلالها واستعمارها فى اواخر القرن الماضى .. وبعد اشتداد ازمة الراسمالية فى اوربا .. كتبت جريدة مرآة الشرق القاهرية فى ١١ يونية عام ١٨٧٩ تقول :

« ان فتح قناة السويس قد مهد طريقا قويا للدول الاوربية فسلكت منه الى البلاد الافريقية ، وكان ذلك اقوى اسباب لاحتكارها ومجرى لها الى التطلع لتملك الاقطار ، وانهم يعلمون أن القطر المصرى ووادى النيل هو السبيل الوحيد للتغلغل فى تلك البلاد ، فلو تمكنت به حكومة اهلية وضعف نفوذ الكلمة الاجنبية لتيسر عليهم حينئذ نيل هذا المقصد الذى لا تزال نصب اعينهم صباحا ومساء ربما ساعدهم اهل البلاد المصرية الى نيلـــه ، ومتى لم ترات الدول أن لا فائدة فى الالحاح ، فان ذلك يمكن الحزب الوطنى من

اجراء الاصلاحات في البلاد وتنميتها . مضطرا الى الاتفاق على معارضة مقترحات ومقاومة استغلالنا .. ولقد ترغب بريطانيا باستغلالها مصر لتحويلها الى مزرعة قطن تابعة للاستعمار ، وقد كانت مزرعة قريبة رخيصة . وكانت الهند ابعد وتنتج قطنا اقل جودة . وبعد الحرب الاهلية الامريكية اصبحت بريطانيا في حاجة الى مزرعة قطن تسيطر عليها تماما ، وبعد سبعين عاما كانت أسباب احتلال مصر لا تزال في معظمها قائمة بل زادت اهمية » .

اصبحت مصر لازمة وحاسمة لحسم ازمة الامبراطورية البريطانية التي كانت تواجه اشهر ازمة واجهتها بعد الحرب العالمية الثانية .

وقد كان واضحا خلال الحرب ان بريطانيا بعدها لن تكون مرة اخرى سيدة العالم ومصنع العالم وبنك العالم وحاكمة العالم ، ولن تحكم حتى امواج البحار ! .

ولكن الامبراطوريين البريطانيين كانوا اشد تشبثا بها من اي وقت آخر ، بل لم يقل العمال الاستعماريون منهم حماسة ..

وفي جدال بين روزفلت وتشرشل خلال الحرب حول الهند قال هذا مزمجرا « كاسد جريح » وصاح : سيدي الرئيس ، اني لم اتول رياسة وزارة المملكة المتحدة لاشرف على تصفية الامبراطورية !

وفي المحادثة الثلاثية الكبرى عند هتلر - بين امريكا وبريطانيا وروسيا - كانت بريطانيا اضعف الاطراف ، وكانت تخشى على مستقبلها في عالم ما بعد الحرب ازاء الطرفين الآخرين وبعالم يستبعد تماما الاستغلال والامبراطورية وخاصة في الشرق الاوسط .

وكان ايدن وزير خارجية بريطانيا مؤمنا بالامبراطورية كمقيدة ومنبعة للرفاهية والثقافة ، ولا تستقيم حياة البشرية وسعادتها بغير وجودها .

وكان بيفن يؤمن بأن العظمة الاوربية ما زالت تقاس كما كانت منذ بدء السيطرة الاوربية على العالم العربي وما للدولة العظمى من مكانة وسيطرة في الشرق الاوسط ـ الشرق الاوسط ـ قلب العالم .. وملتقى مواصلات العالم ، والبوابة الرئيسية الى كنوز العالم ، والذى اصبح الآن يحيره بترول العالم ..

ومفتاح هذه الشرق الاوسط وقاعدته انما هي مصر .

وقد حقق الامبرياليون البريطانيون كلمة مابقيــون التى صدر بها كرومر كتابه عن مصر : مصر هي اهم بلد في العالم ، وكان ايدن على وعى بها لا ينساها .

واعلن ايدن مشروع الجامعة العربية ، وكانت الجامعة العربية خطة بعيدة المدى والنظر تعنى كل القوى والفئات الحاكمة الرجعية ـ وخاصة الاسر الملكية الكبيرة . وقد قامت كلها ولا تزال تعيش في حماية ورعاية الاسياد البريطانيين . كان الهاشميون في العراق والاردن صنائع مباشرين لها ، هي التى صنعت لهم ـ ان لم يكن اقتلعت ـ عروشهم وعرشتهم فرضا عليها .

وكانت بريطانيا عن طريق الادارة البريطانية في الهند هي التى قامت بتمويل وتسليح السعوديين ، وهي التى دفعتهم الى نجد ثم الى الحجاز ليغتصبوا عرشا ، وليصبحوا بيتا حاكما كبيرا ومنافسا .

وفى مصر كانت بريطانيا هي التى جاءت باساطيلها وجيوشها لتثبت عرش الخديو لاسرة محمد على ، وتقضي على العصاة ولتظل حامية العرش والاسرة ، ومهما جدت خلافات وتناقضات فان الحقائق الاساسية ما زالت قائمة .

ولقد لعبت السياسة البريطانية على زرع التنافس والمنافرة بين هذه البيوت بشكلها الثلاثة ، ولكن حان الوقت للتنسيق والتجميع ازاء خطر مشترك : ان الولايات المتحدة الامريكية تفضل اقامة برجوازية جديدة موالية لها خاصة او للفضل حكم

العسكريين والكولونيلات والجنرالات ، والاتحاد السوفيتي يعني الشيوعية التي ستنهي نهايتهم تماما ..

ويتعثر الامر هنا عن الخطر الداخل ، اي شعوبهم والثورات والانتفاضات الوطنية والاجتماعية من شعوب تتحفز للانتفاض .

وازاء هذه الاخطار لن تجد الاسر الحاكمة من حليف ومن ضامن سوى بريطانيا ، وسوف تكون الجامعة العربية قاعدة عريضة ومتينة للسيادة والوجود البريطاني .. وسوف تكون مصر قاعدة هذه الجامعة ، وبعد الحرب مباشرة اجريت الانتخابات في بريطانيا وانتهى الائتلاف بين المحافظين والعمال ، وادت الانتخابات الى غرب نتائجها : سقط تشرشل الذي قاد بريطانيا الى النصر ، وفاز العمال بأغلبية ساحقة لم يتوقعها احد ولا هم انفسهم ..

وقال زعماؤهم يومها : انها ثورة شعبية بريطانية اجتماعية بالشعب البريطاني وبأنه الاخير في الرأسمالية والامبريالية ، وقالوا : ان ثورتهم لن تقف عند حدود بريطانيا سوف تمتد لتصبح ثورة اوربية تبدأ منها اوربا الاشتراكية الديمقراطية ، وتتحرر بها شعوب اوربا نهائيا من الحروب الاهلية والوطنية والعالمية التي لم تنقطع ولتنعم بالسلام والرخاء ..!

وقالوا اخيرا : ان الثورة لا بد ان تتمشى على شعوب الامبراطورية التي عانت واحتملت معظم الاستبداد والاستغلال والاستنزاف ولابد ان تنال حقوقها وتقرر مصيرها وتبدأ تاريخا جديدا ..

ولكن حين طالب المصريون بعد الحرب بحقهم الاول وهو الجلاء كان الرد صدمة .. وحين طالب الوطنيون العرب بالجلاء عن الشرق الاوسط عامة كان رد بيفن صريحا صراحة عارية .

« هذا يعني مطاريف الاجر للعمال ! » ..

وقد كان الامبرياليون يقولون : ان الامبراطورية هي الحل الوحيد للمشكلة الاجتماعية في بريطانيا والتصدير اللازم من بريطانيا » .

وقال « سيسيل رودس » أحد مؤسسي الامبراطورية الكبار في افريقيا : انه استمع ذات يوم في حي الايست اند (حي الفقراء في لندن) الى خطيب عمال يصرخ في العمال الجياع : نريد الخبز ، وادرك من يومها انه لابد من صبغ خريطة العالم باللون الاحمر — البريطاني — تفاديا من تلك الثورة ! .

وقد خلق الرأسماليون البريطانيون من فيض الأرباح التي تدفقت عليهم من موارد الامبراطورية ارستقراطية عمالية من العمال القيت لها بعض الفضلات ، وسلمت لها قيادة الحركة العمالية .. كان اكبر نجاح مذ في حياة الرأسمالية البريطانية . وكان « بيفن » من أشهر تلامذته — اشتهر ببراعته في الخطابة وفي المفاوضة للحصول على اجور العمل او اعانات اكبر .. ولكن لا للتغيير العام من نظام الى نظام .. ولهذا لم يكن غريبا ان يتمسك بالشرق الأوسط .. حتى لا تمس مضاربه اجور العمال » !

وقد وافق العمال على الجلاء عن الهند ، وكان ذلك لأن شمال الهند — قد تمرد في الاسطول والجيش والطيران .. وانضمت للشعب الثائر بالفعل ، وتهددت الامبراطورية هناك بحرب ثورية شعبية تعم الهند ! وكان لابد من التنازل عما هو ليس جوهريا للاحتفاظ بما هو جوهري ، وهم قبل الجلاء — شقوا جسد الهند الى نصفين جريحين بجرح لن يلتئم ابدا .

اما الشرق الاوسط فلم يكن هناك جلاء .. ولابد من البقاء حتى آخر نفس !

وكان هناك شعار قد ظهر وساد أساس السياسة البريطانية بعد الحرب هو « الامبراطورية الثالثة » .. لقد اقمنا الامبراطورية الاولى وفقدناها في امريكا واقمنا الامبراطورية الثانية وفقدناها في الهند ، وسنقيم الامبراطورية الثالثة التي لن نفقدها في افريقيا !

واستكمال السيطرة على افريقيا لا بد أن يعني احكام السيطرة على مصر والسودان مفتاحي افريقيا في البداية وفي النهاية ، كانت قاعدة القناة اكبر قاعدة بريطانية ، ولابد أن تظل لتأكيد الوجود والسيطرة بالامبراطورية الجديدة ، ولم تسر الرياح مع هذا كما ارادت بريطانيا ولم يبق ممكنا ان تسير ..!

نشأت كل التناقضات والصراعات الى الجامعة العربية .. ومع ذلك نفذت اليها القوى الوطنية ، وحاولت تحويلها الى جامعة للشعوب العربية ، وليس مجرد اداة لتحقيق الاهداف والمطامع البريطانية ، وتزعزعت الآمال البريطانية الكبيرة حولها .

وردا على سياسة الجامعة العربية — انبرت الولايات المتحدة ولاء القطب الآخر في الشرق الأوسط — وهو الحركة الصهيونية — لتقيم دولة هي اسرائيل ، وبدأت معه الحركة بعد الحرب مباشرة معركة حامية لتصفية النفوذ البريطاني في الميادين حتى قيام اسرائيل وبدأ تصفية النفوذ البريطاني في الشرق الاوسط كله ..

واستطاعت الولايات المتحدة الامريكية وشركات البترول الكبرى ان تجتذب السعودية ، وتخرجها من الفلك البريطاني ، وتجعلها القاعدة الاولى للنفوذ والمصالح الامريكية ..

وبقى للسياسة البريطانية الملكيون في العراق والأردن حيث قررت ان تضم لهم سوريا ولبنان وما تبقى من فلسطين لتقوم قوة هاشمية بريطانية اكبر ، وبقيت لهم أهم من كل شيء قاعدة القناة اهم القواعد ، وبقيت مصر أهم الدول في الشرق الاوسط ..

ولقد نفذت الولايات المتحدة الى الاسرة الملكية المصرية ، ونفذت الى الرأسمالية المصرية الناشئة واستغلت خلافات الملك مع بريطانيا خلال الحرب كما استغلت طموح الرأسماليين المصريين الى الصعود والتوسع ..

ولكن مصر لا بد أن تبقى وأن تظل قاعدة للوجود البريطاني ولو خلق هذا صراعا حادا وحاميا مع الولايات المتحدة الأمريكية .

في بداية هذا القرن جاء لزيارة مصر تيودور روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية وكان من المستعمرين برئاسة الجمهورية هناك ..

وفي حفل احتفال أقيم له في القاهرة ، وكان في الجامعة ، يصدم في خطبه الوطنيين ويعيب أمامهم ويمتدح الاستعمار البريطاني .. ويلوم المصريين على تنكرهم لفضائله ومزاياه .

وأثار الخطاب سخط الوطنيين ، وأرسل محمد فريد باسم اللجنة التنفيذية للحزب الوطني برقية احتجاج شديدة ، وأقام الحزب الوطني اجتماعا شعبيا ألقيت فيه الخطب ردا على تيودور روزفلت ، وبعد الاجتماع خرجت مظاهرة كبيرة إلى فندق شبرد ، وظلت تهتف بحياة الاستقلال والدستور وبسقوط روزفلت ..

وأرسل ثلاثة محامين من الحزب الوطني خطابا إلى روزفلت يقولون فيه : « كيف يمكن أن تصدر ذلك الحكم على أمة دون أن تسبق لك معرفة بصفاتها أو أحوالها وشئونها ؟ تصدر ذلك وأنت لم تمكث في وادي النيل إلا بضعة أيام كنت في أثنائها لا تختلط إلا بأعداء الحركة الوطنية - ولم تقرأ عن أحوالها إلا ما يكتبه أنصار الاحتلال وأنصار السياسة البريطانية »

وأنشأ حافظ إبراهيم مندد بمقالته :

ليت شعري أكنتم تحكمون اليوم
يوم كانوا على تخوم الثغور
يوم كانوا تبكي بمصر نيرون
أم وهذا مستحكما في الصدور
يوم نادى واستجابوا قليلا
« من الخيل كل ليث هصور

وكانت الولايات المتحدة يومئذ بعيدة تماما عن مصر ، ولا تعرف الا بواشـــنجطون وجفرسون وتمثال الحرية ، ولا تصـــل الى مصر سوى ببعثات رؤسائها وساستها يبعدهم وتنزههم عن الصراعات الأوربية « الامبريالية » .

وفى العشاء على روزفلت قيل له : « ان خليفة واشـــنجطن العظيم يجدر به ان يقدر الحرية حق قدرها » .

ولكن روزفلت الذى خطب ثانية فى القاهرة اكد مـــا قاله فى خطبته الاولى ، واثار سخطا أشد ، ولهذا حين وصـــل الى الاسكندرية ليستقل الباخرة خلفا انتظرته فى محطة الاسكندرية مظاهرة اكبر ارتفعت فيها الهتافات بسقوطه وبحياة الاستـــقلال والدستور ..

وكان ثيودور روزفلت قتيل واحـــد ؟ كانت هذه اول مظاهرات شعبية تخرج فى القاهرة او الاسكندرية منذ الاحتلال وفشل الثورة العرابية .

وكانت بداية لعصر المظاهرات ولاستكشاف الجمـــاهير الثورة ، وكانت اول ازاحة للغشاوة عن عظمة واشنجطون .

وكان ثيودور روزفلت — مشـــهورا بسياسة التوسع الامريكى ، وبما سمى « سياسة العصا الغليظة » اى التوسع القائم على القوة ، ويتجه هذا التوسع الى الباسفيكى وقت تجعله الولايات المتحدة بحيرة امريكية ، وعادت الدول الاوربية قد مسحت الطريق الى الشاطىء الآخر ، وجعلت الاطلنطى بحيرة أوروبيـــة — فبدأ التوسع فى الباسفيكى بالاستيلاء على الفيليبين ، لتكون قاعدة انقضاض على الصين وكل آسيا ، واستعداد للتنافس الآخر وهو اليابان .. !

ولقد كان التوسع الامريكى — توسع الرأسمالية الامريكية حتى نهاية القرن الماضى ، مستغرقا داخل ميـــادين الاستثمـــار

والربح الواسعة في داخل الولايات المتحدة ، وفي امريكا الجنوبية ـ وقد فرضت الولايات المتحدة « مبدأ مونرو » دعما يسمى « حياد الامريكيين » لحماية هذا التوسع بدعوى تجنب الأمريكتين مساوىء الصراعات والنزاعات الأوروبية .

ولكن نمو الرأسمالية الأمريكية المطرد ما لبث ان ضاق بحصاره في نصف الكرة الغربي . وبدا التطلع منذ نهاية القرن الماضي الى اسواق العالم وموارده الكبرى في آسيا وافريقيا .

وهذه أسواق وموارد وميادين استعمار كانت الدول الأوروبية قد تقاسمتها ، ووقفت سدا أمام تطلع اي منافس جديد ولهذا وقعت سياسة الولايات المتحدة الامريكية عند حد المطالبة « بالباب المفتوح » : اي لفتح الباب على قدم المساواة في أسواق العالم وخاصة في آسيا وافريقيا امام التجارة الامريكية . وذلك الى حين ؛ فقد قال تيودور روزفلت : « ان قدرنا هو امركة العالم » . ولم تكن رحلة هذا الرئيس الامريكي الى مصر والسودان مجرد رحلة سياحية ، ولكنها كانت كشفا لاكبر موارد « الامبريالية » الامريكية واولها في بداية هذا القرن .

وفي ذلك الوقت لم تكن الولايات المتحدة تريد أن تصفي الاستعمار البريطاني والفرنسي لتحل محله ، وانما كانت مجرد مشاركة ـ « لفتح الباب » على قدم المساواة ، ولهذا كان لابد ان تمدح الحكم البريطاني وان تساند٠٠ !

ولم تصعد امريكا الى مسرح السياسة المصرية الا بعد الحرب العالمية الاولى ، لقد اشتركت أمريكا في تلك الحرب ، وحسمت نتيجتها النهائية بمواردها واسلحتها وقواتها ، واصبحت لهذا زعيمة مؤتمر الصلح الذي عقد في فرساي ، ولقد كان البرنامج ذو الاربعة عشر بندا الذي اعلنه رئيس جمهورية الولايات المتحدة في ذلك الحين (ولسون) عنصرا رئيسيا

فى نهاية الحرب وفى الخروج منها بلا غالب او مغلوب ولتأمين العالم للديمقراطية ، ولتكون تلك الحرب نهاية الحروب

وكان من اهم ما تضمنته بنود ولسون البند العاشر (بتقرير المصير) وحق كل شعب فى تقرير مصيره ؛ ولهذا هرعت كل الشعوب المستعمرة والمقهورة الى فرساى والى مقر ولسون ؛ وكان من بينها الوفد المصرى الذى سافر الى باريس بعد ثورة ١٩١٩ ..

وكانت المظاهرات قد اندلعت فى شوارع مصر تهتف باسمه ، وهناك شهداء من شباب مصر ، ماتوا وآخر كلماتهم هى الهتاف بحياة ولسون .. ولكن رفض حامى السلام والانسانية لقاء الوفد المصرى برئاسة سعد زغلول .

ثم ما لبث ولسون ان اعترف بالحماية البريطانية على مصر وهى الحماية التى فرضها البريطانيون خلال الحرب ، وقامت الثورة المصرية للتخلص منها وليقرر المصريون مصيرهم بانفسهم ..

ولم يكن هذا موقف ولسون من المصريين وحدهم ، ولكن من كل الشعوب الاخرى وخاصة من العرب الذين سارعت وفودهم ايضا الى فرساى ، وكانوا حلفاء لبريطانيا وفرنسا خلال الحرب ، وقاموا بدور رئيسى فى هزيمة الاتراك وسقوط الامبراطورية العثمانية فلم يكن حظهم افضل ، لقد كان ولسون (صهيونيا) متحمسا ، وبداية الرؤساء المتحيزين للصهيونية فى الولايات المتحدة ..

وقد انسحبت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية من المسرح السياسى العالمى ، وعادت سياسة « العزلة » وسقط ولسون ، وفشلت كل مطامعه ، واقتسم لويد جورج رئيس بريطانيا وكليمنصو « النمر » رئيس وزراء فرنسا كل التركة فيما بينهما ، وسد الطريق تماما امام كل محاولات الولايات المتحدة

الهيمنة ، سواء بإعادة رسم خريطة العالم ، أو فتح الأبواب الموصدة أمام تجارتها وتوسعها .

ولم يفقد بعض الوطنيين المصريين في ذلك الحين كل الأمل في الولايات المتحدة الأمريكية ، وذهب أحد أعضاء الوفد المصرى « محمد محمود » — وربما لم تكن مصادفة أنه زعيم حزب الإقطاعيين الكبار و « أبناء » الهيوكات — ذهب بعدئذ الى هناك ليشرح للرأى العام الأمريكى ولممثلى الشعب فى الكونجرس قضية مصر — وقد لجأ فى مهمته لاستئجار محاميا أمريكيا كبيرا ، المستر فولك ، بمبلغ ٢٠ ألف جنيه ليدافع عن القضية ، ولكن كانت النتيجة النهائية ونصيحة المحامى أن لا أمل فى النجاح ، لأن الكونجرس الأمريكى ، ليس فى حالة تمكنه من الاستماع للقضية المصرية أو تأييدها .

واحتاج الأمر الى حرب عالمية أخرى ، لتعود الولايات المتحدة الأمريكية مرة أخرى الى مسرح السياسة المصرية بل والى الشرق الأوسط عامة ، وتبقى ..

وخلال الحرب العالمية الثانية هذه — نزلت الجيوش الأمريكية فى الشرق الأوسط وفى شمال افريقيا العربية .

وكانت القوات الأمريكية هى التى حسمت نتيجة المعركة فى شمال افريقيا : فى تونس والجزائر ، وكانت الأسلحة الأمريكية هى التى حسمت المعركة فى العلمين وفى ليبيا وفى الشرق الأوسط عامة .

وكان البترول الذى عثرت عليه الشركات الأمريكية (بغزارة) فى شبه الجزيرة العربية عنصرا رئيسيا فى كسب الحرب كلها .

ولقد كان واضحا قرب نهاية الحرب العالمية الثانية — وبعد هزيمة المانيا وايطاليا واليابان — أن هذه الحرب هى نهاية

بريطانيا وفرنسا أيضا ، وانهما لن يسرقا النصر كما حدث فى الحرب العالمية الأولى ، وان الولايات المتحدة سوف تكون سيدة الموقف بعدئذ — ولزمن طويل — دون أن تنسحب ولن تتحول مرة أخرى ، بل ستبقى وتسود ..

وكان من أهم المناطق التى يجب أن تبقى وتسود فيها انما ما ترامت اليه ، والسيادة على المسرح الدولى كله الشرق الأوسط - وهذه قاعدة وضعها أعزاء الكبار مثل الايسنهاور .

وكان وجودها العسكرى قائما فى المنطقة بالقوات والقواعد الكبيرة التى انتشرت من الظهران فى السعودية الى ملاحة فى ليبيا الى القنيطرة فى المغرب .

وكان وجودها الاقتصادى قائما وعلى أوسع مدى ببحيرة البترول .. الشامخة التى انتزعتها الشركات الأمريكية فى شبه الجزيرة العربية ..

وكان لا بد أن تبنى الوجود السياسى الذى يخدم ويحمى هذه « الامبراطورية » الجديدة ..

وكان أول عمل قامت به الولايات المتحدة هو اقامة دولة جديدة تكون ممثلة كاملا للوجود الأمريكي وخاضعة متفانية له ، والقاعدة الأولى للوجود السياسى والاقتصادى الاستراتيجى الأمريكى ، وتتبعها كل القواعد الأخرى ..

وكانت الحركة الصهيونية قد حولت ولاءها فعلا خلال الحرب من بريطانيا القاربة الى الولايات المتحدة ، وذلك فى مؤتمر مشهور باسم « مؤتمر بلتيمور » ترأسته الشعبة الأمريكية فى الحركة الصهيونية التى تصدرها (بن جوريون) والتى كانت الشعبة البريطانية التى كان يتزعمها (وايزمان) والتى كانت تقود الحركة الصهيونية حتى ذلك الحين ..

وكانت الولايات المتحدة هى التى فرضت قرار التقسيم فى الأمم المتحدة سنة ٤٧ قسرا وبالضغط (العارى) والتآمر على وفود أمريكا اللاتينية .

وكانت الولايات المتحدة هي التي فرضت الهدنة الاولى فرضا خلال حرب فلسطين سنة ٤٨ حينما بدا ان الجيوش العربية سوف تكتسح القوات الصهيونية .

وكانت هي التي مدت اسرائيل بسيل من الاسلحة ومن الضباط الامريكيين خلال الهدنة لتواجه القوات العربية ..

وكانت الولايات المتحدة هي التي فرضت الهدنة الثانية في حرب فلسطين الاولى ، حينما بدا ان القوات المصرية ما زالت قادرة ، ولتمكن القوات الصهيونية من مزيد من الاسلحة والخبراء لتحقق النصر النهائي ..

وبعد اقامة اسرائيل بدأت المهمة التالية وهي غرسها وترسيخها في كيان الشرق الاوسط .

وكان الصراع حادا بين بريطانيا والولايات المتحدة حول سورية ولبنان وخاصة سورية ! كانت بريطانيا تريد ان تحقق مشروع سورية الكبرى بأن تضم سورية للاردن بزعامة الملك عبد الله رجلها الاول ، أو ان تحقق مشروع الهلال الخصيب ، اي ضم سورية والاردن والعراق ولبنان في اتحـــاد كبير ، بزعامة الاسرة الهاشمية في الاردن والعراق لمواجهـــة النفوذ الامريكي الاسرائيلي الجديد .

ودبرت الولايات المتحدة انقلاب ــ حسني الزعيم ــ في سورية ، وتم انقلاب تحت السفارة الامريكية في دمشق باعداده كاملا ــ وتسليم السلطة الى العميل الذي اختارته ــ وهو الكولونيل حسني الزعيم ..

وكان الانقلاب اول محاولة لنقل اسلوب الحكم المفضل لدى (الامبريالية) الامريكية ، والذي مارسته لزمن طويل في امريكا اللاتينية ، وهو حكم الكولونيلات الذين يقبضون الرشوة والعلاوات في الخفاء ، ويعملون مباشرة لحســـاب الشركات والاحتكارات الامريكية ، ويقومون بحراسة للمصالح الامريكية ــ

وحكم الرجل الديكتاتور العسكرى ، هو أسلوب السياسة الأمريكية المفضل . ولا يجيد الاستعمار الأمريكي ـ الأساليب والوسائل البريطانية في اقامة الواجهات « الديمقراطية » ، وتكوين الأحزاب وزرع الفرقة والشقاق ، وتحريض حزب أو زعيم ضد زعيم ، أو قبيلة ضد قبيلة «فرق تسد» كما كان يفعل الرومان .

« حرض القبيلة الموالية على القبيلة المعادية فلا تضطر الى طلب جيش من بريطانيا » كما قالت حكومة الهند لحاكم عدن .. ذات يوم كانت بريطانيا جزيرة صغيرة بعيدة تحكم بالاسطول ، ولا بد حتى تستطيع الحكم والسيطرة من الحيلة والخديعة واثارة الخلافات والشقاق ، تحت اسم الديمقراطية واعداد الشعوب المتخلفة للحكم الذاتي .

ولكن الاستعمار الامريكي أكثر فظاظة ومباشرة لان الولايات المتحدة أقوى وأغنى وأكبر دولة في التاريخ ، وهي قد قامت على العنف منذ البداية ، وستظل دائما تعتمد عليه ؛ العنف العاري المباشر أسهل وأقصر طريق ..

ويتحقق العنف بجنرالات أو كولونيلات على رأس جيوش منظمة مسلحة تتلقى التعليمات والمساعدات والمنحة مريحة من السفارات أو الاحتكارات الامريكية » .

ولقد كان الأمل أن يكون هذا بداية انقلابات مماثلة في الدول المجاورة ؛ تخلع النفوذ البريطاني ، وتقيم الوجود الامريكي ، وتعقد الصلح مع اسرائيل ، وتؤسس السيادة الامريكية على المنطقة .

ولكن الانقلاب كان بداية صراع انجلو امريكي مرير حول سورية ، فقد قامت بريطانيا بانقلاب مضاد بقيادة الجنرال ـ سامي الحناوي ـ ردت عليه الولايات المتحدة بانقلاب جديد بقيادة الكولونيل ـ الشيشكلي ـ

وتتابع القلق وعدم الاستقرار في سورية ، وبقيت معركة ثلاثية حقيقة الرئيسي ، ولقد كان واضحا لدى الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب ، وتأكد هذا بعد الانقلابات السورية ان السيادة على الشرق الاوسط لابد أن يبدأ من مصر وأن تعتمد عليهـا ..

من يريد أن يسيطر على العالم فلا بد ان يسيطر على الشرق الاوسط . ومن يريد أن يسيطر على الشرق الاوسط فلا بد ان يسيطر على مفتاحه : مصر ، وهذه قاعدة استراتيجية تاريخية لم تتغير منذ أيام الاسكندرية الى الرومان الى العثمانيين حتى الاستعمار الحديث ..

فحينما حلم نابليون بفرض السيطرة والسيادة الفرنسية على العالم وبانتزاعها من بريطانيا جاء الى مصر بل قال : ان مصر أهم بلد في العالم ! وحينما أراد الانجليز تأمين سيطرتهم وسيادتهم على العالم حتى لا ينزعها أحد آخر احتلوا مصر ، وحينما أصبحت المانيا قوة أوروبية أعظم وتطلعت لاقتسام أو انتزاع السيادة على العالم ـ اتجهت نحو الشرق الاوسط ، وللاستيلاء على مصر .

وحين أراد موسوليني أن يعيد مجد الامبراطورية الرومانية ولو لسود العالم أمدّ الخطط والمشروعات لغزو مصر واحتلالها .

والآن العصر الامريكي وتحقيق السيادة الامريكية لابد أن يتم ولا مناص له من السيطرة على مصر ، ولهذا كان العمل الثالث والرئيسي للولايات المتحدة ـ بعد اقامة اسرائيل والانقلابات السورية ـ هو البحث عن انقلاب في مصر .. كولونيل مصري قوي يجد المشاكل التى لم تنقطع فيها والتى يمثلها الوجه

ال كل المنطقة . وهو سوف يقضي على النفوذ البريطاني ، ويفتح مصر لعصر السيادة الامريكية ويعتبها للوجود الامريكي ..!

وقد ارسلت الولايات المتحدة لهذه المهمة أبرع سفرائها « جيفرسون كافري » - وكان اشهر مدبري الانقلابات في وزارة الخارجية الامريكية ، ويضم سجله سلسلة طويلة منها في القارات الثلاث في امريكا الجنوبية والوسطى ..

وقد توج جهوده في اوربا الغربية ، فكان اول سفير في فرنسا بعد التحرير ، وليد سمي الشعب هناك ، وازاح ديجول من الحكم ، وطرد الشيوعيين من الائتلاف الوزاري ، واشترى الاشتراكيين لحساب الولايات المتحدة الامريكية وحول فرنسا التي كانت تحلم باعلان الثورة الفرنسية في اوربا ، الى قاعدة مطيعة لمشروع مارشال ثم لحلف الاطلنطي ، ثم لكل المشروعات المعروضة على اوربا .

وكان على جيفرسون كافري ان يتمم عمله في الشرق الاوسط ، ان يخضعه لحلف جديد يكمل حلف الاطلنطي ونظرية ترومان وسياسة الاحتواء ، ولا يتم هذا الا بأن تكون قاعدته مصر ، وبأن يقوم فيها حكم قوي (عسكري) يحمي الشعب ، ويحقق الاستقرار ..!

وتجاوزت الحركة الوطنية — الشعبية — في مصر كل تحركات كافري .. والغيت معاهدة عام ١٩٣٦ ، واعلن الكفاح الشعبي المسلح بعد مجزرة الاسماعيلية وتلاقي الوفد بالجماعات الناصرية وطلائع الثورة البلاد ..

وتقدم كافري بمظاهرة سياسية (غربية) مع سفراء بريطانيا وفرنسا وتركيا لارهاب مصر والانضمام الى حلف الشرق الاوسط لتكون مصر قاعدته ، ولكن رفضت مصر من الوهلة الاولى . وواصل كافري بحثه وجهوده لكي يعثر على

الكولونيل او الجنرال الذي يسلمه بالســـلطة ، وكان معروفا للجميع يومئذ ان هناك تنظيما في الجيش المصرى ، وان قوة وطنية ثورية تعمل داخله ، وكانت منشورات الضباط الاحرار توزع في كل مكان ، وقد حاولت السراى وحاولت بريطـــانيا جاهدة ، وحاولت المخابرات المركزية الامريكية معرفة هؤلاء الضباط الاحرار ، ولكن بلا جدوى ، كان هناك خوف وقلق من ان ينبثق نشاط من الجيش يقصد كل الخطط .

وفي اواخر عام ١٩٥١ كون دين آتشيسون وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية لجنة موسعة تضم خبراء من وزارة الخارجيـــــة الامريكية ووزارة الدفاع (البنتاجون) وادارة المخابرات المركزية واسـاتذة الجامعات الاخصـائيين في شئون الشرق الاوسط ، ورجال الاعمال ذوى المصــــالح في المنطقة برئاسة رجل المخابرات المركزية المشهور « كيرميت روزفلت » ـ وكان رجلهم في الشرق الاوسط » وكان أيضــــا حفيد تيودور روزفلت ـ لحسم مشكلة الشرق الاوسط .

كان على اللجنة ان تبحث عن حل الشرق الأوسط عاجل سواء بالطرق المشروعة أو غير المشروعة .

وبعد بحث طويل انتهت اللجنة الى ان حل مشكلة الشرق الأوسط لابد ان يبدأ من مصر ، ويتم هذا بتدبير انقلاب فيها ، « كنا نريد رجلا قويا هناك يملك من القوة ما لا يملكه رجل آخر في العالم العربى ، ويستطيع اتخاذ كل القرارات المكروهة » وأوكلت المهمة الى كيرميت روزفلت .

وبعد حريق القاهرة أصبح ضروريا التعجيــــل بالعمل ، ولهذا جاء روزفلت بعد الحريق بأيام يحمل تعليمات بأن يدبر ثورة سلمية بوساطة الملك فاروق تمحو النظام القــديم تماما ، وتقيم نظاما جديدا ، وبذلك يسبق الملك ، ويهزم القوى الثورية

التي تقول تقارير رجال المخابرات المركزية منذ عامين : انها على وشك الانفجار والانتصار ، واذا ما حصل في مصر فلا بد ان يصيب الاحتلالات الأخرى ، ويعثر على رجل قوي ومقبول لكي يجمع المصريين ..

وقد كان كيرميت روزفلت صديقا حميما للملك فاروق ، وقد عمل في مصر خلال الحرب وتوطدت صداقته بالملك بعد حادث ٤ فبراير عام ٤٢ ، وكان يزوره يوميا في قصره ، وهو حانق عاجز مثل حوت كبير قذف به الى الشاطىء وكان يطمئنه ويعده بانه بعد الحرب سوف تكون هنالك سياسة جديدة ، وصفقة جديدة امريكية — لمصر تسترد بها سيادتها ، وسوف يكون هو اول ملك مستقل على عرش مصر منذ الفي عام ..

وكان هو الذي دبر المقابلة بين فرانكلين روزفلت والملك فاروق عام ١٩٤٥ خلال زيارته لمصر .. ولكن بعد قليل خاب امل كيرميت روزفلت رجال الأخرى في الملك فاروق ، وفي قدرته ، واتفق الاثنان على انه ليس سوى الجيش فقط ، يمكنه أن يقوم بالمهمة ويسيطر على موقف يتدهور كل يوم ، وهي الجيش وحده يمكن اقامة حكومة تتعامل وتتفاهم مع الغرب .

وبدأ البحث مرة أخرى في الجيش : كان كيرميت روزفلت يريد أن يصل الى الضباط الاحرار ؟ وان يعرف خططهم وبرامجهم وأن يستعملهم .

وباعترافه استطاع الضباط الاحرار ان يصلوا اليه ، وان يعرفوا مهمته ونيات الولايات المتحدة ، ولكن لم يستطع هو ان يصل اليهم وظلت اسرارهم الأساسية بعيدة ..

وعاد روزفلت الى واشنطون وكان عليه ان يعترف بأنه اذا وقع انقلاب في مصر فلن يكون انقلابنا ، ولكن علينا ان نعمل معه ..

ورفض كافري هذه النتيجة • وواصل العمل بحماسة ليثبت قدرته ويسبق الزمن ، ويتطور الموقف .

وواصل الملك فاروق أيضا العمل ، كان يريد أن يسترد ثقة الولايات المتحدة ؛ ولن يقدم لها الاصلاب الذي تريده ، ويختلر بالفعل الرجل الذي سوف يقوم به .

ووجد الضباط الاحرار انفسهم بين خطرين داهمين ومؤذيين : فاما ان يقدموا على ثورة لم تستكمل استعداداتها : من كوادر عسكرية وسياسية وتنظيم شعبي مؤيد وبرنامج مفصل - وفكر ثوري متكامل .. واما ان يقدموا عليها مهما تكن النتائج • وقبل ان يفاجئهم او يسبقهم الملك أو الولايات المتحدة الامريكية قرر الضابط الشاب المصري الذي كون التنظيم واختار الرجال والذي وضع الخطط ودرس وأحصى كل الآراء ، قرر المخاطرة وحدد ساعة الصفر ..

ان الثورة مخاطرة ، والهجوم خير وسائل الدفاع ، والانتظار قد يعني منح العدو فرصة واطالة عناء ومشقة الشعب الذي لم يعد له سوى مخرج واحد ، ربما يضيع منه اذا انتظر .. لابد من العمل فورا .. واعلنت الثورة .

وفي ليلة واحدة تمت وانتصرت • ولقد عرفت حكومتنا (الامريكية) بالثورة في صباح اليوم التالي بقراءة انبائها في الصحف ، وكانت هناك تقارير كثيرة من المخابرات المركزية الامريكية قبل ذلك تقول : ان هناك شيئا سوف يحدث في مصر ولكنها لم توضح اي معلومات حول هذا الشيء – عن موعده او عن تحركاته واتجاهاته .

وقد فاجأت ثورة ٢٣ يوليو الجميع : فاجأت الشعب الذي توالت عليه الضربات وموجات الارهاب حتى كاد يصرعه اليأس –

وفاجأت البريطانيين الذين كانوا يفخـــرون دائما بأنهم يعرفون الجيش المصري جيدا ، ووصف ايدن عنـــد وقت قريب يلوح لحكومة الوفد باستدلال بريطانيا في الجيش المصري ..

ولكن المفاجأة كانت أشد بالنسبة للملك فاروق والولايات المتحدة الأمريكية ، وقد قال الملك يــوزعه المشهورة : « لقد غدروا بي قبل أن أتعشى بهم » . وكانت هذه حقيقة .

ولم يكن الامريكيون يتصورون قدرة الضـــباط الاحرار على التحرك بالسرعة التي حققوا بها الثورة . وليس أن تستطيع حارات الولايات المتحدة أن تعرف عنها شيئا .

وقد أرادت الولايات المتحدة أن تغطي المفاجأة بأن تشيع وتوحي بأن الثورة من صنعها ، فهي انقلاب آخر من الانقلابات الأمريكية ، وصرح البعض بذلك علانية .

وأراد جيفرسون كافري الذي كان يصادف أول واكبي لشل في حمـــاقة أن يداري ما حدث بأن يتبنى الثــورة .. والأولاد « أي ضباط الثورة » . وقال بعض الدبلوماســـيين الأمريكيين : ان الثورة نعمة نزلت علينا من السماء تماما كما ترى ، ولا يظهر لي شيء انها لم تكن من صنعنا أو لحســـابنا ! يمكن أن يسيطروا صنعها وسياستها كما يريدون ..

لقد حاولت الدبلوماســية الأمريكية منذ اللحظــة الأولى أن تنفذ إلى الثورة والاستيلاء عليها ، ولكن بلا جـــدوى : كان الضباط الجدد الأحرار قيادة وتعبيرا عن كل القوى الوطنيــة والثورية الزاخرة التي تمت وتدفقت في أعماق المجتمع المصري : « هؤلاء العســاكر هم مثلون وأولاد الأهالي رمز القوة التي يتعلق بها كل ما يعود على الوطن بالخير والنعمة » كمــا قال عرابي للقنصـــل البريطاني عام ١٨٨٦ ..

وكان هناك طرف ثالث في القضية رمز الاتحاد السوفيتي »

كانت سياسة روزفلت تقوم على ان الولايات المتحدة سوف تكون بعد الحرب هي والاتحاد السوفيتي الدولتين العظميين في العالم ، وانهما سوف تكونان مسئولتين مسئولية رئيسية عن عالم ما بعد الحرب ، وهو عالم يجب ان يكون مختلفا عن العالم الذي سيطرت عليه دول أوربا ــ العظمى ــ وانتهى الى كل الكوارث ، وآخرها الحرب العالمية الثانية .

وكان التعايش الذي يراه روزفلت بين الدولتين لابد ان يقوم على تصفية الامبراطوريات القديمة ــ الاوربية ــ وكانت متداعية بالفعل خلال الحرب ومنح شعوب العالم وخاصة في المستعمرات ، صفقة جديدة طيبة ، وهو اسم سياسة روزفلت المشهورة ..!

وفي تطبيق هذه الصفقة يمكن أن تتعاون روسيا وامريكا ، وبالطبع سوف تتفوق امريكا ، لان لديها الكثير مما تمنحه وما تحتاج اليه هذه الشعوب ، واكثر كثيرا مما يستطيعه الاتحاد السوفيتي الذي انهكته الحرب .

ومات روزفلت وخلفه ترومان ، وكان مختلفا تماما ، وواقعا في قبضة الرأسماليين الامريكيين الكبار اعداء روزفلت التقليديين وكان هؤلاء يرون ان الولايات المتحدة قد نالت أخيرا فرصتها التاريخية للسيطرة على العالم وتحكمه ، وانه ازاء رأسمالية اوربية متصدعة ، واتحاد شيوعية منهكة وازاء شعوب صغيرة فقيرة لا تملك شيئا ، لا بد ان تكون امريكا ــ وحدها ا ــ سيدة العالم ، وهي قد ضمنت نتيجة الحرب في الباسفيكي وحصتها في اوربا الغربية وفي افريقيا والشرق الاوسط ، ولهذا لا بد ان يبدأ عصر السيادة الامريكية وما سموه « القرن الامريكي » .

واتفاقا معهم ذهب تشرشل الى الولايات المتحدة والقى الخطبة ، والتي خطابا مشهورا عرف باسم المكان الذي القي فيه « خطاب فولتون » ، ونادى بضرورة تحالف الولايات المتحدة

وأوربا الغربية لصد الخطر الجديد الزاحف وهو الشيوعية ولتحطيم الستار الحديدي الذي أقامته روسيا حولها وحول شعوب أوربا الشرقية ..

وتحولت سياسة روزفلت التي كانت تريد التعايش مع روسيا الى سياسة جديدة ، هي الحرب الباردة ضد روسيا وبالتحالف مع الاستعمار القديم تمهيدا للحرب الساخنة .

وكان كثيرون في أمريكا يرون ضرورة الاسراع بضرب روسيا قبل أن تستعيد قوتها . ويرون بالتبعية ضرورة العمل كل الثورات الوطنية . لأن العالم يواجه خطرا جديدا مشتركا لابد أن ينسى فيه كل المطالب الأنانية والقومية وقد انتهى عصر القومية الذي كان سبب المآسي كلها ، وعلى العالم أن ينتقل من الاستقلال والقومية الى التكافل والتكامل !

وكان الشرق الأوسط حجر الأساس في سياسة الحرب الباردة . والشرق الأوسط في التعريف الغربي يمتد من باكستان حتى حدود المغرب ؛ وقد نقلت الولايات المتحدة اليه بأكمله ، قبل الحرب وخلالها .

وكانت نظرية ترومان عام ١٩٤٧ بشأن اليونان وتركيا وإيران هي أول اعلان رسمي للحرب الباردة وكانت تقضي بحق أمريكا في التدخل في شرق البحر الأبيض والشرق الأوسط وخصوصا ليكونا ميدانا رئيسيا لهذه الحرب . كان المطمعان في الشرق الأوسط هما . النفط الناعم . فالاتحاد السوفيتي دائما يبقى بعد الحرب الباردة او الساخنة وكسبها .

ولقد قامت السياسة الأمريكية بعد ذلك على ما سمى بسياسة الاحتواء : أى حصار روسيا واحتوائها ، حتى تتعقد مشاكلها ، وتتفجر متناقضاتها ، وتسقط وتنهار من الداخل !

وأصبح الاتحاد السوفيتي طرفا في مشكلة الشرق الأوسط ، والمشكلة العربية بالطبع .. وكان قد أصبح طرفا في

كل قضية . وبعد سنين طويلة من العزلة والاضطهاد والبناء ، خرج الاتحاد السوفيتي بعد الحرب بصفته الدولة العظمى الثانية ، واحتل مكانه بعد معركة بطولية انبعث من مشارف موسكو التى بلغتها الجيوش النازية الى برلين حيث رفع العلم الأحمر فوق مبنى الرايشستاج !

وكان الموقف النظري والعملي للاتحاد السوفيتي هو تأييد كل الحركات الثورية والوطنية ضد الاستعمار ..

وكان هذا الموقف « عقائديا » ونابعا من النظرية الاشتراكية الماركسية التى ترى في سقوط الاستعمار في أي مكان «انتصارا على الرأسمالية العالمية وعلى الامبريالية العالمية وانتصارا على المدى الطويل للاشتراكية ..

وكان أيضا موقفا سياسيا نابعا من المصلحة القومية للدولة الروسية ، فهي لا تريد أن تكون محاطة بدول معادية .. ولكن بدول صديقة أو على الأقل غير معادية .

وكان البلقان قاعدة لسياسة حزام الحجر الصحي التى اقامته أوربا الغربية بعد الحرب العالمية الأولى ضد الثورة الروسية ، وكان الشرق الأوسط هو الميدان الذى تركت فيه الجيوش البريطانية لغزوها والقضاء على الثورة من « الترييجات » في الجنوب .

ولقد حققت روسيا الآن في البلقان بعد قيام الديمقراطيات الشعبية الجديدة هناك .

وأيدت روسيا الحركات الوطنية والتحررية في الشرق الأوسط التى تقضي على الاستعمار القديم وتواجه الاستعمار الجديد الأمريكي ..

ولكن مع ذلك كان الاتحاد السوفيتي بعيدا عن مصر ولم تعترف مصر به خلال الحرب فلم علاقاته بالحركة الوطنية المصرية

كانت محـــدودة ، وربما لا تكون هذه غلطته بقـــدر ما كانت غلطة القيادة الوطنية « البرجوازية » ، اذ تجنب التورط في هيئة الامم في علاقة مع الوفد السوفيتي - وبقدر ما كانت نتيجة حرص الاستعمار البريطاني الشديد على ألا تقوم علاقة ما ، كان فهـــم الاتحاد الســوفيتي في ذلك الحين للقضية الوطنـــية المصرية .. وكان أيضا وفقا للنظرية الســتالينية المتشددة يرميه محــدودا أو متزمتا ..

ولقد كان تأييـد الاتحاد الســـوفيتي للمطالب الوطنـــية المصرية في المحافل الدولية صريحا وبلا تحفظ ولــكن العلاقات ظلت رسمية ..

وكان ستالين في النهاية قليل الثقة بالثـــورات الوطنية الآسيوية والافريقية ، وبدور البرجوازية الوطنية - وكان رأيه في القادة الوطنيين الجدد في آسيا ، سوكارنو ونهرو واونج سان في بورما ، انهم عملاء انجليز أمريكيين لا أكثر !

ولقد ظلت المظاهرات الشعبية الجارفة في مصر قبل الثورة تطالب بالسلاح من روسيا وبالاتفاق مع روسيا ، وذلك بعد ما هاجمت الدبابات البريطانية جنود « بلوكات النظام » ، ولــكن بالطبع لم يجرؤ احد من القادة على تحقيق هذه المطالب - ولم يرتفع صوت من الاتحاد الســوفيتي نفسه يشجعها أو يستجيب لهـــا ..

وقد أيد الاتحاد الســوفيتي الثورة الجديدة في مصر ســنة ١٩٥٢ ، ولكن ظل متحفظا ، وخاصة بعد حملة الدعاية الامريكية الواسعة لانتحال الثورة والايحاء بأنها من صنع امريكا .

القضيـــة الاجتماعية

لم تكن القضية سنة ١٩٥٦ قضية وطنية فحسب ، ولكن كانت القضية الاجتماعية هى وجهها الآخر .

وكانت مصر مطمع الغزاة دائما لموقعها الســـــياسى والاستراتيجى ، ولكنها كانت مطمعهم ايضا لوفرتها « لخصب ارضها ونيلها ووفرة خيراتها » ؛ ولهذا عانى الشعب المصرى كل انواع النهب والاستغلال ، كما عانى القهر والاستبداد .

وبعد الاحتلال خضع الشعب المصرى لاستغلال « ثلاثى » الاركان من :

١ ــ الراسمالية الاجنبية الاوربية عامـــة والبريطانية خاصة ، وكانت لها السيادة والسيطرة .

٢ ــ الاقطاع ، وكان اقطاعا متميـــزا له كيان وتاريخ وتطور خاص ، مختلف عن الاقطاع الاوربى او الاقطاع المشرقى .

٣ ــ والراسمالية المحلية ، وكانت ذات فئات واتجاهات وحلقات داخل الطبقة . ولقد كان الراسمال الاجنبى بريطانيـا اساسا ، ولكن الصراع الحاد من اجل مصر دفع بريطانيـا مهادنة لغيرة الماليين الاوربيين الى منحهم نصيبا من « السوق » !

وكان الاقطاع المصرى اقطاعا عريضا متباينا فئـــات وقطاعات مختلفة الاصول والجذور .

كان هناك الإقطاع التركي الشركسي من الأسرة المالكة التي تملك معظم الأرض وأخصبها ، ومن الأرستقراطية الجديدة التي نمت حولها منذ محمد علي .

وكان هناك اقطاع أجنبي يمثله كبار الملاك الأجانب ، الذين آلت اليهم مساحات كبيرة من الأرض وخاصة في عصر الديون وبفضل الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة والبنوك ، وكان معظمهم يستغل استغلالا اقطاعيا مستبدا بسلالة غائبين في القاهرة أو أوربا ..

وكان هناك اقطاع مصري خالص يمثله بعض الملاك المصريين الكبار ممن ارتفعوا الى مصاف هذه الطبقة ، وكان عددهم قليلا بالنسبة للفئتين الأخريين ، ومساحة ما يملكون أقل ، ولكن نفوذهم في الريف حيث كانوا أكثر التصاقا — كان واسعا !

وكان الركن الثالث للاستغلال هو الرأسمالية المحلية المصرية ، وكانت طبقة ضعيفة اقتصاديا ومنقسمة مثل كل الرأسماليات في البلاد المحتلة الى فئة تنضم « للأجانب » وتعمل معهم وكيلة وسمسطة للتوابع وترويج بضائعهم وسلعهم وخدمة رءوس أموالهم .

وفئة « وطنية » تحاول بصراع وجهد شاق أن تقيم اقتصادا وطنيا وتنشيء بعض الصناعات أو تكون بعض الشركات أو تنتزع بعض المواقع والمراكز الاقتصادية الأساسية من الأجانب ، وهذه هي الرأسمالية الوطنية .

وتحت هذا الهرم الاستغلالي المثلث الطبقات كان يرسف الشعب : طبقة عريضة واسعة منحرمة في التعاسة والشقاء . كان متوسط دخل الفرد في مصر على حسب الاحصاءات الدولية الرسمية ٢٢ جنيها ، وهو أقل مستوى في العالم بعد الهند ، وكان هذا نصبة لمن يجده ، فقد كان هناك ما يقرب من سبعة

ملايين مصري آخرين بلا دخل يذكر على الاطلاق ، ويمكن تقدير دخلهم على أحسن الأحوال بسبعة جنيهات في العام ، وهو ما لا يمكن أن يسمى دخلا وما لا يكفل حياة يمكن بأي حال أن توصف بأنها انسانية ، كما قال أحد التقارير الدولية ..

وقد بدأ غزو الرأسمال الأجنبي — وهو المدخل الأول — في الثلث الأخير من القرن الماضي ، وبلغ ذروته عن طريق القروض الأجنبية .

كانت الرأسمالية الأوربية في أوج ازدهارها ، وتبحث بحثا محموما عن ميادين لاستثمار الفائض الكبير من رؤوس أموالها .

واجتذبت الرأسمالية الأوربية القروض لملوك وسلاطين ومهراجات البلاد الشرقية ، وهي قروض ضخمة لها سهولة وتستغل الضعف أو الانحلال أو الاعجاب البالغ بالحضارة الأوربية وضرورة محاكاتها ..

وحينما تصل حدها الأقصى ، ويبدأ الارتباك في سدادها — تتدخل الدولة أو الدول لتنظيم الاقتصاد ، ولاستيفاء حقوق الدائنين « المتمردة » لتبدأ السيطرة على الاقتصاد ثم على المصير كله !

وكان أول قرض عقدته مصر قرضا يسيرا بثلاثة ملايين جنيه ، عقده سعيد ، وكان البداية وانهالت بعده أفواج المرابين والمغامرين والسماسرة لعرض القروض وتقديم التسهيلات وكانت القروض أساسا للخديو ، ولكنها قدمت أيضا للشركات والأعيان ، بل وللفلاحين .. وأصبح الاقتراض من الأجانب طريقا سهلا وميسورا !

وقد وجد هؤلاء في الخديو التالي اسماعيل كل ما يريدون ، كان اسماعيل « أميرا » كما تصور « ميكافيللي » وقد أراد أن

يشترى بالمال ويحقق بالحيلة ما أراد جميعه وأسموه بحقه بالخديوى ..

وقد اشترى اسماعيل من السلطان العثماني حق عقد القروض مع الدول الأجنبية سنة ١٨٧٢ مقابل (٩٠٠٫٠٠٠ جنيه رشوة دفعت شخصيا للسلطان و ٢٥٠٫٠٠٠ جنيه رشوة للصدر الأعظم و ١٥٠٫٠٠٠ جنيه رشوة لوزير الخارجية و ٢٠٠٫٠٠٠ جنيه رشوة لموظفي السراى في استانبول) .

وبعدها عقد قرضا كبيرا : أكبر قرض عقدته مصر ٣٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه وبفائدة قدرها ٧٪ .

لم يتسلم اسماعيل من هذا القرض سوى ١١٫٧٥٠٫٠٠٠ جنيه فقط ، ونهب الباقي كله في السمسرة ، ولهذا سميت « أكبر صفقة واسعة في تاريخ القروض ، ولم يعرف تاريخ البنوك والقروض الحكومية صفقة مثلها » .

وبلغت ديون اسماعيل كلها بعد ذلك ٩٠ مليون جنيه ولكنه لم يتسلم منها بالفعل سوى ٤٢ مليون جنيه ، وضاع الباقي بين السماسرة والوسطاء ، وسميت هذه القروض جميعها « أكبر عملية نهب وتلصص تمت في القرن التاسع عشر » !

وأوضح ستيفن كاي في بحث قدم سنة ١٨٧٦ « أن مصر كانت قد دفعت حتى هذا العام جميع دينها المستحق إلى المبالغ المقترضة بفائدة ٦٪ ومع ذلك ظلت مثقلة بدين رسمي قدره ٩٠ مليون جنيه » !

وبعد الارتباك أرسلت بريطانيا « بعثة » لاصلاح المالية برئاسة بريطاني يدعى « كيف » وبعد قليل اشترطت أن يكون وزير المالية بريطانيا .. وعين ريفرز ويلسون !

وأدرك اسماعيل بعد فوات الوقت الفخ فقال : « انني ما كنت أعتقد قط أن انجلترا ترمي بشرائها أسهم قناة السويس

وإرسالها موظفا كبيرا لفحص حساباتي الى وضع يدها على مصر ! » .

وقد فكر اسماعيل برهة في ذلك الحين أن يعلن افلاس مصر وينجو ، ولكن هدده القنصل الفرنسي باسم القناصل جميعا بعزله بفرمان من السلطان ، وصاح اسماعيل :

« ما العمل اذا كنت لا أستطيع الدفع ؟ ان مصر جلد على عظم ، ولا تظنوا انكم بوضع العسكري على رقبتي تستطيعون ايجاد الموارد ! » .

ولكن وجدت الوزارة الأجنبية التي كان يرأسها نوبار والتي كان وزير ماليتها بريطانيا هو « ريفرز ويلسون » ووزير الأشغال فيها كان فرنسيا « دبلينير » ، وجدت الوسيلة والموارد واستنزفت مصر !

وفي سنة ١٨٧٧ كانت ميزانية الحكومة المصرية ٩٫٥٤٣٫٠٠٠ جنيها دفع منها للدائنين ٧٫٤٧٣٫٦٠٩ جنيهات ولم يبق لكل الالتزامات والمصروفات الداخلية سوى ٢٫٠٧٠٫٠٠٠ جنيه بعد دفع الجزية للسلطان !

ووقع معظم العبء على الفلاحين ، والى حد ان القنصل البريطاني نفسه كتب بعد دفع احد اقساط الفوائد الى حكومته :

« استوفيت لسوء الحظ كل الأموال المطلوبة لدفع الفوائد ، ولكن اخشى ان يكون هذا قد تم بثمن غال فاحتمى دفعه الفلاحون بكسر ظهورهم ، بعدما صودرت الغلة عنوة ، وفرضت عليهم الضرائب مقدما بالاكراه ! وانني لأخشى ان الادارة الاوروبية لتقضي من حيث لا تشعر على كل ثروة مصر الزراعية .. ولا شك انها تتحمل نصيبا من هذه المسئولية الخطيرة » !

وكتب نفس القنصل مرة اخرى : « ... المجزرة متواصلة ، والموظفون لا يتقاضون مرتبات منذ زمن طويل ، والخديو نفسه في ونع بعض الطلب الواقع بأن يدفع الأوروبيون بعض الضرائب » ..

وقد وضعت الحركة الوطنية مشروعا لتسديد الديون ، كان يكفل تسوية المشكلة واشتراك المصريين مع نواب الأمة وممثليها « في ضمانه » ولكن الدول عيّت هذا « الحلّ » .

« وكان من الممكن حل المسألة المالية حلا عادلا منذ ١٨٧٦ ، ولكن المسألة بالنسبة للدول لم تكن مالية بل « كانت سياسية » كان الدين ذريعة للتدخل ثم للاحتلال » .

لم يزل اسماعيل لانتصاحه في النهاية الى الوطنيين .

ومنذ تعاظم المشكلة المالية بدأت الدعوة علنية في الصحف البريطانية لاحتلال مصر ، وكتب احد دعاة الامبراطورية « دايسي » مقالا يطالب فيه « أن تضع بريطانيا يدها على مصر مقابل تحمل مسئولية الوفاء بتعهدات مصر لدائنيها وإصلاح الادارة المصرية » .

وقال أيضا : « يجب أن تنتهز بريطانيا هذه الفرصة التي لم يسنح مثلها منذ ٣٠٠ عاما . وهي فرصة اشتعال فرنسا والمانيا في صراعهما ، وامكان احتلال مصر دون خطر الحرب مع فرنسا ! »

ونفذت النصيحة ، ولكن بعد ذلك ببضع سنوات ..

واحتلت مصر لتثبيت عرش الخديو ، ولاستيفاء فوائد الديون الأجنبية .. والمهمتان متكاملتان !

وقامت السياسة الاقتصادية البريطانية على أن تكون مصر بلدا زراعيا خالصا ، يتخصص في محصول واحد هو القطن ، وأكد خبراء الاقتصاد البريطاني أن مصر بلد زراعي بطبيعته وبتاريخه ، وهو لا يصلح ابدا إلا أن يكون بلدا زراعيا ، ولا يمكن أن يكون بلدا صناعيا !

وتنفيذا لهذه السياسة واتباعا لها اغلقت المصانع التى كانت قائمة قبل الاحتلال ، وبيعت الورش والمعامل والبواخر التى كانت ملكا للحكومة ، والقيت دار سك النقود ، وبيعت

مصانع النسيج وأغلقت الترسانات والمسابك التي كانت باقية من عصر محمد علي وإسماعيل .

وحارب الاحتلال قيام أي صناعة وطنية للنسيج ، فكان مثلق الواحسة ! « لابد من الحصول على ترخيص من وزارة الداخلية » لفتحه « . .

وحدث أن أنشىء مصنعان للغزل والنسيج واحد بالقاهرة والآخر بالإسكندرية ، ولكن « فرضت الحكومة ضريبة على جميع المنسوجات المحلية قدرها ٨٪ وهي تعدل الرسوم الجمركية المفروضة على المستورد ، وهكذا بارت صناعة غزل القطن ونسجه » .

وكتب كرومر نفسه سنة ١٩٠٥ يقول : « إن الصناعات الأهلية تنقرض » !

وفتح الاحتلال أبواب مصر على مصراعيها للرأسمال الأجنبي ، وتدفق من كل مكان ، في حماية الاحتلال ، وفي حماية الامتيازات الأجنبية ، التي كانت تضع الأجنبي بشخصه وأمواله وكرامته فوق كل القوانين ، وتعفيه من كل الضرائب ، فسيطر على الحياة الاقتصادية كلها .

وكان الرأسمال البريطاني هو الرأسمال الأول على القمة ، وتأتي مصالحه أولاً ، ولكن كان هناك الرأسمال الأوروبي الآخر « الثانوي » ، الرأسمال الفرنسي والألماني ، والبلجيكي .. الخ .. وكان ذلك ثمنا لقبولهم الاحتلال ، وبعد الاتفاق الودي بين فرنسا وبريطانيا أصبحت استثمارات الرأسمال الفرنسي ضخمة .

وحصة للرأسمالية الأوربية الكبيرة فتحت بريطانيا الطريق أمام الأوربيين الآخرين ، فجرببي الدرجة الثانية ، من شواطىء البحر الأبيض وجزره ، من اليونانيين والإيطاليين والمالطيين ، وكانت بريطانيا تحتاج إليهم حاجة ملحة وضرورية « في أداء الأعمال القذرة ، وهي التي لا يلوث البريطانيون أيديهم بمزاولة

بالقيام بها مثل العائلات ونظر العمد في الريف ، والمرابين للفلاحين بربا فاحش ، وجمع محصول القطن أو السيطرة على أسعاره من الأرض حتى ميناء التصـــدير .. وهي مهام تخصص فيهما اليونانيون والمالطيون خاصة ..

وفي كل بلد احتلته بريطانيا كان لابد أن تخلق فئة أو طبقة تستورجها أو تستنبتها من أهل البلاد ، وتجردها من كل انتماء وتسخرها لهذه الأعمال .

وقد جمعت بريطانيا وجمعت فئة ثالثة في مصر .. هم « الليفانتيون » وكانوا خليطا من أتباعها الامبراطورية المنسحقة ، سخرهم الاستعمار ، فلم يعودوا شرقيين ولا غربيين ، وأصبح ضمان وجودهم هو ولاؤهم التام للاحتلال ..

واستخدمتهم بريطانيا في دعم الاستغلال الاقتصـــادي « والأعمال القـــذرة » وفي جمع « الأخبار » حتى قال كرومر : « وبغيرهم كنا نستطيع احتلال مصر ، ولكن بغيرهم لم نكن نستطيع البقاء » ، غير أن بريطانيا استخدمتهم في ميدان أهم من الاستعمار الثقافي ، وذلك لمعرفتهم لغة البلاد وأحوالهـــا .. ، ووضعت الصحف والمجلات ووسائل النشر ومنابره الرئيسية في أيديهم ..

ولكن الأوربيين من الدرجة الأولى أو الثانية أو الثالثـة « والليفانتيين يظلون على السطح وقريبا ، ولا بد أن يمدوا جذورهم بين الطبقات الحاكمة .. المحلية .

وقد كان أسلوبا تقليديا للبريطانيين طـــوال الامبراطورية وحرصهما أن يكونوا طبقة من الأهالي وخاصة في الوطني والمدن المستغلة يعملون سماسرة ووكلاء على النطاق الكبير لتصريف سلع الاستعمار ، ولمعرفة أسواقه واستثماراته ، وقد سميت هذه الطبقة بالاسم الذي عرفت به في الصين « الكومبرادور » ..

وكونت بريطانيا من الباشوات الذين خانوا الثورة او من « الصعاليك » الذين انضموا للاحتلال وايدوه طبقة « كومبرادورية » مصرية .. بدأت قليلة ثم اتسعت ، واحتلت مناصبها في شركات وبنوك ، وفروع الاستعمار البريطاني والاوربي عامة ، وكونت ثروات كبيرة مكنتها أن تضم نفوذا وسلطة .

ولقد امدت هذه الطبقة بريطانيا بحكام ووزراء ورؤساء وزارات كونوا احزابا ومنظمات تامت من الارباح والعمولات ، وخدمت الاحتلال سياسيا واقتصاديا كل الخدمات .

ولكن الركيزة الاولى والاساسية للاحتلال كانت الاقطاع ، وقد جاءت بريطانيا الى مصر بدعوة منه واستغاثة ، لتثبيت عرش الخديو ولاعادة حكم الطبقة التي وقفت على حافة النهاية ، ولهذا كان الوفاء كاملا ومتبادلا .

الاقطاع هو الذى كان يستطيع بخيراته وقدراته أن يحمي ويحكم لحساب الاحتلال وهو ايضا الذى يستطيع ان يحقق الهدف الاقتصادى الاساسي وهو تحويل مصر الى مزرعة القطن بالخاصة .

والاقطاع في مصر ذو تاريخ قديم وارتبط بتنوع النظم واساليب الحكم التي توالت على مصر ، ولكنه اخذ مرحلته وصورته الاخيرة في عصر محمد علي .

وقد قضى على اقطاع المماليك ، وعلى نظام الالتزام الذى كانوا يطبقونه ، واصبح هو المالك الوحيد لاراضي مصر ، ثم وزع الارض على اسرته ورجال الدولة والحكم في عصره ومن اشتركوا في تحقيق مشروعاته وأحلامه ، وقامت ارستقراطية اقطاعية جديدة في مصر .

وتبدأ بالاسرة المالكة من الامراء والنبلاء ثم الباشوات والبكوات ثم الاعيان -- وكانت غالبيتهم من الاتراك والشراكسة ولكن كان بينهم بعض المصريين ممن نبغوا في ذلك العصر ، أو ممن

كانوا في الأرض يخدمون زراعة الملاك الغائبين ، واستولوا على نصيب منها (ومن استغلالهم من قانون سعيد بملكية الأرض للفلاحين .

وحينما جاء الاحتلال أعاد صياغة هذه الطبقية ، واستعان بعصابة الإقطاعيين وملاك الوطنيين الذين انضموا للثورة ، ووزع الجاه على الآخرين .. خلق فئات جديدة من ضباط الكتائب ، أو « الأعيان » الطائفية او الإجانب لتقوم طبقة موالية له من أبناء البيوتات وأصحاب المصالح الحقيقية ظلوا على ولائهم الى آخر لحظة ، حتى قال المندوب السامي البريطاني (اللنبي سنة ١٩٢٠) : « نستطيع أن نغادر مصر مطمئنين لأن هناك طبقة من ملاك الأرض (الأعيان) على ولاء كامل لنا » .

ومع هذا أعلن الحكم البريطاني ، بالنفاق التقليدي انه جاء لمصلحة الفلاح ولتحريره ، واعلن أن الحكم « العادل » الجديد يقوم باسم الفلاح وكل « أصحاب الجلاليب الزرقاء » كما سماهم كرومر .

ولقد قام الحكم البريطاني ببعض اصلاحات يفاخر بها دائما الموظفون البريطانيون ، وأنصار الاحتلال ، وكانت تبدو براقة لأول وهلة ، ولكنها كانت لصالح الطبقة الإقطاعية الجديدة اولا ، ولصالح مزرعة القطن الفاخر من اجل لانكشاير .

انتهت السخرة ونظمت الضرائب ، ووزعت مياه الري التي يظل الفلاحون في الأرض ويصلوا ، ولا يهربوا منها ثم يتهاونوا في زراعتها .

وصدر قانون خمسة الأفدنة لحماية ملاك هذا القدر من نزع ملكية أرضهم ، ولكنه كان قانونا لخلق طبقة ملاك صغار ، يكونون خط دفاع وحماية للكية الملاك الكبار .. ولضمان مصالحهم .. !

وبعد سبعين عاماً من الاحتلال كان المجتمع الريفي .. مجتمع أصحاب الجلاليب الزرقاء يبدأ من قاعدة تضم ثلاثة ملايين أو أربعة (ربما لم تكن هناك احصاءات دقيقة) من باقي السكان ، بلا أرض ولا عمل ولا أمل ، محشورين في العشش ، يعملون إذا عملوا بضعة أشهر أو أسابيع في السنة وفي أحط الأعمال وأشقها ، مثل تطهير الترع والمصارف ، أو تنقية محصول الأرز أو جمع القطن ، أو أي أعمال في القاع لا يقوم بها أحد ، وكانوا يتنافسون على هذا أحط الأجور ، ولا ضابط ولا تحديد لها ، ويقاسمهم فيها مقاولو العمال الزراعيين ، وهم الذين كانوا يجمعونهم كالبهائم ، وينقلونهم إلى حيث يطلبون العمل ، أو يتاجرون بهم تجارة لم تكن تختلف في شيء عن تجارة السخرة التي ظل الحكم البريطاني يفخر بإلغائها ، وكان معظمهم يعيشون في الريف مستسلمين للشقاء الدائم الذي يرسفون فيه ، والعمل « ترحيل » في أي مكان ، وبأي أجر ولأية مدة ، وبعضهم كان يدفعه الفقر واليأس إلى الهجرة إلى المدينة حيث ينتقل من أشق الأعمال في الريف إلى مثيلها في المدن ..!

وفوق هؤلاء كان هناك مليون ونصف المليون من الفلاحين لا يملكون أكثر من نصف فدان ، وهي مساحة من الأرض لا تكفي أن تعيش عليها أسرة طول العام ، ولهذا كان معظمهم يشارك الطبقة الأخرى المعدمة في استكمال ما يمكن أن يقيم أودهم في العمل لدى الآخرين .

وكان هناك أكثر من نصف مليون يملكون من نصف فدان إلى فدان ...!

ومثل هذه الملكية الضئيلة المتناثرة التي تكون قاعدة الزراعة والمجتمع الزراعي المصري لم تكن لتسمح بقيام أي زراعة علمية أو عصرية أو كبيرة ، ولم تكن لتسمح إلا بزراعة متخلفة أشبه

التخلف ، المتمثل على تفشي الأسـاليب والوسـائل التي كانت تستعمل منذ الفراعنة : ادوات متخلفة وبدائية تتطلب الجهد الجهيد ، ولكن الملّ المحصول على حين قليرث الزراعة وأصبحت صناعة البر .

وعلى مثل هذا الاقتصاد الزراعي كان لابد أن يقوم مجتمع فقير فقرا مدقعا ، يضرب به المثل .

كانت القرية المصرية مضرب الأمثال في الفقر والقذارة ، مجرد جحور من الطين ، يسكنها الناس والبهائم معا ، ولتبقى البهائم بالمكان الأفضل (كما قال احمد حشمتوي) ، وكانت القرية المصرية ، محرومة من ابسط وسائل الحياة والمدنية لا مياه ولا كهرباء ولا مرافق ولا رعاية ، وكان متوسط عدد الأمراض التي بالفلاح المصرى خمسة أمراض ، وكانت الأمراض المستوطنة وخاصة البلهارسيا والانكلستوما تستهلك صحته وشبابه .. وتقضى عليه في النهاية .. وخلال الحرب مات ٢٠ الف فلاح بالملاريا ، وبعد الحرب مات عشرة الاف بالكوليرا وفق احصاءات الحكومة !

وقد ظلت مساحة الأرض المزروعة على ماهي عليه طوال فترة الاحتلال تقريبا برغم زيادة عدد السكان وتضاعفهم باستمرار ، ولهذا كانت للأسلة دائمة ، ويلتصق وطأتها اصحاب الجلاليب الزرقاء .

وفي الطرف الآخر من الهرم الاجتماعي ، كان هناك القلة مالك ، يمتلكون ٤٠٪ تقريبا من مساحة الأرض أى مليونا وربع المليون تقريبا من الأرض هى أجود الأرض واخصبها ، وهؤلاء كانوا الأسرة المالكة وطبقة الأمراء والباشوات والأجانب الذين يتربعون على « القمة » .

وكان معظمهم ان لم يكن كلهم يعيشون في القاهرة ، وفي الخارج احيانا « اوربا » ولا يعرفون عن أراضيهم وعن فلاحيهم

الا ما يقدمه لهم الوكلاء ونظار التفاتيش من ايرادات ، ولم يكن يعنيهم من الارض الا من يعيشون او يعملون عليها سوى الايرادات .

وكان هناك ...و٢٦ مالك آخرون يملكون اكثر من ٣٥٪ من مساحة الارض المزروعة .. وملكيتهم بين مائتين وبين خمسين فدانا ؛ وهم كانوا اقطاعيين أو شبه اقطاعيين صغار ؛ وكان بينهم الكثير من الاقطاعيين الوطنيين ؛ ولكن اساليبهم في الاستغلال لم تكن تختلف بالنسبة للفلاح من اساليب الآخرين وبرغم خصب الارض وامكان زراعتها اكثر من مرة في العام ظلت الزراعة محصورة في محصول واحد هو القطن ، يزرعه الاقطاعيون والفلاحون المصريون ، ويحمله التجار الاجانب الى الاسكندرية حيث يصدر الى مصانع لانكشير .

لم يكن ممكنا الخروج على حصار القطن واحتكاره ولا يسمح الاحتلال بتنويع الزراعة او باستخدام الوسائل والسبل التي كانت تستخدم في الزراعة في بريطانيا .. لانها لاتناسب « البيئة » !

ومع هذا الفقر والشقاء والاستغلال بلا حدود ظل الفلاحون هم قاعدة الثورة والحركة الوطنية منذ بدأت ثورة مصر .. ايام نابليون .. بالمقاومة الشعبية التي امتدت الى الريف ، واشتعلت في كثير من ارجائه ..

وقد كان الريف بفلاحيه هو قاعدة الثورة العرابية ، ولعب وطأة الديون والظلم على كاهل الفلاحين ؛ زادت في سخطهم وثورتهم ؛ ودخل الريف والفلاح الى الثورة الوطنية الديمقراطية . وخرجت الثورة العرابية منذ البداية على صعيد الثورة الى الريف .. وليبرز الفلاحون رجالا ونساء بكل ما استطاعوا .. لأول مرة ظهر رجل يمثلهم « الباشا جناحه » وساروا وراءه ..

وكان الفلاحون هم ملحمة الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، وعليهم وقعت وطأة « السلطة » البريطانية خلال الحرب ، انتزعت اكثر من مليون فلاح قسرا ودفعتهم للعمل في اشق الاعمال في مختلف ميادين الحرب الأوربية والعربية ، وانتزعت ايضا مواشيهم ومحصولاتهم واموالهم سواء بالتبرع أو بابخس الأجور ، وبعد نهاية الحرب انفجر الريف ، وكان قاعدة الثورة واساس التمرد .

وفي فترة مابين الحربين كان الريف هو عماد الحركة الوطنية وعماد الوفد .. كانت معاركه الكبرى وانتصاراته الكبرى هناك ..

ولكن بعد الحرب العالمية الثانية .. بدأت الوطنية تأخذ شكلا جديدا ليس مجرد الاستقلال التام ، وبدأ وعي الريف يتصاعد بالمشكلة الاجتماعية ومشكلة الارض .. ثم انفجر هذا الوعي في عدة احداث وحوادث صدام وعنف بين الفلاحين والاقطاعيين والملاك ، سواء كبار الاقطاعيين من الأسرة المالكة أو كبار الاقطاعيين الوطنيين .

وقدمت حلول كثيرة ومعتدلة بل سطحية للمشكلة ، حلول لا تمس اى حق من الحقوق الكبيرة ، وتقضي بتحديد الملكية بالنسبة للملكيات المستجدة فقط .. واستصلاح الأرض وتوزيعها بنسب عادلة على المعدمين والفقراء ، ولكنها كلها رفضت بالاجماع ، سواء من الملاك والاقطاعيين الوطنيين او غير الوطنيين ، فالفلاح او الارض يعودون صفا واحدا متراصا ..

وصدرت الفتاوى الاقتصادية بأن اى مساس بنظام الارض انما يؤدى الى كارثة اقتصادية ، وموازيها الفتاوى الدينية بانه كفر مخالف ومناقض لاحكام الدين .. ! ولم يقنع التمرد الذي حدث والانفجارات التي اخذت اشكالا عنيفة لأول مرة .. لم تقنع اصحاب السمو والسعادة ولم يستخلصوا منها اى عظة !

وبعد الرأسمالية الأجنبية الكبيرة والاقطاع – كانت تأتي في المرتبة الثالثة ، الطبقة الوسطى ، البورجوازية ، .

والبورجوازية طبقة قديمة في مصر ، وقد جاءت وسط خلال طريق مختلف ، وكان نموها متوازيا ومقترنا مع نمو الاقطاع ، بل خرجت منه في أحيان كثيرة .

لم يحدث ما حدث في أوربا : اقطاع يملك الثروة والسلطة التي تتركز في ملكية الأرض ومن عليها ، وجماعات بورجوازية جديدة تنبت من تحت ، ومن التجارة أو الصناعة ، ثم تنتزع من الاقطاع السلطة والثروة وتنتزعهما منه ، ثم تصوغ المجتمع والحياة بما يتفق مع مصالحها .. ومبادئها .

ولم تكن هذه هي الصورة هنا ، اذ كان الاقطاع مختلفا في طبيعته وتطوره ، وكذلك البورجوازية أيضا : كان الاقطاع المملوكي في نقص ظروف نشأتها تجاريا عسكريا ، وكان المماليك امراء أرض وأمراء حرب ، وأمراء تجارة ، كانوا يسيطرون على طريق التجارة الرئيسي عبر الشرق والغرب ، وكانوا على صلات تجارية واسعة مع مدن أوربا التجارية ، وخاصة المدن الايطالية ، ومع أسواق آسيا وأفريقيا الكبيرة .

ونمت لهذا حول هذه التجارة طبقة من التجار تكونت منهما بورجوازية ، تجارية .. كانت تمارس قدرا من السلطة ومن النفوذ في ظل المماليك ..

وحينما نزلت الحملة الفرنسية الى مصر وكانت تمثل أوربا الفرنسية التي استولى عليها نابليون كان البحث ينه وبين قواده ومستشاريه : كيف نحكم مصر ؟ وعلى أي القوى والطبقات نعتمد فرنسا التي كانت تنوي البقاء زمنا طويلا ؟ وكان السؤال حول تعتمد فرنسا على جماهير الشعب وعلى الجماهير ، وهي التي وعدتها الحملة مخاطبة ومستمعة ، والتي يمكن أن تنظر اليها تساوي الحملة بأنها جاءت لتحرير مصر من الطغيان ..

وكان هذا رأى بعض ضباط الحملة « اليساريين » من بقايا « اليعاقبة » وعلى رأسهم الجنرال كفاريللي .. « الاشتراكي » وكان رأيهم « أن ٦ر٢ من المليون من سكان مصر البالغ عددهم ثلاثة ملايين من الفلاحين الفقراء المطحونين . ولا بد أن يحقق عليهم حكم « الثورة الفرنسية » ويكون لصالحهم .

ولكن كان رأى الضباط البورجوازيين ، وعلى رأسهم نابليون نفسه أن تعتمد فرنسا في مصر على طبقة متوسطة « بورجوازية مصرية » كانت نواتها قائمة بالفعل من العلماء والتجار ، وعلى فرنسا أن تدعمها وتشجعها لتصبح بورجوازية موالية ، ومرتبطة تماما بفرنسا ، وهذا أفضل من الاعتماد على قاعدة جاهلة جائعة نزقة وغير مأمونة من الفلاحين ..

وكان التجار والعلماء -- والعلماء الذين تولوا السلطة ، ووزع عليهم ما صودر من ثروة المماليك هم نواة الطبقة التي قرر نابليون أن يحتضنها ويعتمد عليها في مصر !

ولكن البورجوازية والفلاحين والشعب عامة ما لبثوا أن انقلبوا على نابليون والمبادئ « البلور » التي حملها جيش الثورة معه إلى أرض مصر ، وقامت ثورة ضد نابليون لعلها كانت امتدادا للثورة الفرنسية !

وبدأت المقاومة وأول حرب شعبية في العصر الحديث ، ولم تهدأ حتى جلاء الفرنسيين تماما ، وبدأ عصر آخر مختلف : عصر محمد علي ، وكان لا بد للدولة المصرية الجديدة التي قرر محمد علي إقامتها وخلقها من بورجوازية مصرية ، من أن تحمل تبعاتها .

وقد أصبح محمد علي الاقطاعي الأول بملكيته للأرض ، وأصبح البورجوازي الأول باحتكاره لكل الصناعة والتجارة ، وأصبح المحارب الأول بتكوينه للعسكرية المصرية الحديثة .

وتكونت في عصره بورجوازية جديدة من أبناء الارستقراطية التركية الشركسية ، ومن أبناء الشعب « المصري » ومن الأجانب

الشرقيين والشاميين .. كانت خلفية هؤلاء كلهم الشبان الذين ذهبوا في بعثات متوالية الى أوربا للدراسة والتحصيل ما يمكن اقتباسه من عصر الثورات القومية البورجوازية والتحولات الصناعية والتكنولوجية الكبرى .. في أوربا .

وكان هؤلاء المتعلمون من الضباط والأطباء والمهندسين والاداريين والمفكرين هم « البادرة » للبورجوازية « التي قامت بالدعوة ، وكان مطمحهم هو اقامة مملكة مصرية عربية اسلامية مصرية تحل في الشرق محل الامبراطورية العثمانية ، وتعيد أمجاد مصر والعرب والاسلام بمقاييس وروح العصر .

والدولة القومية المصرية كان حلم « البورجوازية » وشعارها في أوربا في ذلك العصر .. وقد شرحه وأراد تحقيقه هؤلاء المثقفون .

« بث التعليم والمدارس في الأهالي روحا مصرية جديدة ساعدت في تكوين طبقة متوسطة متنورة من المصريين التي صارت ركنا في تاريخ النهضة الحديثة » كما قال مؤرخ كبير .. ولكن قضت أوربا على هذا الحلم ..

كان قيام هذه الطبقة واقامتها لدولة صناعية عسكرية تقع على ملتقى الطرق الى آسيا وافريقيا أي الشرق العالم ومواده الخام خطرا على أوربا كلها وعلى مصر تطورات نمو الرأسمالية وتطورها الى الاستعمار والامبريالية .

وقد دخلت الصناعة الكبيرة الى مصر في عصر محمد علي : الصناعة الثقيلة والخفيفة ، والصناعة المدنية والعسكرية .. « فابريقات الأقمشة والمنسوجات » ومصانع السكر والصابون والزيوت ، ومعامل البارود والورش الكيمائية ، ومسابك الحديد ومعامل الأسلحة ومنها (معمل القلعة) الذي قال عنه البوق دي رامبور : « انه يناظر أحسن معامل فرنسا وأرقاها » .

وقامت طبقة من العمال المهرة ، وكثير منهم تعلموا في مصانع فرنسا ، وعادوا ليحلوا محل الاخصائيين الأجانب .

« وكان منظر العامل المصري أمام الآلات حديثة تماما كالتى يقف أمامها العامل الأوربي يدهش ديبور » .

« وفي بعض المصانع كان العمال والمهندسون والمديرون جميعا مصريين خالصين لا يحتاجون لخبرة أجنبية » .

ولكن الضربة العلية في ستدها الأعمى على مصر و « محمد على » عقدت مع بريطانيا سنة ۱۸۳۸ معاهدة « لتفتح السوق » العثمانية كلها أمام بريطانيا وقررت اعفاء البضائع الانجليزية عند دخولها في كل ارجاء الامبراطورية العثمانية من كل الضرائب والرسوم .

« واصبحت تجارة انجلترة لا تتمتع في بلد من بلاد العالم بما تتمتع به في تركيا ، والرعايا الانكليز لا يتميزون في بلد على غيرهم بما يتميزون به في بلاد السلطان ، على حين أن « محمد على » وحكومته لا يمكن أن يعطوا الانجليز هذه الامتيازات » بل أن « محمد على » ينتويه المصانع وهو الآن يورد مصنوعاتها الي سورية » كما قال القنصل البريطاني .

ولكن لا بد أن يقرر بالمرستون رئيس وزراء بريطانيـا أن تركيا « هي أفضل دولة تملك طريق الهند . وهي أفضل من أي ملك عربي .. طموح نشيط يريد العمل والحركة ، وعلينا ان نساعد السلطان » .

وقضت بريطانيا على أول محاولة لنمو البورجوازية المصرية .

ولكن قامت هذه « البورجوازية » المصرية مرة أخرى في عصر اسماعيل ، وفى دور آخر وقع اسماعيل تحت وطأة الديون وفي قبضة الماليين الأوربيين !

ووقعت وطأة هذه الديون على الفلاحين ، من الملاك والزارعين وعلى « بورجوازية » المدن والريف سواء من التجار أو العلماء أو الضباط والموظفين ..

« كانت المحصولات تنتزع قهرا والنساء يبعن حليهن والمرابون يستولون على كل شيء ، وكانت « المرتبات لا تدفع شهورا طويلة للموظفين او الضباط ، وكانت مرتبات الوظفين الاجانب الذين تكاثر عددهم تدفع بانتظام .. وبسخاء كبير » .

ولم تقم صناعة حقيقية أيام اسماعيل ، ولم يوفق الوالي في تحقيق أغراضه منها بالرغم من مجهوداته العظيمة ، فقد وقفت الدول امام اقامة صناعة واقتصاد مصرى ، بل وعملت على تخريب الصناعات القائمة ، وانشئت فابريقة للورق سنة ١٨٧١ وكان يرأس عمالها البالغ عددهم ٤٠٠ عاملون أوربيون ، ولكن امكنهم في مدة وجيزة الاستغناء عن الاجانب ، وكانت هذه الفابريقة تقوم بتوريد جميع الورق اللازم للمطبعة الاميرية ومصالح الحكومة ، ولكن ما لبثت ان اندثرت هذه الصناعة وسارت مصر تشترى الورق من الخارج » .

وفي عصر اسماعيل اكتسبت هذه البورجوازية المصرية وعيها الوطني وارتفعت صيحة « مصر للمصريين » واكتسبت وعيها الديمقراطي ، وأصبح مطلبا اساسيا لها الدستور والديمقراطية ، واكتسبت وعيها الاجتماعي والاقتصادي في الحركة ضد المرابين والبنوك الأوربية ، وادركت ان الرأسمالية تريد استغلال الاقتصاد وتحارب باقامة اقتصاد وطني وصناعة .

ولقد انضم الى هذه الطبقة البارزون المستنيرون « الليبراليون » بل انضم اليها اسماعيل في اواخر ايامه ضد الأجانب ، كما انضم اليها عدد من الامراء ..

وكانت الثورة العرابية بداية « الصعود » الثورى للطبقة التي قامت بدور أساسي في حياة مصر وكفاحها حتى سنة ١٩٥٢ .

ولقد لعبت الفرصة على الحلم الوطني « البورجوازي » في اقامة الجمهورية الدستورية المصرية ...

لتزعزعت ترهل الطبقة وكيانها . وحدث التفسخ ، وانضم البعض الى المحتل ، وارتفع البعض في مصـــاف البورجوازية الكبيرة الزراعية .. ولكن على اية حال استوعب الكفاح بعد الاحتلال بسنوات قليلة ولم يكن يتوقعه المحتلون . وارتفعت صيحة (مصطفى كامل) مطالبة بالجلاء والاستقلال ، وارتفعت فى الوقت نفسه ايضا صيحة مكملة كانت صيحة (طلعت حرب) للتحرر والاستقلال الاقتصادي .

وظلت كلتا الصيحتين مجرد دعوة تنتشر بين الناس ، وظلت البورجوازية المصرية الوطنية صغيرة ومتوسطة لا تستطيع ان تتمم مبادىء الاقتصاد الحديث « الرأسمالي » والصناعي حتى ثورة ١٩١٩ ، ولكن لا بد أن تقترن الثورة الوطنية السـياسية بثورة وطنية اقتصادية وثورة وطنية ثقافية ايضا .

وقد ساعد على نجاح البورجوازية المصرية في انتزاع بعض الحقوق الاقتصادية ان الاستعمار البريطاني ادرك خلال الحرب العالمية الاولى حاجته الى اقامة صناعات محليـــة على الطرق الرئيسية للامبراطورية وان الرأسمالية البريطانية رأت منح بعض التنازلات للبورجوازية المصرية لتصرفها عن الثورة ..

وقام بنك مصر ..

وكان منذ اول نجاح لمؤسسات البورجوازية المصرية واكثرها اهمية وكان عليه ان يقود معركة شاقة لارساء اسس الصناعة ولدخول السوق المالية والصناعية والتجـــارية الكبيرة التى استأثر بها الاجانب ، وحاولوا حظر دخول المصريين اليها .

وفي الثلاثينات رفعت التعريفة الجمـــركية التى كانت مفروضة على مصر .. والتي كانت تجعل من المستحيل حماية الصناعة القومية المحلية .. ولهذا نمت الصناعة نموا مطردا ولكن في اطار محدود ..

وخلال الحرب العالمية الثانية نمت البورجوازية المصرية وخاصة الصناعية نموا سريعا ومطردا ، فان احتياجات الحرب واحتياجات السوق المحلية اصبحت تعتمد الى حد كبير على الانتاج المحلي ، وازدهرت الراسمالية المصرية ..

ولكن الحرب اقترنت ايضا بنمو القوى الوطنية والشعبية ، وباشتداد حدة المشكلة الوطنية ، بل اقترنت بحدث لا يقل اهمية هو تفاقم المشكلة الاجتماعية وخاصة المشكلة العمالية .. كان ذلك منعطفا في الحركة الوطنية وموقفا جديدا في حياة مصر وتاريخها .

ونمو الراسمالية والبورجوازية المصرية يؤدي بدوره الى نمو الطبقة الاخرى ، الطبقة العاملة ، ربيبة الراسمالية .

والطبقة العاملة المصرية عريقة في تاريخها وفي تراثها .

وهي قد قامت منذ عصر (محمد علي) ، وتحولت الطوائف الى عمال مصريين .. ولكن بالطبع لم يتح لها التكوين والتنظيم على الاسس النقابية والعمالية العصرية .

وقد تم هذا في اواخر القرن الماضي ومن ذلك الحين كان دورها اساسيا ورئيسيا في كفاح مصر الوطني والاقتصادي ..

وقد قام العمال بدور رئيسي في ثورة ١٩١٩ ، وكانوا من اعمدة التنظيمات السرية والضاربة .

وقام العمال كذلك بدور رئيسي بعدئذ في الكفاح ضد استبداد السراي والاحتلال ، وكان كفاحهم ضد حكم احزاب الاقلية والاحزاب الموالية صفحة مشهودة ، وكفاح العمال هو الذي ادى في النهاية الى استقالة صدقي باشا .

وخلال الحرب نمت طبقة عاملة نموا سريعا مطردا .. واضطرت الراسمالية المصرية بعدئذ الى ان تستجيب لبعض

مطالبها .. وصدر خلال الحرب أول قانون ينظم العلاقة بين العمال وأصحاب الأعمال .. ولقد صدر بعد معارضة شديدة وخاصة من الرأسمالية الأجنبية ، واصدرته حكومة الوفد .. بجهد شديد ..

ووطنية الرأسماليين تظل فى اطار السياسة وتحقيق الاستقلال ، وهو يعنى الاستقلال والاستئثار بالسوق من الأجانب ، ولكنها تصور وتقبل اذا ما احتدت المشكلة الاجتماعية ، واصبحت الوطنية تعنى أيضا تحرير خيرات وموارد البلاد ، ينعم بها أهلها وشعبها بلا تمييز .

بدأ الصراع الداخلى « الطبقى » وازداد تجاهل البورجوازية « الوطنية » له اشتداد ، ثم انفجر فى سلسلة من الاضرابات كان اشدها اضراب عمال « المحلة » احدى شركات بنك مصر قلعة البورجوازية الوطنية المصرية !

وازاء الثورة الاجتماعية وخاصة فى البلاد المستعمرة والتى تحوى كفاحا وطنيا تنقسم البورجوازية انقساما آخر : الى الذين ينفصلون عن الثورة ، وتنتهى وطنيتهم ما دامت تمس مصالحهم ، ويفزعهم دخول العمال بمطالب اجتماعية ونمو طبقة تتبع قيادتهم « الوطنية » الى طبقة تريد المشاركة السياسية والاقتصادية ، والى الذين يظلون على وطنيتهم ويتطورون بها .

ولقد شجع هذا الانقسام وجود استعمار جديد يفد لأول مرة الى المنطقة ، وكان يبحث عن حلفاء واصدقاء ، ويلتمس هؤلاء دائما فى الطبقات الوسطى وخاصة اذا كان لها ماض وطنى ، ومقابل مكاسب اكثر واسخى مما كان يستطيع الاستعمار القديم .

وكان الاستعمار الجديد يضخم الثورة الاجتماعية القادمة ، واخطارها وانها قد تقتلع كل شئ ، بالشيوعية ، وكان فى نفس الوقت يغرى برؤوس أموال لا تجد من يستثمرها ويمكن

استثماراتها في مصر ، وهي جموعي اموال بترولية « عربية » أو جموعي اموال امريكية رأسا من هناك ..

ولكن يظل من البورجوازية جناح وطني يواصل المسيرة ويشجع صموده ووطنيته ان الشعب كله يضطرم بالثورة ، ويدمغ بالخيانة اي تحالف مع اي استعمار جديد او قديم ..

وقد انعكس الانقسام في سياسة الوفد حزب البورجوازية الوطنية المتحد ، وفي تعثره بين الذين يريدون مهادنة القوى الرجعية في الداخل والاستعمارية في الخارج وبين الذين يريدون استمرار الثورة ..

ثم نشأته ثم سقوطه ..

وإزاء هذا الكيان الاجتماعي المتخلف والمتفجر بالثورة .. كان لابد من برنامج اجتماعي للثورة الجديدة .. كان لا بد لتحقيق الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية من تصفية الاقطاع تصفية كاملة ومن الحد من سيطرة رأس المال على الحكم ، وذلك بتصفية الرأسمالية الكبيرة والصلة بأحلاف البورجوازية الوطنية ، وبمواجهة تناقضاتها .. كان لا بد من تحقيق المصالح العاجل والآتي من مطالب الطبقات التي هي اشد احتياجا – أي الفلاحين والعمال – كانت الثورة الاجتماعية حتمية ولاصقة بالثورة الوطنية .. كان لا بد من هدم « الهرم » الطبقي القائم في مصر منذ قرون ، وتغييره من الأساس ، ولأول مرة في تاريخ مصر تتغير علاقات المجتمع الرئيسية ؛ وكان لا بد من كثير من الحكمة إزاء الواقع الداخلي والخارجي وإزاء موازين القوى المطبقة في الداخل والخارج ..

البطـــل

قال الضابط الكبير ، احمد عرابي ، منذ ما يقرب من تسعين عاما :

« هل تظن ان مصر قد عقمت وكم تلد سوى هؤلاء ؟ ان مصر لم تعقم ابدا » .

وقبل ان يموت عرابي بأسابيع قال لبريطاني كان مهتما بان يسجل آخر احاديثه :

« سوف يأتي جيل بعدنا ، وسوف يفهمني ، وسوف يحقق ما اردت وعجزت عنه ! » .

ولهذا كانت ثورة ٢٣ يوليو وكانت قيادة هذه الثورة « حدثا » محتوما و « مكتوبا » في تاريخ مصر .

كانت المعارك والهزائم ثم المعارك بلا نهاية ولا يأس لا بد أن تنتهي الى وقفة اخيرة ، وكانت التجارب والاخطاء ثم التجارب والاخطاء لا بد أن تتمخض يوما عن قوى وان تنجب وتنضج قيادة تثأر ذات يوم للماضي وتحقق المستقبل .

كان لا مناص أن تقوم ثورة تتمم وتحقق كل الثورات ، وتقدم قيادة تحمل كل الخصائص والقسمات .

وقد نمت تلك القوى خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها .. كانت قوى جيل باكمله فلا ثورة ١٩١٩ وعاش كل ازمتها وانتكاساتها . كان الجيل فلاحين وعمالا ومثقفين وضباطا وجنودا وكان بورجوازيين وعمالا وطنيين واداريين من كل اتجاه . كل منهم يعبر عن ثورة باى طريقة .. ثورة الجيل . ولكل جيل فى تاريخ مصر مسيرته وثورته ، ولكن هؤلاء كانوا ثمرة كل السابقين . وكان يجمع بينهم تصميم واحد هو ان تكون الثورة القادمة هى الثورة الحاسمة .

لن يتكرر ما حدث بعد الحرب العالميـــة الاولى من ثورة وانتكاسة وازمة ومساومة ، ثم انحلال وتدهور حتى التحطيم ، لن يتكرر ما حدث قبل هذا وكل مرة وطول تاريخ مصر المعاصر من ثورات لم تؤت ثمارها لم تبقها وعناء والاعداد للثورة الحرى لا بد ان تكون الفاصلة ؟

ومن كل هذه القوى « الحاسمة » الجديدة التصميم كان لا بد ان يخرج قائد يمثلها ويعبر عنها ، ولا بد أن يكون تجسيدا نموذجيا لارادتها واحلامها ..

وهذا لا بد ان يكون فلاحا مصريا « قحا » واصيلا من صميم مصر .

ولا بد ان يكون صارما صلبا صلابة صخور الجرانيت التى لاتكسر والتى خلقت استمرار مصر وبقاءها .

وكان لا بد ان يكون خلالا خصبا خصب ارض مصر وتربتها التى لا تنضب . وكان لا بد ان يكون اولا انسانا يحمل وعنف الالام وشقاء مصر .

الالام والاحزان من كل نوع ، والشقاء الذى يورث جيلا بعد جيل ولونا بعد قرن ، لا يبرح ولا ينتهى .

كان لا بد أن يكون فارسا مقاتلا حتى الموت ويسبق عرقل ليواجه كل الأعداء الذين لا ينامون والذين يتصيدون من كل ثقب وكل باب .

وكان لا بد أن يكون سياسيا محنكا يتفادى الضربات ويجتاز « المزالق » ويتخطى العواصف والأعاصير التي تهب من كل اتجاه .. ولا بد أن يصل لشاطىء النجاة .

كانت القيادة الثورية قيادة عسكرية سياسية فكرية روحية تستطيع أن تحارب ، وتستطيع أن تناور ، وتستطيع أن تفكر وتستطيع أن تعمل وأن تحقق ، وتستطيع أن تلهم مصر ، وتنفذ الى أعمق نقطة في روح مصر ، بإدراكها في كل هذا أيمان عظيم هو مصر .. ولذلك الثورة المصرية لا بد أن يكون أبناء عظماؤها لها ومعبرا عنها بروحه وبعظمته وبآلامه وبكل حكمة مصر المختزنة في نفسه ، ولكنه لا بد أن يحيى بنفس العمق روح العصر وأن يعرف كل حقائقه ، ولا بد أن يمتد بآفاقه بعيدا الى أقصى مدى الى العالم القريب أو البعيد المحيط بمصر ..

وقد فشلت ثورات مصر السابقة لسبب لم يتوفر ، أو لأكثر من هذه الأسباب ..

وقد كانت الثورة المصرية الأولى هي الثورة التي تلت جلاء الجيوش الفرنسية عن مصر بعد الحملة والاحتلال القصير الذي ، وهي قد بدأت بانتفاضة القاهرة الأولى ثم الثانية ثم الجلاء ثم الثورة .

« كانت القاهرة تشبه باريس خلال الأيام الأولى للثورة الفرنسية ، كما قال القنصل الفرنسي في ذلك الحين » .

وكان قائد تلك الثورة هو السيد عمر مكرم ، وكان حاكما « مثقفا » مثاليا محترما جليلا ، ولهذا لم يستطع أن يبقى حتى النهاية قائدها .

وتقول القاعدة ، « اذا كنت مثاليا يظهر ان تكون رومانسيا فسوف تكون خياليا ، واذا كنت واقعيا يظهر ان تكون مثاليا فسوف تكون انتهازيا » .

وكان « السيد » اقرب الى النموذج الاول ، ولهذا كان سهلا وطبيعيا ان يستولى على الثورة وعلى القيادة مقاتل سياسى واقعى طموح ، هو « محمد على » .

ولقد قدم « السيد » السلطة لهذا القائد باسم الشعب وكانت اول مرة فى الامبراطورية يختار شعب حاكمه ، ويفرضه بارادته ولا يرضى عنه بديلا .

وكان سهلا ايضا ان يخرج محمد على حلفاء النضال ، عمر مكرم ، ويتخلص منه وان يكون الشيخ الصديق على خاطره ، ويلزوى بلا مقاومة وليترك كل المكان فى تاريخ مصر -- للرجل الجديد .

ولو كان قد حدث وتولى « السيد » بنفسه السلطة او لو اختارت الثورة المصرية فى ذلك الحين فلاحا او جنديا او زعيما مصريا من زعماء المقاومة الثلاث القمة متكاتفة ، ربما لم يكن المصير ليختلف فلم تكن اوربا لتسمح بانتصار ثورة شعبية مصرية على اى حال ، ولكنه كان سيغدو اكثر اصالة .

ولم يكن محمد على مجرد مغامر يريد ان يستقل بولاية من ولايات الامبراطورية كما كان شائعا فى ذلك العصر ، ولكنه كان امتدادا للثورة المصرية ربما بطريقة اقل « راديكالية » واقل شعبية ، ولكن اكثر واقعية وعملية ..

ولقد وضع محمد على « هدف » الثورة الاساسية مملكة عربية اسلامية تبنى مجده الشخصى هو وعائلته بالطبع ، ولكنها تبنى ايضا مملكة مصرية عربية اسلامية تقدمية بكل المقاييس التاريخية فى ذلك الحين .

ولا شك – كما يرى بعض المؤرخين « التقدميين » – أن محمد علي يستحق في تاريخ مصر مكانة بطرس الأكبر في تاريخ روسيا الذي فتح نوافذ روسيا على مدنية الغرب الحديثة والذي يمجده المؤرخون « السوفييت » المعاصرون .

ولهذا استحق « محمد علي » إعجاب كارل ماركس وفريدريك انجلز أكبر المفكرين الثوريين في ذلك العصر ، وفي عصرنا أيضا .

وقد كانت ثورة « محمد علي » أسبق وأفضل بكثير من ثورة الميجي في اليابان ..

وبعد الغزو الأمريكي اليابان في منتصف القرن الماضي وإرغامها على فتح أبوابها للتجارة قرر الامبراطور الجديد أن يختار عددا من أبناء الارستقراطية اليابانية وأن يرسلهم الى كل مكان في الغرب ليعرفوا سر تفوقه وليعودوا به لليابان .

وذهب هؤلاء ونقلوا كل ما تعلموه من الغرب ، وبدأ بناء اليابان الحديثة .. ولكن لم تقم اليابان بمجرد معرفة السر ، وإنما بسبب آخر قد يكون الأهم ، وهو أن دول الغرب وأمريكا أرادت أن تقوم دولة عصرية قوية في الباسفيكي فتواجه وتوقف نفوذ روسيا القيصرية التي كانت تتوسع برا في الصين وبحرا في المحيط ، وكانت اليابان قوة تحمل منذ نشأتها بذور « الفاشية » الإمبريالية التي تفتحت بعد ذلك .

ومن مصر ذهب قبل ذلك بكثير أبنـــاء الارستقراطية والبورجوازية والشعب على السواء الى الغرب ليأتوا « بالسر » وجاءوا به ، وأقاموا دولة قومية عصرية تقدميـــة ، وليست ديموقراطية مستبدة . ولكن الدول الكبرى التي تسامحت في قيام اليابان لم تكن لتسمح بأن تقوم دولة مماثلة في مصر ، ملتقى كل الطرق والمنافذ الى مشروعات ومطامع الاستعمار الحديث ..

وقد نقمل محمد علي لأنه لم يكن مصريا صميما ، وظل أجنبيا حتى لقد قال ابراهيم ابنه : « لقد مصرتنا شمس مصر

وعبقريتها ، ، وعرف محمد على واقع مصر وواقع العصر وعبر تاريخ مصر ، ولكن بناءه ظل « بناء أوتقراطيا » .

وكان همه الأخير حينما انتهى كل شيء أن يبقى له ولأسرته من بعده « عرش مصر » وحكمها الوراثي ..

وقد فشـــل محمد على لأنه اعتمد على الأرستقراطية والبورجوازية الجديدة التي كونها خلال حكمه من المصريين وغير المصريين ، أكثر مما اعتمد على الشعب ، عامة الناس الذين اختاروه واليا عليهم .. ولم يطور المبادئ والنظم التي بدأها نابليون ، ولم يقل من « ديمقراطية » أوربا وفكرها السياسي مثلما نقل من علومها وفنونها وصناعاتها ..

ورغم « رؤيته » الدولية ورغم وعيه الدقيق بالواقع الخارجي وعلاقاته ورغم استغلاله لتناقضات هذا الواقع وصراعاته ، كأحسن ما يعمل حاكم لمصر ، فإن إدراكه لم يكن كاملا ، ورؤيته لم تكن شاملة ..

وهو قد وثق في فرنسا ثقة تكاد تكون كاملة ، ونصحته طالبة إليه أن يرغم ابنه إبراهيم أن يواصل الزحف حتى القسطنطينية وأن يملي شروطه على الدول بالقوة ، والتي تعجبها ساعته إعجابه وأمره بأن يعود .. وكانت بداية النهاية . وعلى أي حال لم يكن ممكنا أن ينجح (محمد على) أو أن ينتصر ، لأن الدول الكبرى التي كانت تسود العالم في عصر سيادة الرأسمالية والإمبريالية أرادت ألا يبقى ، وتكالبت للقضاء عليه في معركة غير متكافئة لم تكن تستطيعها مصر في ذلك العصر ..

كان عرابي مختلفا .. كان عرابي مصريا « قحــا » فلاحا محاربا سياسيا شعبيا يتمتع بالموهبة النادرة « الزعامة » وبإيمان عامة وغالبيتهم ..

لأول مرة أصبحت الأمة قائدا عن شعبها وأهلها يمارس الحرب والسياسة والتفكير ، ويبعث الروح ويستثير الحماسة في كل

النفوس « الباشا جناحا » كما سماه الجماهير .. ، وظل ينصره ، كما كانت الدعوة دائما له ..

ولأول مرة في الشرق اشتعلت ثورة وطنية تريد الخلاص من عبوديات الشرق والغرب معا ، من الاستبداد والاستعمار والاستغلال على السواء .

وكانت الثورة الفرنسية نموذج عرابي ، وقد قرأ عنها كتابا أهداه له « سعيد باشا » وكان عن حياة نابليون بونابرت من طبع بيروت .

ومنذ ذلك الوقت تغيرت حياته وأفكاره ، ولكن « عرابي » ربما استلهم « يسار » تلك الثورة ، كما استلهم « محمد علي » يمينها ..

ولكن عرابي فشل أيضا ..

ربما لأنه لم يكن علميا بما يكفي لإدراك حقائق مصر الأساسية وحقائق العصر ، مما لا بد منه لقائد ثورة مصر ..

وربما لأنه لم يكن صارما بما يكفي لزناد القوى التي تقف معه أو التي تقف ضده على السواء ، كانت البورجوازية الوطنية التي تتصدر الثورة طبقة ناشئة تقوم بأول محاولاتها الثورية والجهادية ، وكان الفلاحون الذين تعتمد عليهم الثورة كقاعدتها يدخلون المسرح السياسي المصري لأول مرة ، وكانت تبعة هؤلاء وقياداتهم المحصورة في ذلك العصر تتطلب صرامة في مواجهة الوحوش الكاسرة التي كانت متكالبة من الداخل والخارج ..

في مواجهة طبقة مالكة شركسية تركية تمرست بالحكم والتآمر عبر تراث طويل ، طبقة تردت بيع نفسها للمستعمرين لمنا تبقائها ، وفي مواجهة رأسمالية دولية واستعمار عالمي يملك كل القوى وكل الوسائل ، وهو يسود العالم ويتقاسمه ويحكم

لوه كما يريد .. في مواجهة هؤلاء كان عرابي يحتاج الى الصرامة والحسم تماما كما يحتاج اليهما في مواجهة أنصاره وحلفائه داخل الثورة . وعلى الأخص في مواجهة بالشاوات ومثقفين « ليبراليين » يؤمنون بالثورة باعتبارها معلوجا ومطلبا .. ويريد أكثرهم الاصلاحات في اطار النظام القائم .. لا ثورة تقلب وتغير كل شيء .. وربما لو كان لدى عرابي بعض صرامة « محمد علي » وبطشه ، لاستطاع ان يصفي الأعداء الداخليين قبل أن يستبعدوا بالأعداء الخارجيين ، ولاستطاع أن يحمي الأمة ويعبئها تعبئة حديدية ، ولاستطاع ان يتعلم معنى الحزب والجيش تنظيما للرأي والحكم ..

ولكن عرابي كان فلاحا مصريا « طيبا » .. كان يعيش مأساة مصر التي يغتصب اقتصادها في ذلك الحين .. ولكنه كان لا يدرك الى أي مدى يحتاج هذه الآلام لاقتلاع أسبابها ، الى وجه آخر صارم لا يتأثر في مواجهة أعدائه بلا مبادىء ولا مثل ولا الأسلحة !

وربما لم ينجح عرابي لأنه كان « محليا » ومحدودا يسيره في ادراكه لطبيعة المعصر وروحه الى في معرفته بحقائق وحقائق الواقع الدولي والخارجي .

ولم يكن يدرك كما يجب صراعات العصر ومتناقضاته مثلما كان يدركها ويعرفها ويسخرها [محمد علي] .

وهو لم يستغل الصراع بين بريطانيا وفرنسا الى أقصاه ويفيد من كل امكانياته ، ولم يستغل الصراع الآخر بين تركيا والدول وخاصة حول مصر ، ولم يدرك لغة الغرب الدبلوماسية الكلاسيكية الخالصة ، ولم يستطع استعمالها ، ولم تكن السياسة الخارجية ، الصراعية ديناميكية حيوية واقعية كما لا بد ان تكون سياسة « ثورة مصر » ..

وهو قد وثق أكثر من اللازم ببعض القادمين البريطانيين والأجانب الذين أشعلوا الثورة .. والذين رسموا له صورا لم تكن كاملة للعالم الخارجي لم صدق ديليسبس حينما أقسم بالا يغلق القناة ، لأن المواثيق الدولية تحرم على بريطانيا استخدامها في الغزو .. وكانت النهاية .

ونفى عرابي كان محترما على اى حال .. ولم يسمح الاستعمار الذى كان في ذلك الحين السيد المطلق في العالم بأن تقوم دولة مصرية قوية أيام (محمد على) وهو لم يكن ليسمح بأن تقوم دولة مصرية رقيبة وثورية يتزعمها فلاح مصرى لتصبح نموذجا للشعوب الشرق فى ذروة عصر الاستعمار ..

وكانت الثورة العرابية على اى حال اول محاولة واول تجربة وخطأ ، للثورة التي كان لا بد أن تحدث وتنجح بعد ذلك بسبعين عاما ..

وقام « مصطفى كامل » ليوقظ مصر وليعيد الثقة ، ويمسح الملل ، وليجمع شتات الشعب لجولة أخرى .

ومن حارة فى القاهرة خرج « البطل الرومانتيكى » يحمل نفيرا ، ويهيب بالناس بصوت عال بدوى أن يستيقظوا وأن يستأنفوا الكفاح ، لأنه « لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس » وأن مصر عظيمة وستظل عظيمة ، وأن مصر خسرت ثورة ، ولن تخسر تاريخها !

كان صوت « الجيل الجديد » الذى انهزم آباؤه والذى قام ليرفض الهزيمة وليحمل مسئولية الخلاص .

وادرك مصطفى كامل بروح العصر أن الكفاح لا بد أن يعتمد على حزب وطني يكون أنشأ .. وأحكم تنظيما من الحزب الوطنى السابق ، العرابي ، وأن يجمع الأمة ، ويكون قادتها وطليعتها ، فألف الحزب وأصدر الجرائد التى تعبر عنه .

وقد ابتكر البريطانيون ضد هذا الحزب اللعبة السياسية التي عليها منذ ذلك الحين وهي « لعبة الأحزاب » . وضد الحزب الوطني تألف حزب الأمة ، ثم حزب الإصلاح ، ثم سلسلة اخرى من الاحزاب من كل نوع ومن كل الاتجاه .. واضرموا الصراع بينها : فكان حزب ضد حزب ، وزعيم ضد زعيم ، لتستهلك طاقات المصريين ، ولتمسك بريطانيا كل الخيوط بيدها !

وكانت اللعبة أكثر دهاء من قدرة مصطفى كامل .

وكان مصطفى كامل يدرك أهمية الكفاح الخارجي واستغلال متناقضات وصراعات العصر ، ولكنه « برومانتيكية » لم يكن يدرك تماما طبيعة وحقائق ذلك الواقع الخارجي .. كان لا بد أن يستخدم الصراع التقليدي بين تركيا وبريطانيا ، ولكن تركيا كانت له فيما يبدو الخلافة والدولة العلية « الشرعية » وليست السلطنة المريضة الآكلة والتي توشك أن تنهار ، والقوة التي سمحت بعملية احتلالها بمركز بريطانيا الخاص في مصر ، والتي كانت على أي حال أعجز من أن تستطيع شيئا .

وكان لا بد أن يستخدم الصراع بين بريطانيا وفرنسا ، ولكن فرنسا في خياله كانت فرنسا « الثورة » وجولييت آدم وصالونات المثقفين والسياسيين الأحرار في باريس ، ولم تكن الدولة الرأسمالية الاستعمارية التي لا تقل سوءا عن بريطانيا والتي ما لبثت أن خانته خذلانا أشد بمقايضة مصر لبريطانيا مقابل بلد عربي آخر هو مراكش ، وكان الاستعمار القديم ، الفرنسي والبريطاني ، يسوي خلافاته وصراعاته لمواجهة الاستعمار الجديد الألماني في ذلك الحين ..

وقد يكون كثيرا أن يؤخذ على مصطفى كامل أنه لم يكن واقعيا كما ينبغي ، قويا كما ينبغي ، ولم يكن حزبا « حديديا » ليسيطر على الحياة السياسية ، وليبطل قيام الأحزاب التي

قامت في كنف الاحتلال ورعايته ، وبعد منذ البداية اللعبة التي اضاعت الكثير من كفاح مصر ونضالها وهي لعبة الأحزاب ..

وقد يكون كثيرا ما يؤخذ على مصطفى كامل انه لم يكن اكثر واقعية في الخارج ، ولم يستغل كل متناقضات العصر ومراعاته على اسس من حقائق العصر وطبيعته .

لم يستغل التناقضات الاستعمارية بين الاستعمار البريطاني والفرنسي وبينهما وبين الاستعمار الالماني ، وبين هؤلاء جميعا والامبراطورية المريضة المتداعية ..

وذلك لأنه في النهاية استخلص اهم الدروس - وهو أن كفاح مصر لا بد أن يعتمد أساسا على شعب مصر وجماهير مصر ..

ومضى مصطفى كامل مبكرا جدا .. كومضة برق بددت الظلام ، وأضاءت الروح واختفت ..

وتسلم القيادة بعده محمد فريد ..

وكان محمد فريد ارستقراطيا مثاليا وهبا كل النضال ..

وكانت صراعات الداخل ومتناقضاته تتجدد ، والقوى التي استيقظت كان نموها يطرد ..

دخلت الجماهير : الأفندية والعمال والفلاحون مرة أخرى ، وبخطا حثيثة – الى المعركة ، وبدأت ارهاصات الانتفاضة القادمة تلوح ..

انطلق الرصاص ضد « الخونة » ، وسارت أولى المظاهرات الشعبية الكبيرة ، وساور الخوف والقلق ساسة الاحتلال ، ورأوا « عرابي » مرة أخرى ، وبدأوا سياسة بطش جديدة لإخماد « مارد » بدأ يصحو ويتقلب .. !

وكانت الثورة القادمة في حاجة الى قيادة شعبية مناضلة تتمرس بالكفاح بين « الجماهير » ، وتعدها للمرحلة الجديدة للميدان الجديد في الشارع .

وانتهاجا للسياسة التي حكم على محمد فريد بالسجن ، وفضل ان يغادر مصر ، وأن يتحدى الاحتلال بعدم التنفيذ ، وخرج ومن يومها فقد الصلة المباشرة بالواقع المصري وبالقوى التي اطلق نموها وكأنها نبت بعيدا عنه ، وكانت بعيدا عنها مهما يكن من أجلها .

وقد عرف محمد فريد العالم الخارجي كما لم يعرفه زعيم مصري ، وادرك القوى الحقيقية المتعادية ، وكيف يمكن دفع من يجب التعامل او التعاون . ولكن لا تعادل هذه المعرفة بتطور وجهها الآخر وهو معرفة واقع مصر ونبض مصر وقوى مصر الجديدة والانتماء فيها ، وربما لو بقى محمد فريد فى مصر وسجن وخرج ثم سجن .. ولو تقدم المظاهرات ونظمها وجال بين الطلبة والعمال والفلاحين لكان زعيم الثورة .. ولكنه بقى بعيدا ..

وكان طبيعيا حينما انهمر الطوفان بعد ان تحدث الثورة عن غير أمر وان تجده كاسحة من سعد زغلول .. زعيما للشعب والشارع ، ولى العهد لن أكون زعيم الرعاع .. ، الاسم الذى خلقه الاحتلال وانصاره على جماهير الشعب ، وهى التى يراد لتصبح من يومها القوة السياسية الأولى والحاسمة فى تاريخ مصر وحققت ، لسعيدها ، الكبير فى ثورة ١٩١٩ ..

وكان سعد زغلول ابنا للثورة العرابية ومتحمسا لها .. كان الفلاح الجبار العظيم الذى أنجبته مصر والذى انتقته الارادة ، الجماعية ، لجماهير مصر ليقود ثورتها ، ولكن سعد زغلول ، مع هذا كان ، معتدلا ، .. لقد تغير العالم بعد الحرب العالمية الأولى تغيرات جذرية وجوهرية ولم يدرك كل مغزاها ؟ ولم يفد منها كل الفائدة الممكنة ، وقد استطاعت الامبريالية البريطانية

والامبريالية عامة ان تتغلب بعد بعض الوقت على خصومها ، ولن تثبت مواقعها ، ولن تواجه الثورات والحركات الوطنية التى انتشرت في المستعمرات ، وخاصة في مصر والهند والصين وهي المواقع الرئيسية ..

وكان لا بد ان ينحسر المد الوطني « لم ينهزم ولكنه انحسر » .

وفى مصر مارست الامبريالية البريطانية بدهاء وبراعة اكثر « لعبة الاحزاب » ، وزرع الشقاق في الحركة الوطنية ..

ومع ان سعد زغلول استطاع أن يجعل من الوفد « الأمة » ، وان يجعل من الاحزاب الاخرى احزابا باهتة متشرذمة ولن يعرضها هزائم ساحقة في المعارك السياسية ، الا انها استهلكت الكثير من كفاح مصر وانشغلت به .

ولم يعش سعد طويلا ومات بعد ثماني سنوات من توليه الزعامة ، ذهب « السلاق » وترك الثورة في انحسار والقيادة بلا « عبقري » ودرع عظيم آخر يخلفه .

وخلفه « مصطفى النحاس » .

وقاد الحركة الوطنية ربع قرن كامل لتطلته فترة كالحة طويلة مملة هي فترة « بين الحربين » وكان عليه خلالها أن يحفظ ما يمكن ان يحفظه من وحدة الأمة ووحدة الحركة الوطنية حتى لا تتمزق تماما .

وكان عليه أن يحارب بها ضد السراى والاحتلال والاحزاب القديمة والجديدة وضد الاستدراج والاستسلام على مائدة المفاوضة والمساومة ، والانطواء في الفلك البريطاني ، وكانت معركة سياسية مريرة .. كان لدى النحاس من الصلابة والعناد ما يؤهله لها وما مكنه ان ينجح .. ولم تسقط الحركة الوطنية ولم تنهزم وظلت قائمة وسائدة .. واختتم حياته السياسية

وكفاحه بالبناء للقاعدة وبالفدائية للشعب ان الكفاح المسلح هو طريق التحرير الوحيد ..

ولكن النحاس كان محليا ومحدودا ودستوريا ، وتجاوزته قوى الثورة في مصر ، كما تجاوزته طبيعة العصر ..

كان لا بد من قائد جديد ، وكان هناك في ثورة مصر ، دوي هائل يبحث عن بطل ! ..

لا بد من البطل الجديد ليقود الثورة الوطنية والاجتماعية المصرية ، وليحققها كاملة في عصر جديد مختلف :

في عصر الثورة العالمية ..

وفي عصر الثورة الآسيوية الافريقية وانتصار الاشتراكية ..

وفي عصر الثورة التكنولوجية والآلات المفكرة .

وفي عصر نهاية الامبريالية الاوروبية وبداية الامبريالية الامريكية وعصر الحرب الباردة والاسلحة الذرية .

ولكن على ان يكون ايضا استمرارا لتاريخ مصر ولرائدها ، ولكفاحها الماضي ويغير عيوبه ونقائصه ..

وكان لا بد للعصر الذي لا نعلم ابدا ان تتجه .

وخرج وادي الرسالة .

التحدي والتغيير

لم يكن ممكنا للثورة الجديدة التي تكون ثورة أن تدور في إطار النظام القائم .. كان لا بد أن تحسم المشكلة الوطنية ، وأن تواجه المشكلة الاجتماعية ، وأن تطرد الاستعمار ، وأن تغير الكيان الاجتماعي الظالم ، وهما مشكلتان مترابطتان متلاصقتان ، وتعتمد كل منهما على الأخرى .. لطرد الاستعمار لا بد من سحب الأرض من تحت أقدامه ، والقضاء على الطبقات والفئات التي يعتمد وجوده عليها .. ولتغيير أسس المجتمع لا بد من التخلص من السند الأول للمجتمع القائم وهو الاحتلال ... لهذا كان لا بد أن تبدأ الثورة بقانون للإصلاح الزراعي . والمشكلة الأولى التي تنبع منها وتعتمد عليها كل المشاكل ، هي الأرض . وأول قانون للتحرير والتغيير هو قانون الإصلاح الزراعي ..

كان القانون ضرورة وطنية بقدر ما هو ضرورة اجتماعية ، فالفلاحون هم الغالبية العظمى والغالبية المستغلة المستعبدة ، ولكي يمكن كسبهم للثورة ولكي تعتمد عليهم ، لا بد أن تطلق قواهم وإمكانياتهم ، وأن تحررهم وتمنحهم الثقة والأمل ..

وكان الإقطاعيون هم الركيزة الأولى للاستعمار ، هم الذين يملكون ويتحكمون عن طريقهم ، هم وسيلة التحكم والاستغلال ، هم

فالذين يسيرون الدولة ، ويديرون مزرعة القطن ، وهم أساس التبعية السياسية ، وأساس التخلف الاقتصادي والاجتماعي فالثورة المصرية لا بد أن تبدأ بتصفية الإقطاع حتى تكسب معركة حاسمة .

وكان عميد الطبقة وهو الملك قد سقط ، وكان لا بد أن تسقط معه وتتبعه الطبقة ، وأن تتم تصفيتها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ..

وقد كان القانون « ثوريا » كان أول تغيير وانقلاب في الكيان الطبقي الكبير في « مصر » الاستقلال .. لأول مرة في تاريخ مصر كله يسقط الإقطاع لصالح الشعب .

وقد كان القانون « انسانيا » واستمرارا لسياسة « الثورة البيضاء » وأنها تمت بلا دم ويجب أن تستمر هكذا ، وقد ترك للإقطاعيين وأبنائهم ثلاثمائة فدان ، وهي توفر أفضل مستوى الحياة .

وقد ترك القانون لهم الفرصة ليلائموا حياتهم إذا ما أرادوا الاندماج في المجتمع الجديد ، والانتقال من ملاك غائبين أو غير مكترثين لا يعرفون عن أرضهم شيئا إلى زارعين عصريين ومنتجين وأعضاء عاملين في المجتمع ..

وشجعهم القانون على أن يتحولوا إلى ميادين استثمار أخرى .. تحتاج إليها البلاد أشد الحاجة . وقد قرر القانون التعويض مقابل الأرض التي يستولى عليها ، وكان هذا مما يدفع ويشجع على التحول إلى الصناعة ..

ولقد كان القانون رحيما ، وكان سيكون هذا مما يشجع وترك للإقطاعيين والملاك الكبار « الوطنيين » الفرصة ، إذا ما تغلبت وطنيتهم على طبقيتهم أن يظلوا في الحلف الوطني ، وأن يشاركوا في المعركة القادمة الحاسمة ضد الاستعمار ، وإذا كان لا مناص من تصفية الإقطاع الوالي والإقطاع الأجنبي ، فلا بد

ابتداء من احتواء الاندفاع الوطني والاحتفاظ به داخل الحلف المقاوم للاستعمار ، وهو المستقلون الوفد والأغلبية واستثمار حماستها ، وكانت حماسته من نوع جديد ، من الأعماق — ولكنه استخدم « الذين يملكون » ودفعهم للمقاومة ..

وواجهت الثورة وفوجئت بالمقاومة من قوى وجهات لم تتوقعها ، وواجهت الثورة بالمقاومة داخل الحكومة التي اختارتها الثورة نفسها ..

وكانت الثورة منذ البداية لم ترث الا الحكم مباشرة ، وان تظل الثورة خارج السلطة ، وان تحرس الحكم وتراقبه ..

ورأت الثورة أن تقوم حكومة مدنية اختارت لها احد رجال العهد القديم من الاقوياء الذين لا ينتمون الى حزب ما ، وذلك لتمهيد الطريق لحكم وطني ديمقراطي وحقيقي ، كان لا بد أن ينتهي الى حزب الأغلبية ، ولكن فوجئت الوزارة القائمة مشروع الاصلاح الزراعي وبالطرق والأساليب السياسية القديمة بما فيها ورجالها وتكتيل القوى مختلف القوى ، واعتماد الحجج ضد القانون ، بنفس الحجج القديمة « بعدم » دستورية وعدم « شرعية القانون » ، وبالضجة الضرائب التصاعدية . وبدا واضحا أن الرجل القوي الذي اختارته الثورة والذي عاش معظم حياته السياسية قوة معطلة تبحث عن سند يريد أن يجعل من الثورة اخيرا قوله ، والتنفيذ سياساته لا أن يعمل لها والثورة محدودة !

وكانت المفاجأة الثانية هي معارضة حزب الأغلبية المشروع ..

رفض الحزب الذي تألف تلقائيا في خضم الثورة من الجماهير وتعبيرا عن ارادتها وثورتها ، الحزب الذي كانت قاعدته الاولى والعظمى هي الفلاحين .. رفض قانون الاصلاح الزراعي ، وكان اعتماد الوفد في كل كفاحه ونموه السياسي في مظاهراته وانتخاباته ومعاركه ضد الاحتلال وضد السراي يبدأ من الفلاحين ويعتمد عليهم ...

وبهذا الرفض قضى الوفد على الفرصة الأخيرة التي بقيت له . وانتهت حياته بالثورة على بطل استمرار تاريخ مصر وكفاحها .

وفي الامتحان الحاسم بين الصالح الوطني والصالح الطبقي سقط الوفد ، وكانت سقطته النهائية ، واصبح حتما لا بد ان ينتهي من تاريخ مصر ، فقد اصبح « غير ذي موضوع » .

كانت القوى الاقطاعية هي المتحكمة ، وكان سكرتير الوفد « اقطاعيا » كبيرا وهو الذي قاد الحملة لرفض القانون ، واسرع وتمسك بخطة الرفض ..

ولم يستطع اليسار داخل الحزب أن يقوم بالمحاولة الجريئة والاخيرة للاستيلاء على الحزب ، وانتصار قياداته المنظمة ، وتصحيح مواقفه ! وكان ذلك اليسار أضعف من أن يقوم بهذا الانقلاب ، بل كانت تنقصه وحدة الفكر والهدف ، التي تمنح القدرة على الحركة الفعالة ، كان حلقات تفرقت وتباعدت فيما بينها ، لم تغرق معظمها مع الحزب الذي سقط !

وكان انقطاع الوفد هو الانقطاع الوطني ، ولكن في المعركة الاجتماعية وإزاء الفلاحين فقد وقف كل « الاقطاعيين » لم يكن هناك خلاف حول تقديس الاستقلال الذي يختفي وراءه حق الملكية الاقطاعية ..

وكان على الثورة أن تستخلص كل الدروس وكل العظة ، وهي قد رسبت عميقة وعبرت منعرجها وكل غلطها ، أن الثورة لا تستطيع تحقيق أهدافها « الثورية » على يد أحد غير الذين قاموا بالثورة ، أن القديم كله قد استهلك ، ويجب أن يذهب كله ، وأن تاريخا جديدا ورجالا جددا وطرق حكم جديدة لا بد أن تبدأ وتسري ، لا بد أن تحكم الثورة مباشرة ، وأن تتولى السلطة ، لتحقق الثورة ..

لم يشأ حزب الاغلبية وكان الامل الباقي معلقا عليه أن يجدد نفسه ويظهر ويعيش صفحة جديدة ونظيفة من حياته ، ولكنه اراد ان يستولي على الثورة ، وان تصبح احد اجهزته وفي اطار النظام العام القائم وكتب الملك والبورجوازيون الوطنيون التقليديون من حاشية ، هذه الوطنية ، وحدودها التي اصبحت بمقاييس العصر هزيلة ..

ولم تختلف القوى والتنظيمات السياسية الأخرى كثيرا في موقفها من الثورة ، ولم تكن اكثر نضجا او وعيا ، لم تستطع اي واحدة منها ان تتخذ مواقف موضوعية إيجابية من الفترة التي تمخضت عنها ثورة مصر . لان الطابع السائد هو القلق والتشكك ان لم يكن الحقد على قوة حققت الثورة التي لم يحققها احد منهم .

وكان موقف الاخوان المسلمين نموذجيا وهم قد رفضوا قانون الاصلاح الزراعي كما رفضه الوفد والحكومة ، واشتركوا في مناورات مقاومته ، وقدموا كل الحجج والمعاذير الاسلامية لابطاله وبدا جليا بتحقيق هدفهم الحقيقي وهو الاستيلاء على الثورة لتتبعهم وتصبح طرفا من جهازهم الخاص .. لا بد من اقامة حكم اسلامي ، لم يستطيعوا قط ان يوضحوا او يفصلوا معانيه او برامجه ..

وكان الاخوان قد تميزوا بالتعثر والتخبط في كل المراحل وخلال كل المعارك ، وهم لم يستطيعوا في اي فترة وطوال تاريخهم ان يقدموا خطة عمل ، ولم يقدموا ولم يكن لهم اي برنامج اسلامي متكامل ومتناسق لمواجهة المشاكل الوطنية والاجتماعية .

كان كفاحهم فلجوا وفي اكثر الاحيان صاخبا وارهابيا وليس حقيقيا ولا ثوريا ، وقد انتهى الاخوان الى ان يصبحوا جماعة رافدة للكتلة الاسلامية ، وبعد اشتعال الحرب الباردة بين الكتلتين اصبح رأي جماعة الكتلة الاسلامية هذه ان هذا في عصر مكافحة

الاستعمار أو الاستقلال أو عصر تحرير المسلمين من الاستعباد والاستبداد وهي الابعاد الحقيقية والتاريخية للمسلمين ! ولكن هذا عصر مكافحة الالحاد وعصر اتحاد المسلمين حول هذا الهدف بل اتحاد « أهل الكتاب » جميعا فيما بينهم من اجله والسوى والمتى « أهل الكتاب » في الولايات المتحدة الامريكية .

وكان ظهور قيادة ثورية جديدة وقيادة تتولى السلطة وتريد التغيير مما لا يترك دورا « للاخـوان » ومما يبطل مشروعات الذين كانوا يوجهونهم ويشرفونهم ..

ولهذا كان لا بد ان يبدأ الصدام بين تنظيم مفلس مرعب وثورة حقيقية !

وكانت التنظيمات الماركسية كثيرة ومتباينة ، وتقدم كل منها تحليلا وتشخيصا مختلفا للثورة ..

ورأى بعض منها في البداية انه يجب تأييد الثورة الجديدة وضرورة السير معها ، وكان في قيادة الثورة وفي أعلى مراكز « ماركسيون » يمثلون دورهم في الكشف الثوري ..

وكان الخط « الصيني » الثابت هو تأييد الثورات الوطنية المعادية للاستعمار حتى لو كانت قيادتها « بورجوازية » .. وهذه ثورة وطنية وتقدمية ذات محتوى اجتماعي وذات قيادة ليست « بورجوازية » تقليدية ولا مانع بالمنطق الماركسي من تأييدها .

ولكن هذا التأييد لم يستمر طويلا ، اذ لم يستطع التنظيم أن يخلق صيغة ملائمة ومبتكرة للعمل المشترك والتعايش مع الثورة وتقوم على حقيقة ميزان القوى ..

ولم يلبثوا أن استدرجوا الى مزايدات ومناورات التنظيمات الاخرى ، وكانت هذه التنظيمات المتنافسة في تفكيرها أكثر يسارية من اليسار ، وكانت انعكاسا وامتدادا لفكر « الحرب الباردة » والحرب الايديولوجية ، وهي التي ترى أن كل من لا

يفكر مثلنا فهو صديقنا ، وكل من ليس معنا أو بجيبنا فهو عدونا .

وكانت هذه التنظيمات قد اخترعت تعبيرات كثيرة مختلفة لكل تاريخ مصر ومشاكل مصر . ومنه « خطوطنا » و « مناهج » عمل وتشبثت بها .

ورأت هذه التنظيمات أن الثورة الجديدة ليست ثورة بأى حال ، وانما ليست سوى مؤامرة « أنجلو امريكية » وانقلابا عسكريا لاجهاض الثورة الحقيقية ، وهى الثورة التى كانوا على وشك القيام بها والتى كان الشعب المصرى كله يجمع ليسير وراء قيادتهم ..

وقد بدأت هذه الفرقة والقطيعة منذ قيام لجنة الطلبة والعمال عام ١٩٤٦ ، وهى لجنة قامت بدور هام ، ولكنها لم تلبث أن تفتتت وتشتتت بعد ذلك بأشهر قليلة ..

وقد رأى هؤلاء الجناح من الماركسيين فى قانون الاصلاح الزراعى تطبيقا للبرامج الأمريكية ، وهى برامج ترمى الى القضاء على الاقطاع الزراعى كالاستعمار القديم لقيام رأسمالية زراعية فى الريف تكون الحليفة بالاستعمار الجديد .. ولم يروا فيه أية خطوة نحو تحرير الوطن او تحرير الأرض والفلاح ..

وإحباطا لهذه المؤامرة الأمريكية الشاملة — والتى تستهدف الشرق الاوسط كله — عملت هذه التنظيمات بالسعى لتعبئة « البروليتاريا » لاسقاط الديكتاتورية العسكرية والفاشستية الجديدة (فى نظرهم) مما ساهم فى احداث كثير التوتر .. « الازمة » والى صدام دام بين العمال وقوات الأمن أو القوات المسلحة هناك ..

ولم يبق أمام الثورة الا أن تتولى السلطة وأن تمارسها بحزم فى مواجهة اقصى اليمين واقصى اليسار اللذين اتفقا معا ضد « الديكتاتورية العسكرية » ..

وأوقفت الثورة الأحزاب ، وأسقطت كل القيادات والتنظيمات القائمة ..

وربما كان الخير فيما فعلت الثورة ، إذ كانت كل الأحزاب قد استهلكت بعجزها وضيق أفقها وتفكيرها قبل الثورة أو بعدها وكان الوقت يحتاج إلى فكر جديد خلاق ، وإلى تنظيم يستوعب ويسع كل القوى الجديدة ..

وفي الثورة العرابية تحالف الضباط الراديكاليون والباشوات والسادة « الليبراليون » وكان هذا من أهم أسباب تعثر الثورة وفشلها . والآن انتصرت الثورة وصفت كل القديم ، وأصبح لها حرية ومطلق الحركة السياسية ، ولكن يبقى السؤال :

ألم يكن الأفضل للثورة أن تفرق بدقة بين القيادات المطروحة والمتعفنة والانتهازية وبين القواعد البسيطة والرتيبة لهذه الأحزاب وما يتبعها من قيادات صغيرة ومتوسطة ؟ أو لم يكن الأفضل أن تصفي الثورة القيادات والبرامج والأفكار المتخلفة ، وأن تسيطر على القواعد وخاصة قواعد حزب الأغلبية ، وأن تجمعها وتوحدها ، وتكون منها الحزب والتنظيم السياسي الجديد ؟

لقد كانت الغالبية العظمى للقواعد سواء في حزب الأغلبية أو الإخوان أو التنظيمات الماركسية قواعد وطنية من العمال والفلاحين والمثقفين يبحثون عن طريق خلاص الوطن والمجتمع ، ويحلمون بحياة أفضل لهم ولشعبهم .

وكان إلغاء الأحزاب إلغاء عاما ضربة لهذه القوى ، وجمدت الكثير منها وحركته وأبعدته ، أو ألقت في روعه أن عليه أن يبتعد .

وقد كان التراث الحزبي والسياسي في مصر ضعيفا ، وحركة الجماهير السياسية ذات تراث بدأ منذ الثورة العرابية ..

ولم تفرق الثورة بين فساد الحزبية في مصر وضرورة الغاء الاحزاب القائمة فيها وبين ضرورات وفوائد النظام الحزبي عامة ..

وحينما قام تنظيم الثورة الجديد وهو « هيئة التحرير » بدا كأنه قام في وجه تلك الاحزاب وليس لممارسة السياسة الايجابية في اجتذاب قواعدها وقياداتها الصغيرة ، وتلافي اخطائها وخلق البديل الافضل ، ولهذا ظل محدود الاثر .

ومن هذه النقطة الاولى تآلفت اخطاء كثيرة وتفاقمت ..

كان اول الاخطاء اكبر الاخطاء !

على ان اهم النتائج لتولي الثورة السلطة واصطدامها مع الاحزاب والتنظيمات .. كانت السياسة التي طبقتها واستمرت عليها بعد ذلك دائما والتي لم يكن لها من طريق غيرها وهي الاتجاه مباشرة الى الجماهير والاتصال رأسا بالشعب عن غير طريق احزاب او تنظيمات والاحتكام الى العمال والفلاحين والمثقفين ومن بقي وطنيا من « البورجوازيين » ، لقد اقام هؤلاء جميعا السياج الذي حمى الثورة مباشرة ودائما ، ولم تقبل الاحزاب والتنظيمات القديمة ولا تتنازل الطبقات الحاكمة والاحزاب الممثلة لها وتسلم ، بل تشبثت واستماتت حتى النفس الاخير . .

ولا تختلف عنها التنظيمات او الاحزاب التي تعتقد انها بحكم قوانين التاريخ هي القيادة المختارة ولا قيادة سواها ، وان قيادة غيرها لا بد أن تكون غير حقيقية ومفتعلة وغير جديرة ..

وتجمعت كل هذه القوى وقام حلف كان يقوم لاول مرة بين اطراف مختلفة اشد الاختلاف ، وهي اطراف حارب بعضها بعضا طويلا ، ولم يسبق أن اتفقت أو تحالفت من قبل أو من اجل المعركة ضد الاستعمار ، ولكنها تحالفت اليوم في مواجهة الثورة ..

واستطاع الحلف « غير المقدس » يومئذ أن يستخرج الكثير من الوطنيين وأن يلقي غشاوة على أعين كثيرين تحت شعارات الحرية والديمقراطية التي افرغت بها الحياة السياسية يومئذ .

ومد الحلف الى صفوف الثورة وخلق انشقاقا داخلها .. وكان « الضباط الأحرار » قد وضعوا على رأس الثورة قيادة شكلية اختاروها لتكون واجهة لورائهم ، وربما لتكون جسر استمرار واتصال ، ولكن تلك الواجهة القيادية كانت بتكوينها وبطبيعتها تنتمي الى النظام « القديم » ، ولا تستطيع أن ترى تفاعل الناس والأحداث ولا تؤمن بقدرة الثورة على المضي وحملها خطوات أبعد ، كان لها تاريخها العسكري ، ولكن لم يكن عندها الوعي او الأفق السياسي ورأت أنه من الأفضل أن تمضي الثورة تبطئة ولهذا عارضت الاصلاح الزراعي ، وأرادت التصالح مع الأحزاب والسياسيين القدامى بأي ثمن ، بل رأت ان مكان مصر الطبيعي هو هو ويجب أن يظل مع الغرب .

واستخرج الحلف أيضا بعض العناصر الطيبة من الضباط الثوريين ومن المثقفين ممن لم يكونوا شهودون الثورة بعين ديمقراطية ولكن لم يكونوا يومئذ يفرقون بين الديمقراطية كواجهة والديمقراطية الحقيقية والديمقراطية في ظل أحزاب تستخدمها للوصول للحكم والديمقراطية في اطار ثورة تغير وتحرر حياة الشعب ..

واشرع الحلف الأزمة في مارس سنة ٥٤ ، وبدا للحظات أن كل شيء قد انهار ، وأن القوى المتخلفة والمتطرفة والعميلة توشك أن تنتصر وأن عقارب الساعة توشك أن تعود للوراء ، ولكن هبت الجماهير واندفعت على الفور للثورة ، وأعلن الاضراب العام واستنفرت الطبقة العاملة الثائرة كلها ..

تحركت الجماهير وطليعتها وهي العمال — وتأكد يومها الالتصاق التام بين الشعب والثورة والذي امتد حتى يومي هـ

و ١٠ يونيو واسقط الشعب المعركة البائسة ، ولكنها كانت معركة عصيبة وحافلة بكل الشائعات ، وارتفعت فيها كل الشعارات واحتاجت الى كل العزم ، كما احتاجت الى كل الحكمة والى خبالة البترول ولكن بغير جرح لجسم الامة او وحدتها ..

وقد قادها الرجل الذى كان يستطيع قيادتها ، وكان قائد الثورة الحقيقى والذى عرفته الجماهير والتقيا من يومها لأول مرة ، ومن مارس سنة ١٩٥٤ بدأت مرحلة جديدة .. والثورة برجعها وقياداتها الحقيقية انتصرت ، وسقطت آخر محاولة للنظام القديم .. وبدا عهد جديد تماما بدات الثورة به .

استعمار يذهب واستعمار يجيء

كان انتصار الثورة في مارس ١٩٥٤ وتأييد جماهير الشعب والعمال اساسيا ـ نقطة تحول استطاع الاحتلال كل مخرجاتها ..

وكان البريطانيون واسعي الأمل في قدرة الاخوان ، و « كان المرشد العام (حسن الهضيبي) حريصا على علاقات الصداقة معنا » كما قال (انطوني ايدن) في مذكراته ، ولكن ليته عجزهم .

فتلك محاولة لتعبئة القوى القديمة ضد الثورة ، وتلك محاولة خلق الشقاق في الثورة نفسها على الطريقة البريطانية التقليدية مع الاحزاب ؛ وقسمت الثورة الى معتدلين بزعيمهم القائد الشكلي الذي انهالت عليه صيحات الاعجاب والوصاف وتعرت الحكمة والاعتدال في دوائر الغرب ، والى متطرفين بزعامة القائد الحقيقي للثورة الذي بدأ العالم يالتوجس من القسمة الى راديكاليين ، وليبراليين ، داخل الثورة نفسها ..

وادرك الاستعمار ان هناك ثورة واحدة بقوتها واحدة يحقق سمة الجيش والشعب . وبهذه الثورة تستطيع مصر شن معركة فاصلة ضد الاحتلال ، وهي لن تكون معركة متعثرة لتوقعها كالتي

طويلة ، مهما كانت وسائلها الا انها غير متكافئة ، ولكنها حرب تحرير حقيقية يشترك فيها الجيش كله والشعب كله ، ويرتدى فيها القائد « جلبابه » ليقود الجماهير والجنود معا ، حتى آخر نفس وحتى التحرير .

كان النظام الجديد فى مصر يستطيع « جعل وجود القوات البريطانية مستحيلا ، بل ويمكن أن يقتلها من المطش قبل القتال اذا اراد » ، وذلك كما جاء فى تقرير بريطانى بعثت به القيادة من جامعة القناة .

وكان ايدن وزير الخارجية متشددا منتبها منذ البداية ، وكان مصرا على الوجود العسكري البريطانى وشروط بريطانيا : ثورة او لا ثورة لا بد ان تظل بريطانيا ، ولن تكون الدولة الاولى فى كل المنطقة ، ولكنه ما لبث ان اقتنع بتقهقر الظروف والاحوال وضرورة التنازل والاذعان .

كان ايدن يمثل المحافظين المتشبثين بالامبراطورية ، وبدور بريطانيا فى كل مناطق نفوذ او مستعمرات بريطانيا وخاصة فى الشرق الاوسط الذى اصبحت اهميته الاقتصادية والاستراتيجية اشد حيوية واكثر ضرورة لبريطانيا منها فى اى عهد مضى .

واذا كانت مصر فى رأيه هى مفتاح البقاء والوجود فى الشرق الاوسط فلا بد ان تظل بريطانيا الدولة الغربية الاولى فيها ، وان يظل وجودها هو الوجود الرئيسى .

وكان الدبلوماسيون الامريكيون فى عهد ترومان والسفير يتسامحون قليلا فى هذا الصدد ، كانت حاجة الولايات المتحدة الى دعم الحلف الاوربى وكانت خبرة الامريكيين فى السياسة الدولية محدودة ، وكانوا فى حاجة الى تراث بريطانيا .. ودهائها .. وخبرة اجهزتها وعملائها ..

وعند قيام الثورة المصرية مباشرة أكد ايزنهاور للبريطانيين وطمأن ايدن ان امريكا لن تعقد اى اتفاق مع الثورة المصرية ،

ولن تقدم اية معونة الا بعد تسليم المصريين بحقوق بريطانيا واتفاقهم اتفاقا ترضى عنه .

ولم يكن هذا ليمنع ايدن من الشكوى الغاضبة من الدبلوماسية الامريكية في القاهرة ومن تصرفات الدبلوماسيين الامريكيين في القاهرة وخاصة السفير « جيفرسون كافري » وتصاعدت الشكوى حتى انه طلب نقله من منصبه .

وكان « جيفرسون كافرى » يعد لنشاطه في تدبير انقلاب عسكري « امريكي » في القاهرة بسعي جاهدا للنفوذ الى صفوف الثورة والايهام بان كل ما حدث كان بعلمه ان لم يكن بتدبيره وتوجيهه ..

وكان بعض رجاله لا يخفون بمهاجمة السياسة البريطانية وتملق المطالب الوطنية المصرية ، بل وصل الحد « الى الهجوم » الوجود البريطاني في مصر بانه استعمار » كما قال السفير البريطاني في القاهرة في رسالة شكوى الى ايدن احتفظ كثيرا .. !

ولكن جاء الجمهوريون الى الحكم سنة ١٩٥٢ وجاء في وزارة الخارجية الأمريكية جون فوستر دالاس ، وكان ايدن يعرفه جيدا حتى انه نصح ايزنهاور بصراحة بالا يختاره وزيرا للخارجية . كان دالاس لا يثق أبدا بالبريطانيين ويمقت ايدن بشكل خاص بسبب تشبثه بالامبراطورية البريطانية وبعهود بريطانيا الأول ، وكان يحتقر الفرنسيين ويرى انهم يجب أن يؤمروا فيطيعوا ، وكان يلمس ويعجب اشد الاعجاب بالألمان وحدهم ، ويرى انهم الوحيدون الذين يمكن الاعتماد عليهم في أوربا ولي غير أوربا ، وكان أقرب الزعماء الاوربيين الى قلبه هو اديناور مستشار ألمانيا الغربية « ورجله » في أوربا .

وبدا واضحا ان برنامج دالاس سوف يبدا بتصفية النفوذ البريطاني والفرنسي عامة وفي الشرق الاوسط خاصة ، وذلك

لتحل أمريكا محلهما ، وتعمل من طريق حلفائها المخلصين وهم الالمان الغربيون اولا .

ورأى أيدن لهذا انه لا مناص من الاسراع بالاتفاق والتسوية مع مصر ، فقد مهدت الظروف الداخلية والخارجية لتحتم توقيع اتفاقية الجلاء ، وكانت افضل الشروط فى افضل الظروف .

وتمت التسوية الاخيرة لحساب مصر مع بريطانيا ، وهو حساب سبعين عاما استنزفت فيها مصر وكبلت بكل القيود ، وحجبت من التاريخ ، وعطلت مسيرتها ومواهبها .

وانتصر اخيرا الكفاح الذى واصلته الاجيال جيلا بعد جيل والذى سقط فى اجله صفوف الشهداء من معركة التل الكبير سنة ١٨٨٢ حتى معركة القنال سنة ١٩٥١ حتى طلائع الكفاح الجديد الذى اقنع الاحتلال ان لا جدوى من البقاء وان لا مناص من الانسحاب .

ولكن لم تكد مصر تصفى هذا الحساب القديم الاليم حتى واجهت الوافد الجديد الذى لم يترك وقتا لمصر لتلتقط انفاسها وتفرح بانتصارها .

كان الجمهوريون قد جاءوا الى الحكم فى امريكا بعد غيبة طويلة امتدت ما يقرب من عشرين عاما منذ تولى روزفلت السلطة خلال الازمة الامريكية الكبرى فى الثلاثينيات .

وكان الجمهوريون يريدون لحكمهم ان يحقق معه مشابهة ، وان يسجلوا صفحة فذة وفريدة فى تاريخ امريكا وان يقدموا نموذجا فى كيفية توطيد المعالم لعصر السيادة والقرن الامريكى .

وكان وزير الخارجية الجديد والسلطة الحقيقية هو جون فوستر دالاس احد محامى الشركات والاحتكارات الكبيرة ، ورجل طبيعة مبشر متعصب ، ديرى فى نفسه مبعوث عناية لانقاذ البشر من اغلال الشيطان ،، وهذا الشيطان واحد هو الشيوعية !

وكان يرى ان سياسة الديمقراطيين الخارجية التي عرفت باسم الاحتواء سياسة سلبية لم تحقق شيئا ..

وكانت هذه السياسة تعني حصار روسيا وتطويقها والانتظار حتى تنفجر التناقضات داخلها ثم تنهار ..

ولم تؤد هذه السياسة في رأي دالاس الى تفجر التناقضات، بل على العكس صنعت روسيا القنبلة الذرية وانتصرت الثورة في الصين ، وامتد المعسكر من برلين الى بكين وهو يهدد بالامتداد باطراد ، ولا بد من سياسة « ردع » و « صد » و « على » تكون اكثر فاعلية وايجابية من مجرد الاحتواء .

ورفع دالاس لهذا شعارا دارت حوله سياسته هو « من الاحتواء الى التحرير » .

وبمقتضى هذه السياسة لا بد من احكام الحصار حول المعسكر وخاصة اهم دوله وهي روسيا والصين ، ولا بد أن يكون هذا الحصار ايجابيا اى يخلق المشاكل ويذكي المتاعب والمصاعب ويدفع تفجير التناقضات حتى اذا ما صحت وسادت لتقدم الولايات المتحدة وهي متأهبة مستعدة لتكمل المهمة وتحرر الشعوب الأسيرة التي اسرها الشيطان والتي اختار الله الولايات المتحدة وصنعها بقيادة دالاس لانقاذها !

ويبدأ هذه السياسة — لا بد — باحكام السيطرة على أوربا ، وكان دالاس يرى ذلك باعادة تسليح المانيا وضمها الى حلف الاطلنطي ، لتكون قوته الاولى ، واذا ما تململت فرنسا او عارضت تجبر وترغم ارغاما على قبول الأمر ، وكان يرى كسر انف بريطانيا وترويض المحافظين الذين يتزعمهم ايدن ، والذين كانوا يتطلعون الى ان يحتلوا « المقام الخاص » في الحلف الغربي ، وأن يكونوا كركائز « الوكيل » في الحلف لا مجرد أعضاء تابعين !

ومن اوربا تمتد هذه السياسة الى آسيا عبر الجسر الطبيعي الذي يربط القارتين وهو الشرق الأوسط ، ولا بد أن يبدو الشرق

الاوسط قاعدة « لتحرك وتحرير » أمامية ، لأنه أصلح المناطق وأنسبها ، وهو على الحدود المباشرة والقريبة للصين والاتحاد السوفييتى » ويمتد من باكستان فى قلب آسيا حتى تركيا ومصر فى شرق البحر الابيض !

ومن الشرق الاوسط يمكن خنق الصراعات وتفجير التناقضات واخماد الثورات لمصلحة الغير ، سلعة التحرير ..

ولم يكن حلف الشرق الاوسط .. فكرة جديدة ، فقد تقدمت به الولايات المتحدة فى عهد الديمقراطيين وفى صورة حلف رباعى من مصر وتركيا وبريطانيا والولايات المتحدة ، ولكن مصر رفضته فى ذلك الحين رفضا باتا ، وقرر الجمهوريون وفق خطة دالاس بعث المشروع فى صورة جديدة لا يمكن أن ترفض وذلك بقيام حلف الشرق الاوسط يمتد من كراتشى للقاهرة ، ويضم كل دول المنطقة بالشرق الاوسط بمعناه الجغرافى البريطانى ، وتكون باكستان ملتقى يمتد منها حلف آخر آسيوى للشرق الاقصى يبدأ منها وينتهى الى الفلبين ، ويحكم حصار الصين ويطوقها ، ويسمى حلف جنوب شرقى آسيا ، وكان ذلك تمة ما سمى جنون الاحلاف « الباكتومانيا » ..

وكانت مصر فى قلب هذه السياسة ، مصر وهى مفتاح الشرق الاوسط كما قال ايدن ، وعنق العالم كما قال ايزنهاور ، وطالما أمسكت الولايات المتحدة بالعنق .. واذا ما انضمت الثورة الجديدة فى مصر الى هذه السياسة لتمت نجاحها ..

وجاء « دالاس » بنفسه الى مصر مبكرا سنة ١٩٥٣ ، وجاء يحمل الفكرة ، ويحمل معه سيف « العز » وحفنة من ذهب .. !

ولكن كانت سياسة دالاس تحمل كل الاحتمالات واخطرها ، وكانت خطورتها أن لم تكن مصالحتها فى أنها جاءت بعد ثلاث سنين من الحرب الدامية فى كوريا ، وقد اختبرت فيها الولايات المتحدة قدرتها على « التحرير » كاملة ، وجاء الجمهوريون الى

الحكم يتسطر انهيار هذه الحروب وكانت حربا « تعست ظهر امريكا » . « ولأول مرة هزمت ولم تنتصر امريكا » كما قال الجنرال مارك كلارك .

ولكن لم يستخلص دالاس اية عظة .

وكما جاء دالاس الى القاهرة ذهب الى كل البلاد التى على طريق الحرية المصرية ليقنعها او ليخضعها لسياساته ومشروعاته .. كانت اول مرة يخرج فيها وزير خارجية امريكا فى هذه الرحلة الطويلة فى الشرق ، ليبدا حربا صليبية جديدة ، ـ كما قيل ـ ضد الشيطان !

وكان لبعض هذه الدول راى آخر وقد اقلقها وازعجها هذا الاسلوب الجديد « الارهابى » .

كانت الهند قد اختارت بعد الاستقلال سياسة خارجية اطلقت عليها « الحياد الايجابى » .

وكانت فى رايها السياسة التى تتفق مع مبادئها ومصالحها معا .

وبعد استعباد طويل كانت الهند تريد ان تمارس سيادتها الداخلية والخارجية كاملة .

وكانت الهند تؤمن بالسلام لتبنى حياة جديدة لشعبها المحروم ، وكانت لا تريد الحرب ، ولا تستطيع الحرب ، وترى انه لا ينبغى ان تتورط فى حرب باردة أو ساخنة ولا تنتمى الى كتلة تواجه او تعادى كتلة اخرى .

والهند دولة ضخمة فى آسيا فى قلب آسيا ، ولسياستها موازين القوى فيها .

وفى قارة تشتعل بالثورات الوطنية التحررية لا تملك ان تسلك سياسة معادية ، لاية من القوى الآسيوية الكبرى ، وهى الصين وروسيا واليابان ، والهند نفسها قارة تحفل بكل الصراعات

والثقافات الدينية واللغوية والاقليمية والقبلية ، ولا بد لها من سياسة سلام تحقق لها السلام والتعايش من مختلف القوى في الداخل .

والهند دولة متخلفة بالغة التخلف ، كانت تسعى لأن تحصل على ما يمكن أن تحصل عليه من مساعدات ومعونات من كل طرف بلا تحيز وبقدر ضخامة حاجتها ، وهي تحسدا لم تكن تستطيع أن تنحاز لطرف وتحرم نفسها من مساعدات الطرف الآخر .

وقد حذت حذو الهند في السياسة الخارجية ولنفس الأسباب تقريبا اندونيسيا وبورما ، وبدت دعوة عدم الانحياز دعوة طبيعية ومنطقية اجتذبت الشعوب الآسيوية . وفي عصر التكتل والدول « العظمى » لا يكفي سياسة الحياد وعدم الانحياز ولا يحميها أن تؤمن بها ثلاث دول آسيوية فقط مهما تكن مكانتها ، لكي تقوم هذه السياسة لا بد أن تعتنقها كل الدول التي تستقل وتتحرر لتقوم منها كلها مجموعة متضامنة ، تستطيع أن تقف معا وتحمي سيادتها وسلامها ، بل تمنع الصدام بين الكتلتين بأن تبعد كلا منهما ما أمكن عن الأخرى ، وهي بهذا تقدم نموذجا جديدا للعلاقات بين الدول في هذا العصر الحافل بالتغيرات والتقلبات !

ولقد كانت هذه السياسة تتعارض تماما بل تقف حجر عثرة أمام سياسات ومشروعات دالاس الذي رفض الحياد واستنكره تماما معلنا « أنه لا حياد بين الخير والشر وبين الحق والباطل وبين الله والشيطان » ومصرا بلا تورع أن حياد زعماء هذه الدول جهل وقصور من الزعماء الآسيويين وعمى عن رؤية الخطر المحدق بهم وعلى أبوابهم .

وقد اعتبرت هذه السياسة أكثر ما أقلقت « نهرو » في الهند خاصة ، وقد اختار « دالاس » باكستان لتكون « منطقة

للاحلاف » الرئيسية ، والبها ينتهي حلف الشرق الأوسط ، ومنها يبدأ حلف جنوب شرقي آسيا . وكان الاقطاعيون وكبار الموظفين والأئمة وجنرالات الجيش البريطاني السابقون في باكستان ، قد نقلوا ولاءهم بعد خدمة طويلة متفانية من بريطانيا للولايات المتحدة .

وردا على سياسات « دالاس » وردفعلا منها بدأت الهند واندونيسيا وبورما انه لا حل في مواجهة سياسة « الباكتومانيا » وجنون الاحلاف سوى الدعوة الى عمل جماعي جديد آسيوي الرضى تشترك فيه كل الدول التي تحررت وكل الدول التي تجاهد في سبيل التحرر حتى لا تدخل احلافا او تصبح مجرد توابع وحلقات في أحزمة ..

وكان موقف مصر في هذه الدعوة اساسيا وحاسما لترتب عليه الخطر الناتج .. مصر هي الجسر السياسي والاستراتيجي بين آسيا وافريقيا وبين الثورة الآسيوية والثورة المصرية والافريقية .

واذا ما اختارت مصر سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز فلن يقوم حلف الشرق الاوسط ، واذا لم يقم سقطت الحلقة الرئيسية في سياسات « دالاس » ولا يمكن ان يقوم حلف جنوب آسيا الا في صورة هزيلة ، واذا ما انضمت مصر الى المجموعة المتابعة فانها تكسر الحصار الذى يراد فرضه على سياسة الحياد الايجابي في آسيا وتلتحم التياران الشقيقان ، وتنشيء الجبهة الآسيوية الافريقية .

وبعد توقيع معاهدة الجلاء مع بريطانيا ـ بدأ الضغط مباشرة من الولايات المتحدة الأمريكية لتنضم مصر الى الحلف الجديد ، وهو حلف الشرق الأوسط ، ويمكن أن تكون مصر قاعدته ومركزه ، والعضو الرئيسي فيه اذا شاءت ، ومحور السياسة « الغربية الأمريكية » الجديدة في المنطقة ..

وفي نفس الوقت انتعشت الهند واندونيسيا وبورما ، وجمهورية مصر ، فاشتركت في المشروع الجديد ، وهو عقد مؤتمر مدينة باندونج باندونيسيا .. يعلن ميلاد القوة الجديدة الآسيوية الافريقية غير المتحاربة ، ويكون نقطة تحول في حياة العصر .. ان لم يكن في التاريخ ، بنهاية التكتلين واسترداد دول آسيا وافريقيا لدورها الطبيعي في حياة العالم .

ولم تكن هناك شبهة تردد في اختيار الثورة وقد رفضت القوى الوطنية والثورية في مصر قبل ذلك صيغة الدفاع المشترك مع بريطانيا ، ثم صيغة هذا الدفاع المشترك مع بريطانيا وامريكا وفرنسا وتركيا ، لم تكن لتقبل بعد الثورة وتحقيق الاستقلال عودة الى الوراء .

ولم تترك الثورة شبهة شك لدى المستر دالاس خلال زيارته القاهرة في موقفها واختيارها ، وانها ترفض الاحلاف تماما ، ولا ترى مبررا لان تحمل مسئولية تحرير روسيا ، او معاداة روسيا بلا سبب ، طالما لم تبدأ روسيا بالعداء او تقدم مبررا له ..

وتحدث الثورة البديل للمستر دالاس :

ذلك انه اذا كانت الولايات المتحدة حريصة على حماية مصر وشعوب الشرق الأوسط من خطر لا تدركه وهو الاستعمار السوفيتي فعليها ان تسلحهم باسباب القوة العسكرية والاقتصادية وبمقومات بناء قوتهم الذاتية والحقيقية ليعتمدوا على انفسهم في هذه الحماية ، وليس هناك اكثر فاعلية من دفاع الشعوب بنفسها عن ارضها وحقوقها ! ..

وكان رأي الثورة انه ليس هناك اقدر من العرب ولا اكثر بطولة منهم للدفاع عن حريتهم وعن استقلالهم ، ولهذا لا بد ان تتحقق لهم الحرية كاملة وان تهيأ لهم مقومات التسلح واسباب التخلص من التخلف ، فيصبحوا قوة تدافع عن الحرية التي تملكها والتقدم الذي تحققه .

وقد استكشفت الثورة المصرية أن تساوم أو أن تقاوم أو أن تستغل الصراع الذى كان محتدما بين ايدن ودالاس ، وهو استغلال لم يكن هناك ما يمنعه أو يعيبه ، ولكنها ارتضت مواقفها صريحا للطرفين وفي تصريحات وخطب علنية ..

ويستحق هنا ما ذكره بعدئذ بعض الأمريكيين من أن حل القضية المصرية كان بضغط من المستر دالاس على ايدن ، ومقابل وعد بالانضمام الى حلف بغداد تمسك به بعدئذ ، ولقد اعلنت سياسة مصر ومواقفها من الاحلاف قبل الاتفاق مع بريطانيا وبعده وخلال زيارة دالاس سنة ١٩٥٣ .

ووقفت مصر رافضا حاسما مشروعات دالاس ، وكان رفض مصر وتقديمها البديل صدمة قلبت كل هذه المشروعات ، وانما بدا الفشل هنا فلا بد أن يسرى ويمتد بعيدا ، ولهذا لم يغتفر دالاس للثورة هذه « المعصية » بل كانت بداية المعركة مع الولايات المتحدة .

كان طبيعيا وبعد رفض مصر أن يولد حلف الشرق الأوسط هزيلا ، والولادة هزلية أيضا .

بمجرد أن طرح دالاس مشروعه أسرع ايدن فى عجلة محمومة واستولى على الخطة وانتحلها لنفسه ، وقرر أن تقوم بريطانيا باقامة الحلف وانها صاحبة « الدور الأول » .

وأراد ايدن أن يعتمد فى تنفيذ المشروع على نورى السعيد فى العراق « صديقى الحميم وقد بدأت صداقتنا منذ أول مرة التقينا فيها سنة ١٩٢٥ وظلت قائمة وثيقا منذ ذلك الحين » ولن يعتمد على الأسرة الهاشمية فى بغداد وعمان وعلى نورى السعيد لاتباع مصر وعزلها عن المنطقة اذا ما اصرت على رفضها .

وخلال السعى لاقامة الحلف تبدت المنطقة ساحة مزرية للصراع الانجلوامريكى ، ومن الحقد الشخصى بين دالاس وايدن « كانت الولايات المتحدة صاحبة الفكرة والوصية بها ، ولكنها

كانت تؤيد الحلف وتحاربه وتريد ليسانه ولسمي التعطيله ! » وبعثت اموال البترول السعودي للتآمر بسخاء في هذا ، كما قال ايدن بمرارة .

وكان دالاس يريد حلف الشرق الأوسط ، ولكن بزعامته وقيادته ولتصفية كل نفوذ آخر ، ولهذا لم تشترك الولايات المتحدة رسميا في الحلف الذي سمي « حلف بغداد » ولم تعمل الولايات المتحدة على عرقلته « كما قال ايدن » ولكن على ان يكون القدم الاول للولايات المتحدة وان يتبعها البريطانيون ، وخاصة بريطانيا .

وكانت الثورة المصرية في معركتها ضد الحلف قد رأت تعبئة كل القوى الثورية العربية ضده .

واذا كانت بريطانيا تعتمد على نوري السعيد وعلى الأسرة الهاشمية ، وسوف يعتمد هؤلاء على تعبئة القوى التقليدية والرجعية فلا بد ان تعود الثورة المصرية للمعركة ، وان تعتمد على تعبئة كل القوى الوطنية والثورية ، وكل القوى الفتية والجديدة في المنطقة ..

وهبت هذه القوى وتشجعت في الاردن وسورية والعراق ايضا وهزمت مشروع الحلف وعزلته في معارك شعبية عارمة ، ولم تشترك فيه سوى دولة عربية واحدة هي العراق .. عراق نوري السعيد وحده !

وانزعجت هذه النتيجة الحليفين اللدودين دالاس وايدن على السواء .. وقرر دالاس انه اصبح ضروريا ان يلقن مصر درسا يحطم كل الهيبة التي حققتها الثورة الجديدة في مصر او خارج حدودها سواء في العالم العربي او في العالم الأسيوي الافريقي ، وان يضعها في مكانها وان يذكرها بالحقائق وجبروت الولايات المتحدة وقدرتها .. وكانت وسيلته في هذا جاهزة وهي اسرائيل ..

الحمائم والصقور

كان أحد الاهداف الرئيسية للولايات المتحدة في الشرق الاوسط هو « انجاح » اسرائيل بالمنطقة ، وذلك لتحقق حلم ترومان ، وهو حلم شرحه صراحة في مذكراته « وان تغدو اسرائيل القاعدة الصناعية والاستراتيجية والسياسية الرئيسية في المنطقة ، وان تصبح الدولة المهيمنة والحاسمة في منطقة متخلفة ولكن هامة وحاسمة ».

كانت اسرائيل في رأيهم معقل الحضارة الغربية « الامريكية » وقاعدة الحرية والتقدم وسط الاخطار الشديدة التي تتهددها في المنطقة ونموذجا للمشروع الامريكي الخاص ، وهو الاسم المهذب الذي اطلقته الدعاية الامريكية على الرأسمالية بعد ان اصبح الاسم الحقيقي ثقيلا ..

وقد كان هدف السياسة الامريكية من تدبير انقلاب عسكري في سورية هو اقامة حكم قوى يفرض الصلح مع اسرائيل بالقوة ، وكان سعي امريكا لتدبير انقلاب مماثل في مصر يهدف بين ما يهدف الى اقامة نظام عسكري قوي يفرض أو يخضع بالصلح مع اسرائيل . واذا ما تم الصلح مع مصر فلن تبقى مشكلة الصلح

بين اسرائيل وبين أهم دولة عربية في ظل السيادة الأمريكية ، يعني مشكلة « الشرق الأوسط » ولن تعود هناك بعد ذلك مشكلة .. وسوف يتحقق الحلم وكل الأحلام . وبعد الثورة مباشرة أعلن دين أتشيسون وزير خارجية الولايات المتحدة أن هناك شرطين أمريكيين ، لتأييد ومساعدة الولايات المتحدة للنظام الجديد في مصر : وهما الاتفاق مع بريطانيا والصلح مع اسرائيل !

وبعد الثورة بأشهر قليلة وفي أوائل عام ١٩٥٣ أعلن بن جوريون رئيس وزراء اسرائيل وزعيم الجناح الأمريكي في الحركة الصهيونية وزعيم الصقور فيها : أعلن اعتزاله الحكم واعتزاله السياسة ورغبته في التفرغ للتأمل والاستجمام في مستعمرة من مستعمرات النقب البعيدة في الصحراء .. سدي بوكر . وتولى السلطة بعده « موشي شاريت » زعيم الحمائم .. فالصقور كانوا يريدون فرض اسرائيل وفرض الصلح على العرب بالقوة والعنف ، والحمائم كانوا يريدون فرضهما بالسياسة والحيلة أولا ..

وبعد تولي موشي شاريت توالت الرسل بين باريس ولندن وواشنطن والى القاهرة وتل أبيب يريدون السعي للوساطة ، وعقد الصلح .. وكان من أكثرهم حماسا ونشاطا النائب العمالي البريطاني ريتشارد كروسمان وهو يجمع بين « العمالية » والحماسة « للصهيونية » والولايات المتحدة الامريكية .

وأعلنت الثورة في ذلك الحين أنها قامت لتحرير مصر وبناء مصر أولا ، وأنها لا تمانع في بحث المشكلة العربية الاسرائيلية ، ولكن على أساس قرارات هيئة الأمم المتحدة ، فلا بد أن تقبل اسرائيل أولا هذه القرارات التي لم تعترف بها ورفضتها جميعا ..

وبدا واضحا أن الوسطاء يريدون فرض الصلح بالشروط الاسرائيلية وفي اطار الاستراتيجية الأمريكية ، ولا يريدون

شيئا آخر . ولم يكن ممكنا للثورة ان تقبل بالتسليم لاسرائيل والاعتراف بها والصلح معها بشروطها ..

ولهذا رفض سعي وشروط الوسطاء ، وازداد عليها من حنق وحقد المستر دالاس وتطورت الاحداث في الاتجاهات الاخرى ، ورفضت الثورة سياسة الاحلاف والانطواء تحت حلف الشرق الأوسط . وقامت لتعبىء قوى الثورة العربية والقومية العربية ضد الاستراتيجية « الكونية العامة » الامريكية ، وبدلا من التحام النظام في مصر (بالصهيونية) ومصالحته مع اسرائيل بدأ التحام الثورة المصرية بالثورة العربية ، واصبحت قيادتها وقاعدتها ..

ولهذا تقرر ان يعود بن جوريون من صومعته وتأملاته ، وكان دالاس معجبا اشد الاعجاب به ، حتى ليضعه في نفس المرتبة التي يضع فيها اديناور . ويرى فيه وكيل الولايات المتحدة في المنطقة التي تعتمد عليه فيها تماما كما كان يرى في اديناور رجل امريكا الاول في اوربا الغربية ..

وعاد بن جوريون الى « وكره » المفضل وهو وزارة الدفاع الاسرائيلية وبعد قليل من أيام عودته فوجئت مصر بغارة اسرائيلية وحشية على قواتها في غزة في فبراير عام ١٩٥٥ ، كانت غارة تعكس كل تفكير واسلوب بن جوريون وتقاليده التي تقوم على (الهجوم الارهابي الساحق بقوة وشراسة بلا حدود لتحطيم قدرة وارادة العدو لزمن طويل ..)

لم يكن هناك مبرر للغارة الا ان تكون بداية خطة اسرائيلية امريكية لردع الثورة ، اراد دالاس ان يذكر مصر ان اسرائيل ما زالت هناك ، وتستطيع ان تنزل الضربات الفادحة بها ، وان احدا لا يستطيع ان يكبح جماح اسرائيل ويوقف عدوانها سوى الولايات المتحدة وحدها .. !

وأراد دالاس أن يسقط هيبة مصر الثورة ، وهى على أهبة الذهاب الى باندونج ، والظهور لأول مرة بين دول آسيا وأفريقيا كقوة جديدة .. تعلق عليها الآمال !

وأراد دالاس أن يهز هيبة الجيش المصرى ووحدته ، وأن يثير القلق والسخط فى صفوفه . هذا الجيش الذى حقق الثورة ، والذى حقق الجلاء ، والذى يعد بتحقيق أمانى الشعب كلها — لا يستطيع حماية حدود مصر ، ولا ريب أنه سوف يطلب عدد من الضباط تلافى معاداة اسرائيل أو الولايات المتحدة أن لم يكن الاتفاق معها ..

وأراد دالاس أن يذكر مصر أن الاسلحة الحديثة والصارمة منبع الولايات المتحدة ، وعندها فقط ، وأنه لا يحصل عليها سوى حلفائها الأوفياء ويستحقون بها الانتصار ، فعلى مصر اذا ما أرادت أن تحصل عليها أن تسلك الطريق الوحيد الصحيح !

كان أول لقاء بين المارد الأمريكى وأداته المسماة فى الشرق الأوسط (اسرائيل) ، وبين الثورة الجديدة ، وافتتح طريق التحدى غير المتكافىء ضد أى مارد إنما هو مواجهته بلا خوف، وتوجيه ضربة قوية ومفاجئة لم يتوقعها تذهله وتشل ارادته ، وتقلب كل خططه ومشروعاته ، وبهذا تسقط أسطورته والخوف أو الرعب منه ، ويظهر هذا مثل ارهابه قائما ودائما .

لقد تحدت الثورة وهزمت الاستعمار القديم ، وتبدأ معركتها ضد الاستعمار الجديد .. وهذا قدر مصر الذى لا مفر منه ..

ولقد تغير العالم وتغيرت موازينه ، ولم يعد ممكنا أن تذعن دولة لارادة دولة من الدول العظمى ، وإلا فما معنى الثورة !

وقررت مصر أن ترد بأن تحصل على السلاح من روسيا .

وكانت ضربة لم يتوقعها دالاس ولم يدرجها فى حسابه ، وكان مطمئنا دائما الى أن حكام وقادة العالم الثالث فى يده

يكرهون الاستعمار والغرب ، ولكنهم يخافون الشيوعية ويعزمون منها اكثر . وظهر اليوم حاكم وقائد شعب فى منطقة حاسمة من العالم يكره الاستعمار ولا يخاف الشيوعية ويكسر القاعدة ، وهو قد جرؤ على أن يمد يده لروسيا فى وقت دقيق يعد فيه خلاص للحرب الصليبية القادمة ..

كانت سابقة خطيرة واذا ما صارت مثلا فسوف يهدد كل الخطط فى آسيا وافريقيا .

وقد حدث حينما هاجمت الدبابات الانجليزية قوات البوليس المسلحة بالبنادق القديمة ، وابادت معظمهم في معركة خسيسة في الاسماعيلية فى يناير عام ١٩٥٢ ــ حدث ان اندفعت المظاهرات فى القاهرة تطالب بالسلاح من روسيا ، ولكن في ذلك الوقت كان الحكام سياسيين لا ثوارا ، يميلون الى الشجاعة ويخافون الشيوعية والشعب ــ اكثر مما يكرهون الاستعمار ! وتخلق عليه وصف دلالى وقد جاء طلب القاهرة الاسلحة في الوقت المناسب تماما بالنسبة لموسكو .

السلاح من روسيا

كان ستالين هو اخصائي القوميات والمستعمرات في الحركة الثورية الروسية ، وكان قد وضع كتابه « الماركسية والمسألة القومية والاستعمارية » وكان ذلك بتكليف من اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي ، وأصبح ذلك الكتاب قبل الثورة الأساس الايديولوجي لسياسة الحزب ثم لسياسة الثورة نحو القوميات والمستعمرات سواء داخل الامبراطورية القيصرية « الروسية » أو خارجها نحو كل شعوب المستعمرات.

وكان ستالين روسيا قحا ما لم يغادر روسيا ولم يعرف أوربا أو يعش فيها مثل الثوار الآخرين ، وكان هو من جورجيا وهي من أشهر « القوميات المتعصبة والمشاغبة » ، وقد بنى ستالين مجده على قدرته على معرفة روسيا من الداخل وفهمه الدقيق لشعوبها وقومياتها وخصائصها المختلفة ، وكان كتابه تطويرا للماركسية بذلك الفهم وعلى أساس ذلك الواقع ..

وأصبح الأساس النظري هو ضرورة الاعتراف لكل شعب بحق أساسي هو حق تقرير المصير . أن الشعوب متساوية ولكل شعب صغير أو كبير حق تقرير مصيره بنفسه ، واعترفت

الثورة الروسية بمجرد قيامها بهذا الحق لشعوب الامبراطورية الروسية السابقة ، وكانت السياسة الاستعمارية القيصرية تعمل على « روسنتهم » وتحويلهم الى « روس » من الدرجة الثانية ، واعترفت لهم بحق تقرير المصير حتى الانفصال بناء على اصرار لينين . وعلى هذا الاساس قامت الخمس عشرة جمهورية التي يتكون منها الآن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية اي الاتحاد السوفيتي .

وعلى هذا الاساس ايضا تقرر ان الكفاح الوطني ضد الاستعمار في اي بلد هو الحليف الطبيعي لكفاح العمال في أوربا او امريكا من اجل الاشتراكية وضد الراسمالية .

ان الاستعمار امتداد للراسمالية وهو الاستغلال ضد الشعوب باكملها ، وهو اعلى مراحل الراسمالية وآخرها ، وكل ضربة توجه ضده في اي مكان هي ضربة للراسمالية « الأم » في العواصم الامبراطورية ، وهي انتصار غير مباشر لكفاح البروليتاريا « الاوربية » ، وطبقا لهذا ان تتحالف وتتكاتف مع حركات وثورات التحرير الوطني حتى لو كانت قيادتها برجوازية ما دامت تقاوم الاستعمار .

وتطبيقا لهذه المبادىء ساعدت الثورة الروسية كل الثورات الوطنية التي نشبت في ذلك الحين ، وساعدت الثورة الصينية بقيادة صن يات صن ثم تشيانج كاى شيك ، وساعدت الثورة التركية بقيادة اتاتورك ، وكانت المساعدة الروسية هنا حاسمة وسببا رئيسيا من نجاح الثورة كما اقر اتاتورك في معظم خطبه وساعدت الثورة الايرانية بقيادة رضا شاه بنفس المساعدة ، وتنازلت عن كل الامتيازات الروسية السابقة في ايران ، وعرضت الثورة تأييدها واستعدادها للمساعدة على كل الثورات الوطنية ، واعلنت ان حليفا « صادقا » من بين الدول العظمى قد ظهر ، ويمكن للحركات والثورات الوطنية ان تثق به وتعتمد

عليه وهو الاتحاد السوفييتي ، ونشرت الثورة كل المعاهدات السرية التي اتفق عليها الحلفاء لتقسيم العالم بعد الحرب ، وكان بينها معاهدة « سايكس بيكو » لتقسيم البلاد العربية .
ولكن الصراع داخل روسيا بين تروتسكي وستالين حول خط الشيوعيين المحليين من الثورة في ذلك الحين وهل يتحمسون لانتزاع قيادة الثورة من البورجوازيين الوطنيين كما قال تروتسكي او يتحالفون حلفا طويل المدى مع البورجوازية الوطنية كما قال ستالين — قد ادى الى تخبط وتعثر في هذه السياسة ..

وكان تنبه الاستعمار الى الخطر الجديد دافعا له الى محاولة عقد معاهدات وتسويات واجتذاب قطاعات وفئات من « الوطنيين » الذين اقلقهم وارعبهم التحالف مع الشيوعيين ! وما لبث اتاتورك ان بطش بالشيوعيين الاتراك وجمد العلاقات مع روسيا ، وذهب خلفاؤه الى ابعد مدى حتى اصبحت تركيا قاعدة رئيسية لحلف الاطلنطي ضد روسيا !

وقام كاي تشيك بمذبحة الى في شنغهاي قضى فيها على الشيوعيين الصينيين وعلى عدد كبير من الثوريين بلا تفرقة ثم قام بتسوية مع الغرب ، وشن حربا اهلية طويلة المدى انتهت به الى العمالة الكاملة للولايات المتحدة ، وفي وقت مبكر حول رضا شاه الثورة الايرانية الى امبراطورية ونصب نفسه امبراطورا عليها ثم انحاز للمحور ، وكاد يجعل من ايران قبل الحرب قاعدة لالمانيا الهتلرية ، وجعلها وريثه من بعده قاعدة للولايات المتحدة الامريكية .

ومن هذا التطور فقد « ستالين » ثقته في البورجوازية الوطنية في المستعمرات ، وتغير موقفه الى موقف شديد ضدها !

وبعد الحرب العالمية الثانية انتصرت الثورات الوطنية في بلاد آسيوية كثيرة مثل الهند واندونيسيا ، ولكن لم يتغير

الموقف الوطني ، وكان الرأي أن قادة هذه الحركات « كلاب حراسة للامبريالية الانجلو امريكية » وهم يحققون استقلالا ولكن عقدوا صفقات سياسية مع الاستعمار خوفا من الثورة الاجتماعية التي تهددهم ، وأن على الأحزاب الشيوعية لهذا أن تكافحهم ، وتحرر الثورة وتكملها وتمضي بها للاستقلال الصحيح والاشتراكية ..

واصطدم نهرو والحزب الشيوعي الهندي صداما سياسيا عنيفا ، وتطور بعد قليل الى صدام مسلح في حيدر اباد وانحاء اخرى من الهند .

واصطدم سوكارنو والشيوعيون الاندونيسيون صداما مسلحا وسقط فيه كثيرون ، منهم احمد قادة الثورة واحد رجال سوكارنو الكبار ..

وتحولت الثورة في بورما الى حرب اهلية شاملة بين الوطنيين والشيوعيين استنفدت قوى الطرفين ..

وظل تأييد الدولة السوفيتية للحركات والثورات الوطنية على هذا قائما في المحافل الدولية ورسميا ، ولكن على هيئة النفور العدائي .

وفي عام ١٩٥٣ مات ستالين ، وبدأت بعد موته اعادة تقييم لكل السياسات والمواقف الداخلية والخارجية ، ومن بينها الموقف من الثورات الوطنية ، وكانت قد امتدت واتسعت في العالم المستعمر بتيارات وافكار وطرق كفاح جديدة .

وبدا واضحا ان تيارا جديدا وظواهر تاريخية فريدة تتابع في حياة العصر وثورات العصر ، وبدا واضحا أن البورجوازية الوطنية في المستعمرات ليست تلك الطبقة التي رسمها ستالين ، ولكنها فئات وتطلعات ؛ منها من يخون وينهار للامبريالية ، ومنها من يتقدم وينضم للجماهير وفي غياب طبقة عاملة

« بروليتاريا » واعية ومنظمة لا بد ان يظل البورجوازية دور وطني ثوري .. وخاصة في فئاتها المتوسطة والصغيرة والمتفتحة على روح وافكار العصر ..

وكان لا بد للفكر الماركسي ان ينضج هذه الظواهر وان يواجهها ، وكان لا بد للدولة السوفيتية ان تحدد علاقاتها وموقفها من هذه الدول والنظم الجديدة ، فالتزمت الايديولوجي او السياسي سوف يحول الدولة السوفيتية منها ، وفي مرحلة دقيقة بالنسبة لها وفي مواجهة سياسة « الحرب الباردة » التي شنها « الجمهوريون الامريكيون » كان لا بد للاتحاد السوفيتي من سياسة خارجية ايجابية لتفادي هذه الضغطة وتكسير الحصار وتحويل قواعد الانفصال والتحرير الى قواعد امن وحسن جوار ، وتحويل الدول التي على حدودها الى دول صديقة وحليفة ..

وكان الاتحاد السوفيتي قد كسر احتكار الذرة ، وكان قد استطاع ان يعيد بناء ما دمرته الحرب ، بل حقق نموا ديناميكيا في هذا الصدد ، واصبح في استطاعته ان يقدم للدول الحديثة والمتحررة ما ترفض الولايات المتحدة وما لا يمكن بطبيعة نظمها وسياساتها ان تقدمه وهو وسائل التصنيع والتصنيع الحقيقي ..

واصبح الرأي السوفيتي السائد ان الدول الجديدة والثورات الجديدة ظواهر مبتكرة وخلاقة في حياة العصر ، وهي تعبر عن شعوب ذات تاريخ وكيان اجتماعي وحضارات مختلفة ولا بد ان تتقدم الماركسية وتتطور وتفهم ، والماركسية علم لا بد ان يتقدم ويتطور ككل العلوم ..

واصبحت السياسة السوفيتية تقوم على انه لا بد للدولة السوفيتية ان تساعد هذه الدول مساعدات فعالة لتعزيز استقلالها ، وحينما تقوم في آسيا وافريقيا دول مستقلة وثورية

عسكريا واقتصاديا وسياسيا ومعادية للاستعمار وصديقة للاتحاد السوفيتي سوف يكون امن الاتحاد السوفيتي مكفولا ، وسوف تفشل اية سياسات احتواء او تطويق امريكية ..

وكان الموقف السوفيتي من الثورة المصرية انعكاسا لهذا التاريخ والتطور .

وهو قد بدا « متحفظا » في البداية وزاده الصدام بين الثورة وبين « الشيوعيين » تحفظا وجمودا ، ولكن كثيرين من « الجدليين » هناك تجاوزوا « الظواهر » الثانوية » والتفصيلية واصروا على ان البحث الاساسي يجب ان يدور حول طبيعة الثورة ومستقبلها ، وانه لا يمكن التجاهل او التباعد في صدد تغيير خريطة الشرق الاوسط كلها ، ويضيف الى الثورة النضال ضد الاستعمار وانه في المركة الزدوجة للثورة العربية ضد الاستعمار القديم والاستعمار الجديد لا بد ان يكون للاتحاد السوفيتي موقف وفي مواجهة سياسة التحرير بعد الاحتواء لا بد ان يخوض الاتحاد السوفيتي معركة في الشرق الاوسط حتى لا يتحول الى قاعدة اكبر « للاحتواء والتطويق » ضد روسيا ، بل الى منطقة متحررة وثائرة ضد الامبريالية ، والتقت الثورة المصرية والاتحاد السوفيتي وكل الظروف مهيأة لدى الجانبين ليكون اللقاء تاريخيا ومتكافئا وطويل المدى ..

كانت صفقة الاسلحة نقطة تحول ، ولكنها كانت مجرد بداية ..

المؤامرة

كانت سنة ١٩٥٥ سنة الاختبارات الصعبة والحاسمة بين بالقدوبج وحلف بغداد وبين الاستسلام أو كسر احتكار السلاح ..

ولهذا كانت سنة ١٩٥٦ لا بد أن تكون سنة المواجهة وفي كل مرة انتزعت مصر حق الاختيار أو مارسته تجمعت اوربا أو قواها الرئيسية لتمنع هذا الخطر : حدث هذا في عام ١٨٤٠ وفي سنة ١٨٨٢ ، وفي سنة ١٩٥١ ، وكان لا بد أن يحدث سنة ١٩٥٦ ، وفي هذه المرة لم تكن اوربا وحدها ، كانت معها الولايات المتحدة الأمريكية !

ومنذ أوائل ذلك العام تجمعت أربعة أطراف متباينة لأسباب وأغراض مختلفة حول هدف واحد هو القضاء على خطر ناشيء ناجم في مصر ، ولم يكن رفض تمويل السد العالي سوى بداية الاستدراج الذي يسبق الهجوم .

كان الطرف الأول إسرائيل .

كان بن جوريون رجل الولايات المتحدة الأول في الشرق الأوسط ، وكان هو الذي نقل ولاء الحركة الصهيونية خلال الحرب العالمية الثانية من بريطانيا الى أمريكا ، وتم ذلك في مؤتمر بلتيمور الشهير في تاريخ الصهيونية ، ولقد عاد في

فندق بهذا الاسم فى نيويورك ، واعلنت فيه الصفقة مقابل انشاء دولة كاملة فى الشرق الاوسط هى اسرائيل .

وقد خلع بن جوريون فى ذلك المؤتمر النشاتى البريطانى القديم شيادة حاييم وايزمان ، واصبح بالفعل الرجل الأول ، وكان ذلك العالم البريطانى هو الذى يتصدر الحركة الصهيونية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، وكان هو الذى قام بنقل الولاء من المانيا الى بريطانيا مقابل وعد بلفور واقامة الوطن القومى فى فلسطين .

وقد ولدت الحركة الصهيونية فى اواخر القرن الماضى فى كنف الامبريالية الالمانية ـ وكانت الاستعمار الجديد فى ذلك الحين ـ وكان شعارها ـ الزحف شرقا ـ اى نحو روسيا وشرقى اوربا ، ثم النزول الى الشرق الاوسط حتى لقب آسيا وخلع الاستعمار القديم البريطانى والفرنسى والهولندى والمحلول محصلة .

وكان امبراطور المانيا لهذا هو اول حام ووسيط للحركة الصهيونية لدى السلطان العثمانى لكى يمنح اليهود حقوقا فى فلسطين ، ولتنفذ المانيا الى الشرق الاوسط .. وقد قال هيرتزل للقيصر الالمانى يومئذ « ستقيم دولة تتكلم بالالمانية فى الشرق الاوسط » .

وخلال الحرب العالمية الاولى وقرب نهايتها ادرك الراسماليون اليهود الكبار وهم الذين يتزعمون الحركة الصهيونية ويشاربون بها ان المانيا مهزومة لا محالة ، ولهذا سارعوا بنقل الولاء لبريطانيا عن طريق وايزمان ، بل ساعدوا فى التعجيل بهزيمة المانيا ، وهى المساعدة التى لم يغفرها لهم هتلر ، وكانت سببا حقده العارم عليهم .

وخلال الحرب العالمية الثانية بدا واضحا ان شمس الامبراطورية البريطانية التى خلعوها طويلا سوف تغرب ، وان

المستقبل للرأسمالية والامبريالية الجديدة الامريكية ... ومشاريع اقطاب الحركة الصهيونية بنقل الولاء ، وقام بن جوريون بعقد صفقته ، وكان الطرف الآخر مستعدا ومرحبا تماما بها .

كانت الامبريالية الجديدة قد اكدت وجودها الاقتصادى فى المنطقة بحقول البترول ، واكدت وجودها العسكرى بسلسلة القواعد الكبرى ، وكان لا بد ان تحقق وتؤكد وجودها السياسي بدولة كاملة تقيمها لحسابها .

وكان « بن جوريون » رجلا كما تتمنى امريكا تماما ! كانت احلامه واسعة من النيل الى الفرات ، وكان يؤمن بالعنف أقصى العنف وانه وسيلة لتحقيق كل شيء ، والرجل النموذجي عند الامبريالية الامريكية هو الرجل القوى « حامل المسدس » الذي يكتسح منطقة بأكملها ويفرض عليها مستقبل الحضارة الامريكية .

كانت تلهمه آمال مفصلة من التوراة تقول : « سوف يرسلك الله الى الارض التي تذهب اليها لتملكها ، وسوف تتهاوى امم كثيرة تحت اقدامك .. سبع امم اكبر منك واقوى ، وسوف تقضى عليهم ، وسوف تحرمهم عن آخرهم ولا تعقد عهدا معهم تهزمهم وسوف يسوقهم امامك محطمين وحينئذ سوف تسحقهم كلهم ، وسوف تقضى عليهم ، وسوف تحرمهم عن آخرهم ولا تعقد عهدا معهم ولا تأخذك اية رحمة أو شفقة بهم ولا تسكب عينك دمعة واحدة عليهم » وكانت هذه الامم بلا شك العرب ، وكان العنف والوحشية نحو العرب بالنسبة له تطبيقا وتقريبا « اليا » .

وكان بن جوريون يؤمن بأن حرب سنة ١٩٤٨ « حرب لم تتم » « حرب ناقصة لم « تقدر » فيها الامم السبع عن آخرها » وقد افسدتها عليه الدول الكبرى « كلها » بتدخلها « لانقاذ » العرب ، فهناك ما زالت هناك حرب أخرى فى خطة اسرائيل ،

وعلى عاتقها ، وعليه هي رسالة حياته التي نزل كأنبياء اسرائيل القدامى لتحقيقها ..

وبعد قيام الثورة في مصر اعتقدت الولايات المتحدة الامريكية لبعض الوقت انها تهيمن على النظام الجديد ، وانها تستطيع ان توجه او تحور سياساته ، واعتقدت الولايات المتحدة انها تستطيع ان تحل مشكلة الشرق الاوسط وعقدة العقد ، وان تعقد الصلح بين مصر واسرائيل تحت المظلة الامريكية ، وبذا يستقر الشرق الاوسط ويسود السلام « الامريكي » .

وفي اواخر سنة ١٩٥٢ طلب ال بي جوريون ان يتنحى لتجربة اسلوب آخر غير « العنف العاري » في التعامل مع النظام الجديد، ولهذا جيء بموسى شاريت وزير الخارجية وزعيم « الحمائم » في اسرائيل وكلف بتشكيل الوزارة وان يكون وجهة مقبولة تستطيع عقد الصلح وتبادل الاعتراف بين مصر واسرائيل .

وخرج بن جوريون كارها ، وخلع على تنحيه ثوبا مثاليا وصوفيا ، واعلن انه سوف يعتزل في مستعمرة بعيدة في النقب « سده بوكر » للتعبد والتأمل ، ولكنه اشترط شرطا واحدا خاله وهو ان يتولى اثنان من اخلص اتباعه وزارة الدفاع . ورئاسة الاركان في جيش الدفاع ، وكان الاول هو « بنحاس لافون » والآخر هو « موشي ديان » وكانت وزارة الدفاع هي معقل بن جوريون الاول ، وكان جيش الدفاع « القبضة المقدسة لتحقيق حلم اسرائيل » وطالما ظلت في يده فلا خوف !

وكان « موسى شاريت » يعتقد ان العنف المستمر حلقة مفرغة لن تنتهي ، ولن تفيد ، ولا بد لاسرائيل من « سياسة » تنقل منها الى العرب التي تلتحم هي والمنطقة ، وتغفر عهودها وهذا هو مصيرها الأخير » .

وتوالت المساعي والوساطات ومن كل مكان كانت التنازلات المطلوبة من مصر وحدها وبلا اعتراف بأى قرار من قرارات الأمم المتحدة .

وفي فبراير سنة ١٩٥٥ كان دالاس قد انتهى الى أن النظام في مصر قد « تمرد » وخرج من فلك الغرب نهائيا ، ولهذا لا بد أن يذهب ، وكذلك « المعتدلون » في اسرائيل ، لأنها لم تخدع أحدا وأصبح لا بد من عودة « الصقور » والوحوش وزعيمهم الكبير .. وعاد بن جوريون أولا الى وزارة الدفاع قبل أن يعود الى رئاسة الوزارة ، وعاد مزهوا ، اذ ثبت أن لا غنى عنه ، وأن سياسته هي الوحيدة ، ولا بديل لها وكل توقعاته قد تحققت .

وبعد عودة بن جوريون الى وزارة الدفاع بأيام حدثت غارة غزة الشهيرة والتي كانت نقطة التحول وقد اعترف « شاريت » أنها تمت بعلم وتدبير بن جوريون الذى كان يعمل بلا كلل من « صومعته » في الزرعة ، وقد ذرعها من هناك ووضع خطة شاملة » .

وكانت خطة بن جوريون التي وضعها في الصحراء وبدأ تنفيذها تقوم على ثلاثة أركان :

* بعث حركة تخريب داخلية واسعة تقوم بها شبكات التجسس والتخريب الاسرائيلية داخل مصر ، وعليها أن تشيع القلق والفوضى لتثبت عجز النظام وتعطى الغرب مبررا للتدخل .

وتنفيذا لهذا التخطيط بدأت المخابرات الاسرائيلية بالعملية التي اشتهرت بعد ذلك باسم « فضيحة لافون » وقام الجواسيس الصهيونيون بمحاولة لاشعال حرائق والقاء قنابل زمنية في مكاتب الاستعلامات البريطانية والامريكية في مصر ، ولكن فشلت العملية بسقوط « الخلية » الأولى ثم ضبط الشبكة

كلها « بنحاس لافون » الذي كشف بسجلات عن مسئولية بن جوريون ، واثار فضيحة اكبر .

● وبعد سقوط الشطر الأول كان لا بد من تعويضه في تنفيذ الشطر الثاني ، وكان يعتمد على القيام بسلسلة غارات مركزة وبالغة العنف على مواقع الجيش المصري على الحدود الاسرائيلية ، ولزعزعة ثقة المصريين والفلسطينيين والعرب عامة فيه .

وقد بدأت الغارات بغارة غزة الشهيرة ، واستمرت بغارات اخرى كان من اكثرها وحشية الغارة على « سوق غزة » حيث ضرب اللاجئون بمدافع الهاون يوم السوق ، ثم غارات دير البلح وخان يونس والصبحة ، وتوالت غارات لا تتصل ارتجالها على الحدود السورية والأردنية حتى لقد اضطر همرشلد ان يصرح « بانه بربرية ولا مبرر لها » واعلن الجنرال « بيرنز » رئيس لجنة الهدنة يومئذ انها « تثير لدى كل القلق والخطر حول المستقبل » .. !

ولم تجد مصر سوى ان يتطوع الفلسطينيون في غزة لكي يدافعوا عن انفسهم ، وتكونت فرق « الفدائيين ردا على بن جوريون » فليس هناك رد آخر على العنف الصهيوني سوى الدفاع الذاتي الفلسطيني ، ولكن الرد الكبير كان في صفقة الاسلحة .

وفي ذلك الوقت كانت القوات المسلحة المصرية لا تملك شيئا تقريبا ، كان لديها ست طائرات صالحة للعمل وثلاثون طائرة معطلة وليس هناك قطع غيار .

ورفضت بريطانيا بيع هذه القطع ، وكان ٦٠ ٪ من دبابات الجيش المصري ايضا شبه معطلة ، وتحتاج الى اصلاح كبير « وقطع غيار جوهرية ، وكان لدى الدبابات من الذخيرة ما يكفي ساعة واحدة من القتال ، وكانت المدفعية المصرية في نفس

السلاح ، بل حتى البنادق والأسلحة الصغيرة كانت قليلة لا تكفي وبالطبع فشلت كل المحاولات للحصول على الاسلحة من بريطانيا او امريكا .. وكانت هذه حقائق معروفة ..

● وكانت المرحلة الاخيرة والنهائية من الخطة التى وضعها بن جوريون بعد التخريب والغارات هى الهجوم والحرب الشاملة ضد مصر وتبدأ باجتياح سيناء ، وبعد أن تكون شبكات التخريب قد اشاعت الفوضى وبعد أن تكون الغارات قد أثارت الفزع وشلت الارادة تبدأ الحرب وتكون مجرد نزهة عسكرية .

وبعد فشل التخريب والرد على الغارات كان رأى بن جوريون حينئذ انه لا بد من الاسراع بالحرب ، وذلك قبل أن تصل الاسلحة الروسية « لا بد ان يسقط النظام فى مصر قبل ان تصل الاسلحة الروسية » كما قال صراحة .

وفى اكتوبر سنة ١٩٥٥ استدعى بن جوريون الخلصي المرشدي ـ موشي ديان ـ من فرنسا لكلفه المهمة الكبرى ، وكان بن جوريون قد ارسله اليها ، وكان العسكريون الفرنسيون بعد هزيمة « ديان بيان فو » فى الهند الصينية واشتداد الثورة وتوالى الهزائم فى الجزائر يشعرون بحقد خاص ضد النظام فى مصر ويحملونه مسئولية كل ما حدث ويحدث فى شمالى افريقيا .

وكان السفير الفرنسى فى « تل أبيب » صهيونيا متحمسا لا يمل الدعوة لحلف فرنسى اسرائيلى ضد مصر ، ولهذا ذهب موشى ديان بإيعاز من بن جوريون ليدرس الاوضاع .

وذهب بعده لافون وشيمون بيريز شاريت الى فرنسا ووجدوا الابواب مفتوحة امامهم على مصاريعها ، ليحصلوا على اى نوع واية كمية من الاسلحة .. ضد مصر !

وجهتها استجابوا الى السلاح الحاسم وهو « طائرات ميستير ٤ » بكميات اكثر مما تستطيع فرنسا ارسال ايزنهاور ودالاس مبعوثهما السابق الى مصر « هربرت همفري » يحمل التصريح لفرنسا بان تحول طائراتها « ميستير ٤ » التي كانت تنتجها لحساب حلف الاطلنطي الى اسرائيل !

وبعد هذا طلب بن جوريون الى ديان ان يعد « خطة غزو كاملة لمصر » .

وفي ديسمبر سنة ١٩٥٥ قدم ديان الخطة الكاملة ، وعرضت على مجلس الوزراء الاسرائيلي ، وطلب ديان واقره بن جوريون ان يبدأ التحرك بعد شهر من بدء العام الجديد ، ولكن « رغم حماسه الحار ورغم توسلاته — اي بن جوريون — رفض مجلس الوزراء وقالوا : انه لا بد من مبرر ، لا بد من ظروف اكثر ملاءمة » .

كما قال ديان في مذكراته واضاف « وكان من السهل خلق المبرر » .

ولم يخف هذا في حديثه بن جوريون كان واثقا ، وصرح لمراسل النيويورك تايمس : « سوف تكون في العقبة في العام القادم ، وسوف نستولي عليها من البر والبحر والجو معا » .

وفي يونيه سنة ١٩٥٦ قرر بن جوريون اقالة موشي شاريت زعيم الحمائم الذي عارض الحرب ، وكان يتولى وزارة الخارجية بعد ان اصبح بن جوريون رئيس الوزراء ، وعين بدلا منه جولدا مائير « اشجع الرجال » .

وقال شاريت : « ارغمني بن جوريون على الاستقالة ، لانه كان يعتقد انني العقبة في سبيل ما كان قد استقر عليه ، وهو انه لا بد من حرب قريبة جدا مع مصر ، كانت الحرب قادمة ويجب الا اعارضها ، ولا بد ان اخرج وانا لم اكن لاعارض الحرب تحت اي الظروف ، ولكن حكمتي كانت تختلف عن حكمته » .

وفي يوليو سنة ١٩٥٦ قرر موشي ديان أن القوات الاسرائيلية جاهزة تماما وكاملة الاستعداد للغزو .

ولم تكن مصادفة أن قرر جالاس في ذلك التاريخ سحب الاشتراك في تمويل السد العالي ..

ولقد كتب مؤرخ حياة بن جوريون الرسمي بن زوهار يقول : « كانت الحرب ضد مصر مقررة لدى بن جوريون منذ عاد الى وزارة الدفاع في فبراير سنة ١٩٥٥ » .

وكتب أيضا « كانت أزمة السويس بمثابة طلقة ، وهي لم تغير في شيء من خطط اسرائيل التي كانت ستهجم على اية حال ، ولكنها سهلت لها أصعب الأمور وهو السلاح والحلفاء » وطبعا اليهود .

كان حقد بن جوريون على عبد الناصر بلا حدود .

كان يقول : « ان لليهود عدوين تاريخيين هما فرعون في القديم ، وهتلر في الحديث ، ولكن عبد الناصر فاق الاثنين معا » وقال : « بعد سقوط نجيب وانتصاره في مارس ١٩٥٤ أيقنت انه لا بد من الحرب لاسقاطه » ولم يكن بن جوريون وحده في هذا التصميم ، بل كانت هناك بريطانيا .

وفي الاول من مارس سنة ١٩٥٦ عزل الملك حسين ملك الاردن الجنرال جلوب باشا من قيادة الجيش عزلا مفاجئا ، وطلب اليه مغادرة البلاد في اربع وعشرين ساعة .

وكان « جلوب » كل شيء في الأردن ، وقد ارتبط اسمه بوجودها نفسه ، وكان عزله مفاجأة لم تسبقها اية مقدمات أو تكهنات .

ولقد دهشت كل الأوساط العربية والغربية لهذه الاقالة ، ولم تتبين الأسباب الا بعد ذلك وكانت :

ترضية واستمالة القوى الوطنية في الاردن ؟ وهي القوى التي هبت وقاومت حلف بغداد ، وانضمام الاردن اليه ، والتي اثبتت بوضوح انها اقوى بكثير واقدر على الحركة مما كان يتصور الحكم في الاردن ..

وكان الحكم قد قبل الانضمام الى حلف بغداد قبولا تاما ، ووافق على خطة ايدن في قيام حلف عربي ــ بريطاني يعتمد على نوري السعيد وعلى الاسرة الهاشمية في بغداد وعمان ، ويقوم بعزل القاهرة اذا عارضت ، ولكن انتفاضة القوى الوطنية اسقطت مشروع الانضمام الذي كان على وشك التوقيع ، وقلبت كل الخطط ، بل قدمت البلاد قولها وفرضته لم يتوقعه الملك .

وبعد هذا الفشل كان لا بد من ترضية لهذه القوى وخاصة في الجيش ، ولا بد من ضحية اسهل تلقى عليه كل التبعة ، ولا بد من عملية ولو مؤقتة بين الحكم وبين هذه القوى التي انبثقت فجأة ..

وكان عزل جلوب استمالة للولايات المتحدة الامريكية ، كان جلوب يمثل السيادة الامبراطورية القديمة ، وبقدر ما كان هذا الوجود عزيزا على ايدن يتشبث به ويقاتل من اجله بقدر ما كان ثقيلا كريها على الامريكيين وخاصة دالاس .

وبعد فشل ايدن والخطة البريطانية لمشروع الحلف بقي الحكم في الاردن يفكر ــ بعد نظر في نقل الولاء او بعضه للسيد الجديد الاقوى والاقدر ..

وقد عزل جلوب ايضا ، لان الملك كما قال في مذكراته كان يريد حرية التصرف !

« وكان جلوب يسيطر على كل شيء تقريبا ، وكانت اصغر الامور واكبرها تعرض عليه وعلى السفير البريطاني قبل ان

يعرض على (أى الملك) وكان كل سياسى كبير أو صغير يذهب لاستشارته قبل أن يأتى إلى . وقد طلبت روسيا ذات يوم أن تعترف بها فذهب رئيس الوزراء ليبحث مع جلوب والسفير البريطانى الأمر قبل أن أعرف أنا الموضوع هذا فضلا عن أن جلوب كان يرى ألا يتولى الضباط العرب قيادات قبل عام ١٩٨٥ » كما روى فى مذكراته » .

وقد قرر الملك أن يكون عزل جلوب سرا لا يعرفه أحد ، وأن يقوم به مفاجأة ويتم فى أسرع وقت حتى لا يتسرب النبأ ويقوم جلوب أو أنصاره بحركة مضادة ربما بانقلاب ضد الحكم .

ولم تعرف القاهرة بالمسألة جلوب قبل وقوعها ، وصنعها وسط الأنباء وصلت غامضة ، ولم يستدل منها على أسباب الإقالة أو ظروفها .

وقد تصادف أن كان سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا فى القاهرة فى طريق عودته من كراتشى ، وكان موعدا له أن يقابل عبد الناصر فى نفس اليوم ، واعتقد جمال عبد الناصر يومها أن بريطانيا هى التى سحبت جلوب من منصبه .. وبدأ عبد الناصر حديثه مع سلوين لويد قائلا : أن هذه خطوة ايجابية من جانب بريطانيا ، وأن جلوب يمثل الاستعمار القديم ، ولا بد أن تتطور بريطانيا ومفهوم الجديد فى العالم العربى ، ودهش سلوين لويد واعتبرها فى نفسه .

وكما قال : « تصورت أن عبد الناصر يهزأ بى ويتعمد السخرية منى .. ولم أعرف الحقيقة إلا بعد ذلك بعشر سنوات » .

ولكن عزل جلوب « كان بالنسبة لأيدن نهاية كل شيء ، كان « هضبة لبنان » افتقده الرشد ، كان جلوب يمثل الوجود البريطانى وطرده يعنى سقوط بريطانيا ، ولا يمكن أن يتم ، ولى

ثورة غضبه التي ابدى كل المسئولية على مصر ، ولا يمكن ان يكون هناك مسئول سوى عبد الناصر !

وقد اعتقد ايدن ان اتفاقية سنة ١٩٥٤ لم تكن اعترافا بحقوق مصر او بحقائق العصر ، ولكنها مجرد صفقة وامتداد لمعاهدة سنة ١٩٣٦ وتنازلات من بريطانيا مقابل حلف جديد ضمني مع مصر ، واذا كانت معاهدة سنة ١٩٣٦ ثمنا لوقوف مصر مع الحلفاء في الحرب « القادمة » فان اتفاقية عام ١٩٥٤ لا بد ان تكون ثمنا لوقوف مصر مع بريطانيا في حربها الباردة في الشرق الاوسط سواء ضد الولايات المتحدة او ضد روسيا وقاعدة للوجود البريطاني فيه ، فالمعدة اساسية « مصر مفتاح الشرق الاوسط » كما كان يقول دائما .

وقد ظل ايدن برغم كل الاحداث يفقد الامل يوما ، ويستعيده يوما آخر بالنسبة لمصر حتى طرد جلوب وكانت بالنسبة له النهاية .

وكتب النابمى مميرا عنه تقول : « ان تحقيق الاستقرار في الشرق الاوسط بالتعاون مع مصر سياسة انتهت تماما » .

واجتمع خبراء وزارة الخارجية البريطانية بعدها برئاسة انتوني ناتنج لرسم سياسة جديدة تهدف الى « تصفية ناصر » واعدت مذكرة طويلة لسياسة منفصلة ترمى اولا الى « عزل عبد الناصر عن باقي الزعماء العرب ثم اليلد في تصفيته » .

وبعد ان قرا ايدن المذكرة استشاط غضبا ، واتصل بالتليفون يبحث « حتى » (أي ناتنج) وكنت يومها الفي حفل عشاء لهارولد استاسن السياسي الامريكي ، وقمت الى التليفون ووجدت ايدن يصرخ في التليفون : « ما هذا الهراء الذى كتبته حول حصار ناصر وعزله تمهيدا لتصفيته ؟ انني اريد ان احطمه ، اريد ان تقضي عليه قبل ان اتخلص منه تماما .. ألا تفهم .. ؟

نريد أن نزيحه نهائيا ولذا كنت أنت وخبراء وزارة الخارجيـــة لا توافقون معي فيجب على الفور أن تأتوا ليبحث الأمر » .

وذهب ناتنج واخذ يهدئه من روعه ، وحينما اقترحت انه قبل تحطيم ناصر والقضاء عليه لا بد من العثور على زعيم آخر معارض يحل محله لكيلا يؤدي ســـقوط ناصر الى الفوضى أو الانهيار ــ صرخ ايدن مرة اخرى : لا اريد بديلا ولا يهمنى فى شيء ان تعم الفوضى أو الخراب فى مصر .. ! » .

وكان سلوين لويد يؤيد ايدن ، بل كان يحضر مقوله « فقدت الأمل في ناصر قبل ايدن بزمن طويل ، وكنت أرى انه لا بد من الحرب بعد صفقة الاسلحة مباشرة » .

وبدأ سلوين لويد يقنع الأمريكيين بالاشتراك فى تدبير انقلاب فى مصر على غرار انقلاب مصدق ، وكانت خطـــوة كبيرة لا تستطيعها بريطانيا ، ولا تؤمن عليها وحدها ، ولكن دالاس لم يكن متحمســـا لانقلاب من اجل بريطانيا أو من أجل بلوب ، فهى ان الموقف تغير تماما حينما اعترفت مصر بالصين الشعبية .

وقد عقد أول اجتماع لبحث « العملية » بين مندوبين من وزارة الخارجية البريطانية ومندوبين من وزارة الخارجيـــة الامريكية فى لندن ، وأعد مشروع خطة بارك دالاس ، وحينئذ نقلت الخطة كلها للتنفيذ الى ادارة العمليات الخاصة » .

واشترك رجال المخـــابرات البريطانية وممثلون للمخابرات الامريكية فى تلك الاجتماعات ، وكانت الســـابقة التى يدبر على نسقها الانقلاب هى ايران والانقلاب الذى اطاح بمصدق ، ولكن بعد بحث طويل مفصل استقر رأي الجميع على أن نجاح المحاولة في ايران كان يرجع الى وجود معارضة قوية وقائمة وملتفة حول الشاه ، ولكن الامر يختلف تماما فى مصر ، فليس هنـــاك معارضة منظمة أو ســـابقة ، وليس هنـــاك زعيم منـــافس

يعتمد عليه ، ولهذا ألقى المشروع جانبا ، وقرر ايدن أن لا مناص من الحرب .

« ان سياستنا في الشرق الاوسط تقوم على حماية مصالحنا في العراق والخليج الفارسي وهي الآن في خطر من مصر ونفوذ مصر بقيادة عبد الناصر ، ولا بد من الحرب لمحاربته والقضاء عليه » .

بالرستون ضد (محمد علي) ، وجلادستون ضد عرابي ، وكرومر ضد (سعد زغلول) ، وكما قال أحد مؤرخيه « في مارس سنة ١٩٥٦ اتخذ ايدن قرارا شخصيا
بان عبد الناصر عدو كل مصالحه في الشرق الاوسط ، وانه لا مناص من تحطيمه لرد هيبة بريطانيا ، ولرد هيبته الشخصية ، وادى به هذا الى حرب السويس حيث فقدت بريطانيا هيبتها ، وفقد ايدن كل مستقبله وصحته » !

وكان الطرف الثالث فرنسا .. ولقد قامت الثورة الجزائرية في الاول من نوفمبر سنة ١٩٥٤ وكانت من أهم احداث العصر ..

ولقد بدأت الثورة في بلاد شمال افريقيا العربية في الخمسينات ، وقد بدأت في تونس ، ثم امتدت الى المغرب ، ولكنها ظلت في كلا البلدين قلقة ومتعثرة وظلت بعيدة عن الجزائر ، وكانت الجزائر قد انتفضت انتفاضة ضخمة بمجرد نهاية الحرب ويوم اعلان الهدنة ، ولكنها قمعت وبضراوة قتل ٤٥٠٠٠ جزائري على الاقل !

وبدا بعدها ان الجزائر خامدة لوقت طويل ..

وبعد الثورة في مصر وجدت ثورات المغرب العربي سندا تعتمد عليها ، وهي حتى ذلك الحين كانت تعتمد على المساعدة المتقطعة الضئيلة التي تقدمها الجامعة العربية .

قام نظام ثوري ملتزم في مصر ، واطل مسئوليته قيادة الثورة العربية والافريقية وبلغت مرحلة جديدة .

ولم يكن غريبا ان تقوم الثورة في الجزائر وتسقط كل حواجز الحصار التي كانت تمنعها .

وقد انعزج امتداد الثورة الى الجزائر الاستعمريين الفرنسيين منذ الفرع ، فقد سرى اللهب الى المملكة المرحومة كما كانت بعدها الجزائر ، واصبح يهدد بان تمتد الثورات الثلاث في تونس والمغرب والجزائر ، وان تقف فرنسا مرة اخرى عاجزة ، وتغرق في محيط واسع شاسع الاطراف من الثورة .

واتخذت الثورة الجزائرية الحلف الفسرى كله فقد تحدت الثورات الثلاث بعد ان تلتحم الى ليبيا لم تلتقى كلها ومصر ؟

واذا تم هذا فسوف يشتعل كل الشاطىء الآخر « العربى » للبحر الابيض المتوسط ، وهو خط الدفاع الثاني عن اوربا وخط الدفاع الأول عن أفريقيا ؟ ويضم اهم القواعد العسكرية الامريكية والاطلنطية . كانت قاعدة هويلس الامريكية في ليبيا هي اكبر القواعد خارج الولايات المتحدة وكانت في المغرب خمس قواعد امريكية اكبر برية وبحرية وجوية وجوية ، وكان المرسى الكبير في الجزائر اكبر قاعدة بحرية اطلنطية في غرب البحر الابيض .. وكانت بنزرت في تونس قاعدة تونسية .. واذا ما تهددت كل هذه القواعد سقطت كل المشروعات والخطط الغربية ، وهذا خطر يدفعه الغرب منذ خمسة قرون او اكثر ، وهو محور كفاحه في هذا الجزء من العالم .

وتداركا لهذا الخطر تقرر الاسراع بمنح تونس والمغرب بعض التنازلات ، والافرج عن بورقيبة في تونس ، والعهد الملك محمد الخامس للعرش في المغرب ، وتولى العسكري في البلدين

الطاقم « القربي » « الوطني » وهو الذى يؤمن بالاستقلال في اطار الغرب وبالتحالف مع فرنسا .

واحكم المحاصر ـ أو هكذا بدا ـ حول ثورة الجزائر ، واتخذت كل الضمانات والاجراءات لتحييد ليبيا ، ولتظل كما كانت دائما « منطقة حرام » وعازلة بين الشرق والغرب .. وامان بصراحة أن الهدف الأول والأخير هو ابعاد مصر .. معسكر كل المتاعب ..

وفشلت هذه السياسة ، واشتدت الثورة في الجزائر ، واصبحت ثورة شعبية كاملة نفذت الى اعماق القرى والبوادي والمدن ، ووقف امامها كل الخداع او البطش الفرنسي عاجزا ..

وقد ظل الجيش الفرنسي منذ الهزيمة المنكرة في الحرب العالمية الثانية يخرج من هزيمة ليلقى اخرى ! وكانت آخر هزائمه واشدها وطأة حتى ذلك الحين في الهند الصينية في « ديان بيان فو » وكانت نهاية فرنسا في آسيا ، وبعدها الرعب من هزيمة ثالثة في الجزائر سوف تعني نهاية فرنسا في افريقيا .. وفرنسا بلا امبراطورية ستفقد « دولة من الدرجة الثانية او الثالثة كالتسمسا او هولندا » وهو ما لا يمكن ان يحدث ابدا « كما قال احد اقطاب الاستعماريين الفرنسيين .

وكان العسكريون الفرنسيون يرفضون الاعتراف بهزائمهم ويلقون تبعتها دائما على الآخرين اى السياسيين الفرنسيين والاحزاب الذين طعنوهم من الخلف في الحرب العالمية الثانية وعلى الشيوعيين المحتجين في الهند الصينية ، ثم على عدو جديد في الجزائر هو « المصريون » وخاصة قائد هذا النظام « عبد الناصر » .

ان ما يحدث في الجزائر ما كان ليحدث لولا مصر ولولا عبد الناصر ، وكل المصاعب والمعارك التي تواجهها فرنسا في شمال

افريقيا من صنع عدو واحد هو المصريون ، ولم تكن الجزائر لتشتعل.. ولم تكن لتستمر لولا هذا السيل من الاسلحة والمتطوعين والفدائيين الذي يتدفق من مصر .. والخماد ثورة الجزائر لابد ان يبدأ في القاهرة ، ولا يمكن ولا فائدة من ان يستمر من أي مكان آخر .

قال جاك سوستيل حاكم الجزائر السابق واحد اقطاب الاستعماريين المتعصبين بعد ذلك :

« ان غزو عبد الناصر انما يعني ان فرنسا تعرف كيف تضرب رأس الاخطبوط الذي يمد بأذرعه ليطلهم شمال افريقيا الفرنسية ، ان الكتائب القذرة التي تصدر منها التعليمات لسفك الدماء ، والارصفة التي تشحن منها الاسلحة للقتل في الجزائر ، والثكنات التي يدرب فيها الارهابيون — كلها سوف تقع في قبضتنا ! »

وقد بدأت فرنسا منذ اندلاع ثورة الجزائر تبحث عن فرصة ، واهتدت سريعا الى ان الخطة المثلى هي التحالف مع اسرائيل للقضاء على مصر ..

والتحالف مع اسرائيل لن يؤدي فقط الى تأمين شمالي افريقيا ، ولكنه سوف يعيد فرنسا مرة اخرى منتصرة وظافرة الى الشرق الاوسط ..

ولم تنس فرنسا قط ، ولا يمكن أن تنسى طردها من سورية ولبنان .. وبعد وجود كانت تعتقد انه طبيعي وتاريخي ويبدأ منذ الحروب الصليبية ، ولذلك فلا بد ان يتم الحلف وان تسقط مصر سريعا ..

« ان مستقبل شمالي افريقيا الفرنسية ، وربما مستقبل فرنسا في الشرق يتعلق بما يحدث وما سوف يحدث في مصر ! »

وارسلت فرنسا سفيرا « صهيونيا » الى تل ابيب السيد « جاك

جيلبرت » لم يكن يفوقه في تعصبه سوى بن جوريون نفسه ! ليكون التنسيق سهلاً وشاملاً ..

وتحت شعار الفرنسي كل الإيرف العمل للتصحيح الأوضاع وموازين القوى في الشرق الأوسط واعادتها الى وضعها الطبيعي » .

وارسيت اسس الحلف ، وكانت النتائج متبادلة ومتكافئة : كانت فرنسا في حاجة الى غزو يسقط النظام في مصر ، وكذلك كانت اسرائيل في حاجة الى اسلحة كبيرة وخاصة الطائرات ، وكان الخوف والقلق من طائرات « الميج » الروسية التي سوف تحصل عليها مصر جدداً ، وكانت فرنسا تملك طائرات الميراج والميستير ، بل لديها الطيارون لو احتاج الامر ..

وسافر رجال اسرائيل وكان من بينهم « موسى شاريت » زعيم الماباي ليعقدوا الصفقات ، وتمت لهم كل التسهيلات والمساعدات من السياسيين وخاصة من العسكريين الفرنسيين ، واستطاعوا ان يحصلوا على كل انواع الأسلحة سراً وعلناً وصفقات معلنة او صفقات اخرى اكبر سرية ومهربة .

وفي اوائل سنة ١٩٥٦ جاء الاشتراكيون الى الحكم في فرنسا بزعامة « جي موليه » وكان هذا الفصل شيء يحدث بالنسبة لاسرائيل وكان يعني لصعيده ودعم الحلف الفرنسي ..

كان نفوذ اسرائيل في الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية الاوروبية « اليمينية » واسعاً وكان حزبا الماباي والمابام اكبر الاحزاب الاسرائيلية اعضاء الدائمي في الاشتراكية الدولية التي تضم هذه الاحزاب ، ولكن النفوذ الصهيوني في الحزب الاشتراكي الفرنسي كان بارزاً بالذات منذ عهد زعيمه « ليون بلوم » اليهودي ..

وكان الاشتراكيون الفرنسيون حلفاء مخلصين ومتفانين للحلف الغربي ، وقد كانوا اول من نقض حلف المقاومة مع ديجول

والشيوعيين ، وانحازوا للولايات المتحدة ، واستمروا من اعمدة الوجود الأمريكي في فرنسا ، وكان يطلق عليها « التحول » لليون بلوم » .

وقد انتخب الاشتراكيون وجاءوا الى الحكم على أساس وأنهم هم حل المشكلة الجزائرية حلا عادلا اشتراكيا ، ولكن بمجرد أن تولوا السلطة نقضوا كل العهود واعلن « جي موليه » اقتناعه التام بعدالة قضية المستوطنين الفرنسيين ، ثم اقتنعه أيضا برأي العسكريين الفرنسيين : وهو أن القضاء على التمرد في الجزائر لا بد أن يبدأ في القاهرة ، وهو كان داعية لهذا ، ولم يكن في حاجة لمن يقنعه .

كان عبد الناصر شبحا مؤرقا له حتى قبل أن يتولى الوزارة ، وكان جي موليه مثل كثيرين من الفرنسيين من أبناء جيله يعاني مما يمكن أن يسمى عقدة ميونيخ ، ولما أصبح رئيس وزراء كانت المقارنة بين ناصر وهتلر محور حديثه ، كان يحتفظ بنسخة من كتاب عبد الناصر « فلسفة الثورة » ويستهويه دائما أن يشبهه بكتاب « كفاحي » لهتلر ، وكان يعرف مقاطع منه لكي يثبت أن عبد الناصر يطمع في اقامة امبراطورية عربية اسلامية للثار من أوربا كلها ، وانه يريد السيطرة على بترول الشرق الأوسط لكي يملي ارادته على أوربا وعلى الولايات المتحدة ايضا .

ولهذا فان القضاء على عبد الناصر كان ضرورة « حضارية » لحماية الغرب ، وليس مجرد ضرورة فرنسية للقضاء على ثورة الجزائر وتأمين الامبراطورية الفرنسية .

وبدأ العمل والتنسيق بين فرنسا واسرائيل قبل مجيء الاشتراكيين في فرنسا ، ولكنه بلغ ذروته بعدهم ، وضعت اسرائيل كل « قدرتها » وكل « خبرتها » في العمل ضد مصر وثورة الجزائر ، وتحت الحكومة الفرنسية « برسالة »

الأسلحة الفرنسية لتحصل اسرائيل على كل ما تحتاجه للعمل الكبير الحاسم : أى توجيه الضربة القاضية لمصر .

ولقد باركت بريطانيا الحلف ، وباركته الولايات المتحدة ، وكانت بريطانيا — وخاصة ايدن — تنظر بقلق وارتياب للحلف الفرنسى الاسرائيلى فى البداية ، ولم تكن عودة الوجود الفرنسى الى الشرق الاوسط تستهوى بريطانيا التى ساهمت مساهمة رئيسية فى طرد فرنسا منه ، ولكن بعد ان اتخذ ايدن القرار الحاسم « بتحطيم » ناصر اصبح مؤيدا ومتحمسا للحلف ومشجعا لأن تقوم فرنسا اسرائيل بالاسلحة بل متعجلا لان يبدأ الحلف .. العمل ..

ولم يكن هناك شيء فى فرنسا يجرى بغير علم الولايات المتحدة .. كانت قبضتها محكمة عليها منذ نهاية الحرب ، وهى قد طردت حكاما بعد حكام وبعد ان اسقطت منديس فرانس رئيس وزراء فرنسا لانه عارض سياسة ضم المانيا الى الحلف الغربى ، ولأنه اوقف الحرب فى الهند الصينية ، ولكن بعد ان تولى الاشتراكيون الحكم فى فرنسا اصبحت هيمنة الولايات المتحدة مطلقة .

واعطيت الاشارة لاستمرار وازدهار الحلف ، لم تكن الولايات المتحدة تريد ان تسلح اسرائيل مباشرة ، حتى لا تحرج علاقاتها بالعرب ، وحتى لا تبدو متحدية ولهذا السبب ذهب هربرت هوفر مبعوثا خاصا من ايزنهاور الى فرنسا يحمل الاذن لها لكى تعطى اسرائيل طائرات « الميستير » التى تحتاج اليها والتى كانت تنتج لحساب حلف الاطلنطى وحده .. واضافت فرنسا انها على استعداد لتزويد الطائرات والطيارين ايضا .

وبذلك تحقق تفوقا لا شك فيه على مصر ، يضمن نتيجة اية معركة قادمة .. والطيران هو السلاح الحاسم وخاصة فى الشرق الاوسط ..

الحرب في جبهتين

وكان الطرف الرابع والرئيسي هو الولايات المتحدة .. ولقد وجدت أحداث تجعل من الضروري أن تسرع وتعجل بالحركة وتكيل ما تريد من ضربات في أحسن وأنسب الأوقات ..

وفي أوائل عام ١٩٥٦ عقد المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفيتي .. وكان « ثورة داخل الثورة » أثار المؤتمر لأول مرة وعلى أوسع نطاق « المسألة الستالينية » وقدم صورة لستالين أثارت العالم كله وصعقته ..]

لم تكن صورة (ديكتاتور) ارتكب أخطاء كبيرة ولكن صورة « هولاكو » أحمر استولى على روسيا وعلى الثورة الاشتراكية وقام بتشويه وتلويث معالمها ومبادئها ، وهو لم حولها إلى أداة قمع بيروقراطية بوليسية ودموية لم يسبق لها مثيل في روسيا إن لم تكن في التاريخ ، ونصب من نفسه إلها مطلق السلطة على روسيا ، واستباح كل الحقوق والحرمات ، وولغ في بحر بلا نهاية من الدماء والأشلاء ، ولولا قوة الشعب وعمق الثورة والمبادىء الشيوعية لما قامت الاشتراكية ولما انتصرت بالرغم من أوحاله .

ولقد كان ستالين حتى ذلك الحين « تلميذ لينين العظيم » « وخليفته » « واخلص تلاميذه » « والمكمل لرسالته » وكان ستالين الذى « بنى الاشتراكية في روسيا أول دولة اشتراكية على الارض » وهو الذي « حمى الاشتراكية » وهزم كل اعدائها العتاة من حروب التدخل حتى هتلر ، وكان هو الذي حمى روسيا مرة اخرى فى الحرب الباردة ، وبنى روسيا مرة ثانية بعد دمار الحرب العالمية الثانية ، ولهذا لم تنجب روسيا بعد لينين سواه ولولا شخصيته وحكمته واحاطته بكل شيء وكل صغيرة وكبيرة ما تحقق شيء سواء في رقص الباليه او علم اللغة او زراعة القمح او صنع القنبلة الذرية .

وكان نقاد ستالين الاشتراكيون يلتمسون العذر ما يلتمسون الى ان ستالين على اية الأحوال ضرورة تاريخية ، وانه كان لا بد من ستالين لينقل روسيا من القرن الخامس عشر او السادس عشر الى القرن العشرين ، ولولا صرامته وقوة شكيمته ما امكن تحويل الفلاحين « الروس الموجيك » بتخلفهم وهمجيتهم الى فلاحين عصريين وعماليين يستعملون الآلات واحدث « التكنيك » !

ولولاه ما أمكن استئصال الانقلابات الروسية المعروفة بطبيعتها ، والتى لم تكف عن التحدى ، قبل الثورة ، وخلال الثورة ، وبعد الثورة وبعد موت لينين خاصة وكانت غالبية هؤلاء المثقفين ترى في ستالين « حلاقا » غير مثقف بما يكفى لان يقود الثورة العالمية ، ثورة العصر .

وكان راى النقاد الاشتراكيين ايضا انه كان لا بد من ستالين لتصنيع روسيا وبناء الصناعة الثقيلة والخفيفة معتمدا على موارد روسيا وقواها وحدها ، وفى ظل التخلف الشديد الذى اورثته القيصرية وظل الحصار المحكم الذى فرضته اوروبا الرأسمالية .

وكان رأيهم انه كان لا بد من ستالين لتعبئة وتسليح روسيا في مواجهة أوربا المعادية التى تحمست ضد روسيا مرارا بعد الثورة

مباشرة ، ثم اوربا الفلاحية التي جعلت رسالتها التاريخية ابادة البرجوازية .

واخيرا كان ستالين ضرورة لتعبئة روسيا لمواجهة العدو الجديد .. في حرب جديدة باردة وهي الحرب الروسية الامريكية ضد العملاق الامريكي .. اكبر قوة راسمالية !

ولهذا فان ستالين ـ مهما يكن ـ صانع تاريخ عظيم ، ارتكب حماقاته ، ولكن جاء المؤتمر العشرون وقدم صورة مضيعة ومشبعة تجاوزت كل شيء ، كل ما قدمه الاعداء الراسماليون او التروتسكيون .

وقد بدا يومئذ ان القيادة الروسية الجديدة رات محو آثار وخطايا الستالينية والتكفير عنها بطريق الصدمة ، وليكون علاجها ولطمها ولتحصيننا ضد ان يقوم ستالين آخر تحت اى الظروف ولا يحلم احد او يجرؤ على ان يكون !

ولم يكن الأمر ليتم سهلا ، كان النظام الستاليني الذى ساد طوال ما يقرب من ثلاثين عاما وبلا ادنى معارضة ما زال قويا في الحزب والحكومة والجيش ، وكان الأسلوب الستاليني ضاربا جذوره في روسيا كلها ، ولم يكن سهلا اقتلاعه ، ولم يكن هينا ان ينزوى « الستالينيون » ويسقطوا عن طواعية واختيار ..

ونشب صراع حاد رهيب ..

وقد اجمع اكثر المعنيين في الغرب على ان المؤتمر العشرين كان دلالة قوة وصحة ، وليس دلالة ضعف ، اذ اصبح النظام السوفييتي يملك الثقة لينقد نفسه وعيوبه ، ويدخل مرحلة جديدة وقد انتصرت روسيا في الحرب الباردة ونمت قوى جديدة فتية في داخلها تريد ان تنفتح على العالم ، وان تعايشه ، وعلى العالم « الغربي » ان يفهم هذه الظواهر ويقابلها في منتصف الطريق ، ولكن كان راى دالاس ومؤيديه ان هذه دلالات ضعف ، بل الدلالات

التي انتظرها وارتعها طويلا .. ان التناقضات قد تفجرت في داخل روسيا وان سياسة الاحتواء قد انهرت وقد بدأ الانهيار ، ولم يبق الا المضي نحو التحرير !

لقد تفكك النظام وحانت الفرصة التاريخية للاامبريالية لكي يطويه .. « كالباطل » !

وقد مرت آثار الحرب العشرين أيضا على اوروبا الشرقية « الاشتراكية » وكانت تعيش منذ نهاية الحرب في ظل نظم « ديمقراطية شعبية » تتولى السلطة فيها جبهات شعبية تضم الشيوعيين والاشتراكيين وأحزاب الفلاحين والاحزاب البرجوازية الديمقراطية التي لم تتعاون مع والنازية وكانت تتصدر هذه الجبهات وتقودها الاحزاب الشيوعية وفي حماية الجيش الأحمر الذى قام بتحرير شرقي اوروبا ..

وحققت الديمقراطيات الشعبية « الاصلاحات الجوهرية » التي طال انتظارها في تلك البلاد التي عاشت قرونا في ظل الامبراطورية العثمانية او النمساوية والتي كانت تسودها نظم اقطاعية شبه رأسمالية متخلفة ، تحققت المطالب الاساسية والملحة للشعوب مثل الاصلاح الزراعي وحرية ومجانية التعليم والتصنيع والتحرر من النفوذ الأجنبي ، والحد من سلطة الكنيسة التي كانت تهيمن بقدر كبير على الحياة السياسية وتساند الاقطاع والرأسمالية !

وقد كان يمكن ان تتطور هذه النظم الى تجارب جديدة ومبتكرة في الديمقراطية والاشتراكية لولا أن نشبت الحرب الباردة ، واشتدت وطأتها وبلغت ذروتها في احداث تشيكوسلوفاكيا ، ويوغوسلافيا على المعسكر الاشتراكي وخرجت عليه ، وادى هذا الى قلق لم نزع فرتفعت بعده صيحة الاشتراكية في خطر ! ! « والحرب العالمية الثالثة على الابواب » !

وأدى هذا الى استيلاء الاحزاب الشيوعية على السلطة كاملة واستئثارها بها واحتكارها لها وتصفية كل الاحزاب الاخرى او الغاء أي دور لها بما فيها الأحزاب الاشتراكية . وساد التزمت الفكري « والايديولوجي » والتعصب السياسي وتعصب كل حاكم في شرقي أوروبا من نفسه « ستالين » يحكم وفق الاسلوب الستاليني وفي تفان وتبعية مطلقة .

واخمد اي صوت ارتفع للنقد او المعارضة بمحاكمات صورية تلوث المتهمين تماما ـ قبل القضاء عليهم بالخيانة والعمالة للرأسمالية والغرب .

وتحولت الاحزاب الشيوعية الى طبقة « جديدة » حاكمة واجهزة بيروقراطية بوليسية تحكم بالارهاب وفي عزلة عن « الجماهير » والبروليتاريا !

وبعد المؤتمر العشرين كان لا بد ان يتغير وينتهي كل هذا ، وما دام قد بدأ في روسيا فلا بد ان يمتد الى كل المنظومة الاشتراكية .. ؟

وبدأت القيادات والاجنحة المستنيرة داخل الاحزاب الشيوعية تطالب بتصحيح الاوضاع وتصحيح التطبيق الاشتراكي واقامته على دعائم ديمقراطية وقومية وشعبية .

وقد بدأ القلق في بولندا ، ولكن بولندا كانت تقع بين روسيا والمانيا الديمقراطية ، ولم تكن هناك حدود مشتركة مع الغرب ، وكانت القيادة المستنيرة « قوية » ذات شعبية في الحزب والجيش وبين المثقفين والجماهير .

ولذا استطاعت السيطرة على الموقف والتحكم فيه ، وحدث التغيير بمصاعب ولحظات حرجة ، ولكنه تم سلميا وجذريا .

ثم سرى القلق الى المجر ، ولكن كان الموقف مختلفا تماما .

وظلت وطأة الحكم الستاليني اقسى مداها في المجر .. وربما
كان الحزب الشيوعي المجري اصغر الاحزاب واضعفها في شرقي
اوربا ، وكان للمجر تاريخ طويل في عداء الشيوعية وعداء روسيا ،
وهي قد اشتركت في الحرب العالمية ضد روسيا كحليفة لهتلر
وبجيش بلغ ربع مليون جندي .. في الحرب الاوربية الصليبية
ضد الشيوعية .
وكان للمجر ايضا حدود طويلة مع الغرب ، مع النمسا التي
كانت مركزا رئيسيا للمخابرات الامريكية وعملياتها في اوربا .

ولهذا كانت المجر اصلح نقطة بدءا منها « لتحرير » دول
الشرق اوربا .. بعدها تتساقط البلاد الاخرى ، ثم يتهاوى النظام
في روسيا نفسها ويتغير مجرى رحلة التاريخ !

ولا بد ان يكون عام ١٩٥٦ عامه واضح محدد .. سوف يوجه
ضربة قاصمة ضد الاشتراكية عدوه الاول في وسط اوربا .

وسوف يوجه ضربة مماثلة الى بالدرنج والصبالة في الشرق
الاوسط عدوه الثاني ، الفاشي ولن يلبث بعده .. سيظل بعيدا
يمسك بكل الخيوط ، ولكن يحركه وتتحرك كل الدمى في شرقي
اوربا . وسوف تتجمع كل القوى داخل المجر . وتنتشر كل
القوى في شرقي اوربا وغربها .. وتجمع « ثورة الحرية » في المجر .
وفي الشرق الاوسط سوف تتحرك اسرائيل وهي تكفي ..

معركة السد

قال هيرودوت منذ آلاف السنين قولته المشهورة : ان مصر هبة النيل : وقال كثيرون بعده : انها مسألة هكذا ! ولكن مصر هي هبة الشعب اولا ، وهي ابداع التحدي والتكامل بين النهر والشعب والارض ، وهذا هو ما منح مصر شخصيتها وحضارتها ، وهو ما اعطى العالم المدنية .

بدأت اول حكومة ونظام حكم مركزي لكي تنظم استغلال ماء النيل وتنظيم الري وتوزيع المياه وزراعة الارض ، وكانت الحاجة الى التكهن بالفيضان هي التي ادت الى اختراع التقويم السنوي العام وقسمة السنة الى ٣٦٥ يوما ، وكانت هي التي ادت الى كشف علم الفلك ، وكانت الحاجة الى الحياة الجماعية هي التي ادت الى اول وحدة قومية لشعب متجانس ، وذلك في رأي اكثر علماء الآثار .

وعلى ضفاف النيل بني الهرم واقيم معبد الكرنك ونحت تمثال تفرتيتي ، ولكن ترعرع اعظم « الآثار » وهو الانسان المصري وما زال النيل لم يكشف عن كل أسراره ، وما زال المصري يبحث ويتحدى ويكتشف ويجد ؟

والفضل مقياس لعبقرية الحاكم في مصر انما هو قدرته على استعمال مياه النيل وعلى توزيعها وعلى اقناع النهر ! ليهب اكثر بالمزاد . قال نابليون : « مصر صراع بين الماء والصحراء » والحاكم الطيب يغلب الماء ، وبالحاكم الآخر تزحف الصحراء ! »

والرمز الباقي لبداية النهضة ولانتفاضة مصر على القرون الوسطي ولعبورها الى العصر الحديث كانت « خاطر محمد على » .

وكان خزان اسوان هو « رمز » العهد البريطاني وتسخير العلم والتكنولوجيا والنيل لخدمة الاستعمار والاستغلال « ولكي تقوم مزرعة القطن الخصيبة التابعة » للانكليز » .

وحينما تنتصر ثورة مصر لا بد ان تتجه اول ما تتجه الى النيل ، وليس هناك سواه « ففي كل مرة تتجه مصر الى النيل لا يمكن ان يخيب املها ابدا » كما قال المهندس البريطاني ويلكوكس الذي بنى خزان اسوان .

ولا بد ان يقوم على النيل اثر يفوق كل ما سبقه .. وفي هذه المرة لن يهب النيل ماءه للفرعون ولا للولاة ولا للباشوات او للاجانب ، ولكن للفلاحين ! وهذا لا بد ان يكون عملا شامخا بقدر ملحمة الصمت .

وكان المشروع موجودا محفوظا في « الارشيف » ، وكل حلول مشاكل مصر معروفة وكامنة فيها كما قيل .

وفي سنة ١٩٤٧ توصل مهندس مصري من اصل يوناني يدعى « دانينوس » الى فكرة السد العالي ! ووضعها في مشروع كامل « وعرض المشروع على المجمع العلمي الذي رحب به ؛ وعرض المشروع على المسئولين الذين يملكون تنفيذه ! فتنقل المشروع من جهة الى اخرى ، واختلفت الآراء حوله ؛ ووصف احيانا بانه خيالي وغير ممكن ؛ ولكنه ظل ملفات واوراقا تبحث وتحول !

وبعد أسبوع من قيام الثورة حمل المهندس « الصالح » مشروعه إلى الثورة : « اعتقدت أن الوقت قد حان لبعث المشروع الذي لم يكن ممكنا من قبل »

وبعد دراسة مفصلة تبنت الثورة المشروع ، وأرادت البدء في تنفيذه على الفور .

كان مبلغا ضخما هائلا « أعظم عمل هندسي من نوعه في هذا القرن » وكان حجمه يبلغ سبع عشرة مرة حجم الهرم الأكبر ، ولكنه كان العمل الأساسي لبناء الاقتصاد الوطني « الثوري » وتوفير الحياة « الفضلى » في مصر .

وكان في مصر كل مقومات الزراعة ، ولذلك نطق أيضا كل مقومات الصناعة ولكن في ظل الاستعمار الاستعماري كان لا بد أن تبقى في إطار زراعة متخلفة وصناعة محدودة " .

وكان لا بد من ثورة تحقق الاستقلال ، لتستطيع مصر استخراج الحديد ، وتقيم صناعة الحديد والصلب أساس كل الصناعة . وقد ظل خام الحديد مختفيا مهملا منذ اكتشافه قبل نصف قرن .

وكان لا بد من ثورة لكي تستطيع مصر أن تتوسع في اكتشاف البترول ، وكانت الشركات والاحتكارات مستخرجة محتكرات لـ « البترول » والمصريين معاملة خطيرة .

وكان الرأي أن هناك بحيرة بترول ضخمة تمتد مسافة من إيران إلى المغرب ، ولكنها تنحني وتختفي عند حدود مصر حتى اكتملت سيادة المصريين على صحاريهم ووجد البترول .

كان هناك بالطبع قلق شديد من أن تستكمل مصر مقومات سيادتها وتحررها الاقتصادي ، ومن أن تقوم قاعدة صناعية في الشرق الأوسط .

وكانت الولايات المتحدة خاصة لا تنظر بارتياح لقيام الصناعة الكبيرة أو أسبابها في مصر ، فقد قرر الرأسماليون الأمريكيون أن

القاعدة الصناعية في الشرق الاوسط يجب ان تكون اسرائيل وحدها
- ولا تقوم قاعدة اخرى .

وكان تصنيع « الدول المتحررة » وخاصة مصر عملا غير مأمون ،
ولهذا فان المشروعات الكبرى التي تتطلب الاعتماد والخبرة والتجربة
كانت تقابل بحذر شديد ، وتدرس بدقة « ليعرف أثرها على
المصالح « الجوهرية » ، وكان « الريف » و« التخلف » واضحا في
مشروع السد العالي ! .

وكان هذا هو موقف الغرب من قبل أن طلب مصر شراء
السلاح ولنفس العوامل والهواجس كان « التسليح والتصنيع »
هما الاحتكار الذي بنى عليه الغرب قوته ، وحرص على ألا ينتقل
الى الشرق .

وكانت الكهرباء أهم ما تحتاج اليه مصر ، واذا لم تملك الفحم
فهي تملك الكهرباء كبديل ، ولكن التهل مورد معطل لا ينفد ولا
ينتهي منها .

ولكن في سنة ١٩١٢ تقدم نفس المهندس « دانينوس » مشروعا
لاقامة محطة لتوليد الكهرباء في اسوان ، ورفض المشروع وكنت
تعلية خزان اسوان مرة أولى وكنت تعليته مرة ثانية ، ولكن
استخراج الكهرباء شيء مختلف ، والكهرباء تعني التصنيع — في
المدينة والريف — وهذا ما لا يمكن !

وبعد أن حصلت مصر على شيء من استقلالها أعد مشروع
مصري لكهرباء خزان اسوان سنة ١٩٣٧ .

وبدا الوقت ملائما تماما لتنفيذه ، ولكن تكاتف المؤامرات
الحزبية والقوى التي كانت تحركها عطلت المشروع ونسفت
مراقبته ، ألا لا بد أن تظل مصر في عصر المياه ولا تدخل عصر
الكهرباء . !

وكان على الثورة أن تعني بدراسة كل هذا الميراث »

لابد ان تستغل مصر الارض الزراعية استغلالا عصريا انفع، ولا بد ان تضيف اليها ، ولا بد ان تستصلح مساحات واسعة لتحل مشكلة الارض .. المشكلة الاولى .

ولا بد ان تحقق مصر ثورة صناعية كاملة ، لأنه لا حل لمشاكلها المتراكمة والمعقدة الا بالتصنيع ، وبه فقط تتوازن الحياة والعمل لمقدرات الابناء المحرومة ، وفي ظل مستويات العصر .

ولكن لا بد ايضا من استكمال وتأمين استقلال مصر .

وفي اوائل القرن قال المهندس البريطاني « ويلكوكس » : ان بحيرة فكتوريا هي مفتاح نهر النيل ، ومن يتحكم فيها يمسك بخناق مصر ومصيرها ، بل ويضعها في قبضة يده .. وكان التهديد بمياه النيل سلاحا بريطانيا استعمل كثيرا ، وظل التلويح به قائما حتى سنة ١٩٥٦ .

ولقد ارادت الثورة ان يقوم المشروع على أسس اقتصادية وتجارية بحتة ، وان يعتمد اساسا على موارد مصر ، وان تحصل على الخبرة والقدرة الاجنبية او على المساعدة الدولية في حدود السياسة المصرية ، وكانت دقيقة الحرص على هذا .

وارادت الثورة ان تكون المساهمة الدولية مساهمة مشروعة عن طريق مؤسسات الامم المتحدة التي قامت لهذا الهدف ، واذا كانت من دول بعينها فيجب ان تكون ، مساهمة غير مشروطة ، في نطاق مواثيق الدول الكبرى وتصريحاتها عن « المساعدات الحميدة البريئة » التي تهدف الى تقديم كل مقومات التقدم للدول المتخلفة .

وضمانا لهذا قدمت مصر المشروع في البداية لشركة المانية « [illegible] » لتقوم بالابحاث الاولية التحضيرية ، واستغرق هذا عامين تقريبا ، ووجدت الشركة ان المشروع اكبر من ان تنفذه وحدها ، ورأت انه من الافضل ان تشاركها مجموعة من الشركات

الاوربية والفرنسية والانجليزية ؛ وان يساهم البنك الدولي في المشروع الذي اثار خيال العالم كله ، وتقدمت الشركات الامريكية ــ ولم تكن لتظل بعيدة عنه ــ لتشترك وتساهم ايضا .

ووجدت الشركات ان مساعدة الحكومات ضرورية ايضا ، فانتقلت الدراسات من الشركات الى الحكومات ومن الاقتصاد الى السياسة .

وقد كانت كل الابحاث جاهزة مبدئيا في سبتمبر عام ١٩٥٤ تنتظر اشارة البدء في العمل ، ولكن بدا ان هناك عائقا ان لم يكن هناك تلكؤ في اتخاذ التنفيذ .

وبدا واضحا ان سياسات مصر والمبادىء التي ارسيت عليها هذه السياسات هي السبب الذي يقف وراء تلكؤ المشروع .

وفي منتصف عام ١٩٥٥ بدأت الاخبار والشائعات تترى في صحف الغرب ودوائره الدبلوماسية والسياسية عن تحول مصر الى « الشرق » وعن صفقة اسلحة عقدت بين مصر وروسيا .

وقد ثارت التكهنات حول هذا التحول « الخطير » واشتد حوله الجدل ، واستغرق التنبؤ والتكهن منه بعض الوقت .

وحينما بدا ان الامر صحيح جاءت بعثة كبيرة من البنك الدولي في اغسطس سنة ١٩٥٥ لكي تقوم بدراسة كاملة للمشروع تحيط بكل جوانبه ، وتقدم تقريرا كاملا عنه .

وفي سبتمبر سنة ١٩٥٥ اعلن جمال عبد الناصر في خطاب تاريخي عقد صفقة الاسلحة « التشيكية » وزلزل الاعلان كل دوائر الغرب السياسية .

وبسرعة كلف البنك الدولي ان يعجل في الاجراءات ، وكما يقول مدير البنك في ذلك الحين يوجين بلاك : « ان صفقة الاسلحة لم تجعلني اتشكك في ان تقتنع امريكا وبريطانيا بالمشروع ، وتتحمس كثيرا له وتهتم به » .

وفي اكتوبر سنة ١٩٥٥ اصدرت وزارة الخارجية الامريكية تصريحا يقول : « ان الولايات المتحدة على استعداد للمساهمة في تمويل مشروع السد العالي وفي تمويل مشروع وادي الاردن وكان مطروحا حين ذاك ، وان هناك « مشروع مارشال » الامريكي للشرق الاوسط على نمط المشروع « الاوربي » .

وطلبت الولايات المتحدة ارسال مسئول مصري كبير لبحث المشروع هناك ، فسافر وزير الاقتصاد في نوفمبر سنة ١٩٥٥ .

وتباحث الوزير المصري ورجـال البنك الدولي والدوائر الامريكية المسئولة وممثلو الحكومة البريطانية وتم الاتفاق .

وفي منتصف ديسمبر سنة ١٩٥٥ اصدرت الحكومتان البريطانية والامريكية بيانا مشتركا اعلنتا فيه مساهمتهما في تمويل المرحلة الاولى للسد العالي بما قيمته ٧٠ مليون دولار ، تدفع منها الولايات المتحدة ٥٦ مليون دولار ، وتدفع بريطانيا ١٤ مليون دولار ، ويقرض البنك الدولي مصر ٢٠٠ مليون دولار دفعة اولى ، ثم تزيد الى ٤٠٠ مليون ، وتبحث الحكومتان مسألة اشتراكهما في المرحلة الثانية .

ولكن نص البيان الذي ارسل الى مصر كان مختلفا ، فقد كان يحوي شرطا بأن : « تقدم مصر ضمانات بأنها سوف تركز كل جهودها وبرامجها في التنمية على اقامة السد العالي ، وانها لن تبعثر مواردها على مشروعات اخرى ، وانها سوف تفرض قيودا كافية على اقتصادها تمنع الانفاق الضخم على السد العالي من ان يؤدي الى التضخم المالي » .

ولم يكن هذا هو الشرط الوحيد ، بل كان هناك شرط آخر يقضي بأن : « يعلق قرض البنك الدولي على ان تقدم مصر ضمانات كافية بألا تعقد اي قرض خارجي ولا اية اتفاقيات دفع بغير موافقة البنك » .

وقد اثارت هذه الشروط كل القلق لدى الحكومة المصرية ، اذ كانت تعني انه لا بد ان تأذن امريكا لمصر قبل ان تبدأ اي مشروع لتنمية آخر حتى لا تبعثر مواردها !

ولا بد ان يأذن البنك الدولي حتى تعقد مصر اي قرض او اتفاقية دفع .. مع اية دولة اخرى ! ، وكانت الدولة المقصودة هي الاتحاد السوفيتي .. طبعا .

وكان هذا تدخلا صريحا ان لم يكن وصاية ومصادرة على الاقتصاد والسيادة المصرية ، فرفضت مصر شروط القرض .

وكلف مدير البنك الدولي يوجين بلاك ان يسافر الى القاهرة ، وان يبحث اسباب الرفض مع السلطات المصرية . وجاء مدير البنك في فبراير سنة ١٩٥٥ ، ولكن اصرت على موقفها .

وفي نفس الوقت انعقد في واشنطن اجتماع بين ايدن ودالاس لحسم المشاكل المعلقة بين البلدين والمشاكل الملحة في العالم ، وفي مقدمتها مشكلة الشرق الاوسط .

وكان رأي الاثنين متفقا على انه لا بد من حل حاسم ، وكان رأي ايدن « انه لا بد من مواجهة فاصلة مع عبد الناصر ، وان مفاوضات السد التي تجرى في القاهرة مع يوجين بلاك هي الفرصة الاخيرة » .

كان ايدن يعتقد ان الثورة في مصر سوف تبقى أو ربما لا تبقى ، بما تستطيع او لا تستطيع ان تقدمه للملايين من الفلاحين الجائعين ، وهؤلاء هم الذين صنعت لهم الثورة قانون الاصلاح الزراعي ، وكان اول ما قدمته ، ولكنه لا يكفي ، ولا تستطيع ان تقدم شيئا حقيقيا الا عن طريق السد ، ولهذا فان بقاء عبد الناصر مرهون باقامة السد ، ومن هنا يمكن ارغامه على ان يتعاون ويستجيب لنا ... يستجيب اي يستسلم ، كما قال بلاك بعدئذ .

ولم يكن دالاس ليختلف معه « فالأول مرة اتفقنا على سياسة واحدة في الشرق الأوسط » .

وقال ايدن :

« تجمعت لدينا من كل المصادر السرية وغيرها معلومات عن نشاط المصريين في كل انحاء الشرق الأوسط : في ليبيا والاردن ولبنان والعراق والسودان .

وفي كل مكان كان صوت العرب ينشر العداء ، ضد الغرب وضد اذناب الاستعمار ، كما كان يسمي اصدقاءنا ، وذلك في نفس الوقت الذي كانت تطلب فيه الأموال لبناء السد ، وقد بحث سلوين لويد المسألة مع الأمريكيين ووجد تأييدا » .

وقال ايدن ايضا : « اشتكى نوري السعيد شكوى مرة ، وكذلك كميل شمعون ، من ان مصر تحصل بتهديداتها على ما تريد من الغرب وعلى اكثر مما يحصل عليه الحلفاء المخلصون ! » .

وكان دالاس يرى ان مفاوضات السد العالي هي الفرصة لتحقيق هدف آخر سياسي ، وهو تحقيق الصلح والتسوية مع اسرائيل .. مرة أخرى .

ووضع هربرت همفري — وكان يعمل وكيل وزارة الخارجية ومستشار دالاس في شئون الشرق الأوسط ، وكان من رجال شركات البترول الامريكية ومن ابطال الانقلاب الايراني الذي قامت به المخابرات المركزية ضد مصدق واسقطته — وضع مذكرة بخطه تقضي بان يكون « السد مقابل الصلح » .

وكتبت النيويورك تايمس وهي لسان حال وزارة الخارجية الامريكية تقول : « تربط حكومة الولايات المتحدة بين مقترحاتها بمساعدة مصر مساعدة طويلة المدى على مدة عشر سنوات لبناء السد العالي وتسوية النزاع المصري الاسرائيلي ، وتعتقد حكومة الولايات المتحدة ان المساعدة الاقتصادية لمصر تستطيع ان تؤدي الى تسوية عامة للموقف في الشرق الأوسط » .

ولم يرد الشرط في الفكرة المشتركة ، وكان حمله مبعوث خاص من الرئيس ايزنهاور الى جمال عبد الناصر هو المستر « روبرت اندرسون » .

وكان الرد بالرفض ، وفي ذلك الوقت كان بن جوريون منهمكا في شن غاراته الارهابية على كل مكان من الحدود ، وكان قد انتهى من اعداد خطة الحرب الشاملة ضد مصر ، بل اعلن بن جوريون انه لا بد أن يقابل عبد الناصر وجها لوجه ، وان اية مفاوضات مع مصر للصلح لا بد ان تكون علنية ومباشرة .

وقد انتهى اهتمام الولايات المتحدة بمشروع السد العالى بعد رفض شروط الولايات المتحدة وبريطانيا ، وظهرت تعليقات امريكية مختلفة تقول :

« اختفى مشروع السد العالى من اية مناقشـــة فى وزارة الخارجية بعد فشل محاولة اندرسون » .

« طالما لم نستطع شراء الصلح العربى الاسرائيلى مقابل السد فدعنا نحاول » .

« ان السبب الرئيسى لتخلينا عن السد العالى هو اننا لم نستطع تحقيق صفقة شراء الصلح العربى الاسرائيلى مقـــابل السد ! »

وقال فولبرايت فى تقرير رسمى اعدته لجنة الشـــئون الخارجية للكونجرس :

« تثبت الادلة ان الحكومة الامريكية قد بدأت تراجع قرارها للرجوع عنه بعد بضعة اسابيع فقط من تقديمه » .

وكان هناك عرض قائم لبناء السد من الاتحاد السوفيتى ، وقد تقدم به بعد صفقة الاسلحة بقليل ، واكده بعد ذلك .. ولم تشأ مصر بحث العرض او مناقشته الا بعد أن تنتهى الى رد نهائى مع الذين يجاء بشأن المشروع .

وكان طبيعيا ان يبدأ البحث مع الاتحاد السوفيتي بعد ما انتهت اليه المحادثات مع الغرب ، ولهذا ثار الجدل والقلق مرة اخرى في الغرب .

ووضع جمال عبد الناصر حدا للشائعات وصرح لنيويورك تايمس :

« ان العرض السوفيتي لبناء السد العالي حقيقة ، ونحن لا نهدد به احدا ولا نناور به مع احد ، ولكنه عرض عام ، ونحن لم ندرس كل تفاصيله » .

وكانت الاتهامات قد انهالت على مصر بانها تلعب على « الحبلين » وانها « تفرط في استقلالها للسوفيت » .

وفي يونيه سنة ١٩٥٦ جاء وزير خارجية الاتحاد السوفيتي شبيلوف ليشهد احتفالات جلاء آخر جندي بريطاني ، واشتدت الشائعات بأن شبيلوف سوف يعقد الاتفاق السوفيتي على بناء السد العالي مع مصر خلال زيارته ، وتحرك الاهتمام مرة اخرى بالسد ، وكلف يوجين بلاك السفر الى القاهرة ليتبين المسألة وتقصي الحقائق .

واستدعي السفير المصري الى وزارة الخارجية الامريكية ، وسافر الى القاهرة ليعود بالايضاح .

وتأكيدا لان مصر « لا تلعب على حبلين » ولا تنتقي اي اتفاقات كلف السفير المصري ان يبلغ الحكومة الامريكية ان مصر ما زالت على استعداد لقبول العرض الامريكي ، وقد عدلت صياغة الشروط التي وردت في المذكرة بحيث ترضي السيادة المصرية .. وتقبل الطرفان ..

وعاد السفير المصري الى واشنطن ، ولكنه ذهب يوم ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦ ليقابل وزير الخارجية الامريكية دالاس ، المقابلة الشهيرة كما روى ميرفي الآن وكيل وزارة الخارجية الامريكية .

« تقرر دالاس ان يلقى مصر درســا ، وان يكون مدويا ومرعبا » :

« دخل السـفير المصري الى مكتب دالاس ، وكان هناك هربرت هوفر وهنا [?] وكان السفير حسين متفائلا جـدا ، وكان يرافق [?] عبد الناصر دائما بمكالماته التليفونية التي بعثه فيها الى امريكا وبعاطفة شديدة ، وقال حسين لدالاس : انه قلـق من العروض الروسـية وما سوف تثيره ، وانه لا بد ان تقـوم الولايات المتحدة ببناء السد وباسرع وقت » .

فرد دالاس بهدوء قائلا : « اننا بحثنا الامر جديا ، وقـدرنا اهميته ، ولكن بصراحة ان موقفنا الاقتصـادي يجعل من المتعـذر على الولايات المتحدة الاشتراك ، ونحن نسحب العـرض الذي قدمناه ! »

كان ذلك مثل اللكمة في البطن او مثل البصـقة على الوجه كما وصفها .. احد الامريكيين .

كان اول تفسـير قدمه دالاس هو الذي جاء في المذكرة التي اذاعتها وزارة الخارجية بعد المقابلة وتقول : « تبين ان مقـدرة مصر على تخصـيص موارد كافية لنجاح المشروع غير مؤكدة ، وهي اصـبحت غير مؤكدة الآن اكثر منها في اي وقت مضى » .

وهي مذكرة لا تشكك العالم في اقتصاد مصر فحسـب ، ولكنها تؤكد لشعب مصر مجـرد تشـككه في قدرته وفي نظـامه الجديد .

وقد انفجر بلاك الطيب الدولة [?] بعدئذ فانه كان مجرد لعبـــة في مناورات ايدن ودالاس ضد مصر ، ووصف البيان بانه كاذب وخبيث وقال : « ان دالاس لا يملك الحكم على الاقتصاد المصري ، وهذه هي مهمة البنك الدولي ، وقد كلفنا ان نجيب عن ســؤالين محددين هما : هل المشروع ممكن ؟ وهل يحتمله الاقتصـــاد المصري ؟ »

« وأجاب البنك عن السؤالين بالإيجاب ، وقال بلاك : انه عندما عاد من القاهرة في يوليه سنة ١٩٥٦ قابل بنفسه دالاس ومساعديه وقال لهم في ألفاظ واضحة تمام الوضوح : « انه ليس هناك أي شك في مقدرة الاقتصاد المصرى ، وانه ليس هناك دليل واحد على خلل أو تدهور هذا الاقتصاد ، وقد كتبت خطابا بهذا المعنى للحكومة المصرية » .

ولكن اشترك ايزنهاور في التبرير بكتابة أكبر قال :

لقد قدم عبد الناصر الى يوجين بلاك في مقابلته الاخيرة مقترحات مضادة ، بعضها لا يمكن أن يكون مقبولا من الدول الثلاث الكبرى ، وحينما أبلغني فوستر هذه المقترحات الغريبة وغير الطبيعية اتفق رأيي ورأى فوستر على أن عبد الناصر ليس جادا في المشروع أو حريصا على اتفاق جدي ، ولهذا اعتبرنا الموضوع منتهيا من كل الوجوه » .

ورد عليه يوجين بلاك : « على العكس تماما سألني ناصر : لماذا لا يحصل على رد نهائي وحاسم من أمريكا ؟ وأخذت اشرح له مصاعب دالاس والكونجرس ، ولم يتقدم بأي مطالب مصرية غريبة » .

ورد ايزنهاور : « تفسير آخر اتفق فيه مع دالاس وقال : ان صفقات الأسلحة الروسية قد جعلت محصول القطن المصري كله مرهونا لروسيا ، ويجعل هذا من المتعذر على مصر أن تفي بالتزاماتها في بناء السد » .

وأجابه السناتور فولبرايت : « كانت صفقة الأسلحة هي السبب في الاسراع بعرض المساعدة ، وكانت هي السبب في سحب العرض .. أي منطق عجيب ؟ » .

وأضاف فولبرايت : ان الأسباب التي أعلنت لم تكن من الأسباب الحقيقية بالطبع ، ولم تجد اللجنة أي دليل على أن الاقتصاد المصري قد ساءت حالته قبل سحب العرض » .

وأيد هذا الرأي السفراء الغربيون الثلاثة في القاهرة : الامريكي ، والفرنسي ، والبريطاني . وقرر السفير الامريكي بايرود « ان صفقات الأسلحة الروسية لم ترهق الاقتصاد المصري باية حال » . وقد دفع منصبه بعدئذ ثمنا لهذا ..

وقدم دالاس اغرب المبررات وقال امام الكونجرس الامريكي : « وجدنا أن نصيب مصر في المشروع بالعملة المحلية يشكل عبئا لا طاقة لمصر على احتماله ، كان هذا الجهد يتطلب تقشفا كاملا لمدة بين اثنتي عشرة أو خمس عشرة سنة ، ووجدنا ان هذا سوف يكون شيئا لا يحتمل ولا يقوى الشعب المصري على احتماله ، ولذا ما حدث سوف يلقي الشعب المصري كل المسئولية علينا نحن ، وبدلا من أن يحبونا فانهم سوف يكرهوننا ! »

وقارت امانيته الهائلة سخرية الجميع !

وحينما وجد دالاس أن التفسير الاقتصادي لا يقنع احدا تماما أخرج التفسير السياسي والاخلاقي ، وفي مؤتمر صحفي اعلن :

اعترف المصريون بالصين الشعبية قبل أيام من طلبهم ردا محددا على تمويل السد ، وكانوا أول دولة عربية تفعل هذا ، ولقد ارغمونا على مواجهة الخيار لم يكن لدينا سوى رد واحد عليه وهو : هل الدول التي تلعب على كلا الجانبين تحصل على معاملة أفضل من الدول التي تقف معنا وتعمل في صفنا بصلابة ؟ ان حلفاءنا الأوفياء الثابتين يطالبون بعناية ليروا ماذا يكون جوابنا ومن هؤلاء الحلفاء المساندين حلفاء عرب في بلاد مجاورة لمصر !

ولم تكن سياسة مصر غريبة على دالاس ولا مفاجئة له وهو قد عرفها تماما وشرحت له - بالتفاصيل - رغبتها غاية الوضوح ، منذ زيارته الاولى سنة ١٩٥٣ وقد ذهبت مصر الى باندونج ؟ واعلنت تمسكها بمبادئه وقرارات المؤتمر امام العالم كله .

ولم يكن غريبا أن تعترف بالصين الشعبية بعد ذلك ، بل ولم يكن الاعتراف بالصين الشعبية طعنة دامية لامريكا ، لأن اسرائيل ربيبتها كانت معترفة ، ولأن بريطانيا الحليفة الأولى كانت معترفة ، ولأن باكستان اخلص حليفة للولايات المتحدة في آسيا على حد قوله كانت معترفة بها .

وكان حياد « باندونج » عند دالاس « انتهازية » « ولعبا في الجانبين » ، وكانت حياتنا « بالنسبة له » قصيرة النظر جدا ، لا اخلاقية » . ولكن لم يمنع هذا دالاس نفسه أن يقف امام الكونجرس الأمريكي في يونيه سنة ١٩٥٥ أي بعد باندونج بقليل ليدافع بحرارة عن « أن نواصل المساعدة ليوغوسلافيا لأن تيتو رجل على استعداد لتقبل المساعدة من أية جهة ما دامت لا تمس استقلال بلاده ، ولأن تخفيض المساعدة له سيرغمه على العودة للانطواء تحت لواء المعسكر الشرقي وبذلك نفرض الاستعمار على دولة تريد ان تظل في كلا المعسكرين » .

كان حياد يوغوسلافيا وسيلة للعمل ضد روسيا ، ولهذا يباركه ، اما حياد مصر فقد أضاف دالاس وصفا له هو « ابتزاز » وفي خطاب علني القاه قال : اننا رفضنا أن نستمر في مشروع السد العالي ، لأننا احسسنا أن الحكومة المصرية تريد ان تبتز بالتهديد مساعدتنا في هذا العمل ، ونحن نكره كلا من التهديد او الابتزاز ! »

وراح ايزنهاور يرد قائلا :

« كان عبد الناصر يعتقد أنه يستطيع أن يلعب بالغرب ضد الشرق لكي يبتز من الاثنين » .

وحينما فشلت كل التفسيرات والتبريرات لجأ دالاس في يأسه الى تفسير مبتكر قال :

« ان عبد الناصر كان يعمل مثل هتلر للاستيلاء على قناة السويس ، وكان ينتظر فرصة مناسبة ، وهو كان يعلم جيدا انه

او الح فى طلب نهائى منه فسوف يكون جوابه الرفض ، لأن الكونجرس كان على وشك الانعقاد ، والكونجرس كان يعارض المشروع » .

وأكد دالاس : « لقد خلق عبد الناصر بتصميمه هذا الموقف ليستولي على القناة » !

وقال يوجين بلاك :

« تفسير خرافى هزلى .. مستحيل » .

وقد عرف بعد الوقت ببعض الوقت كيف اتفق أيزنهاور ودالاس على هذا الرفض ؟ وكيف كانت تقسم المسائل الكبرى بينهما ؟

« كان ايزنهاور يقضي عطلة فى مزرعته فى جتسبرج ، وطلبه دالاس بالتليفون وقال له : ان الحكومة المصرية قد ابلغت انها تقبل كل شروط الغرب لتمويل السد كما هى .. ولكنه — أى دالاس — يعتقد أن السبب فى ذلك هو ان عبد الناصر قد طلب الى روسيا تمويل السد ، ولكن روسيا رفضت ، ولهذا عاد عبد الناصر الى الغرب ، وقبل كل الشروط ، واضاف دالاس انه أنذر المصريين من قبل بأن امريكا لم تعد فى الوقت الذى يسمح لها بالمضى فى المشروع بسبب معارضة الكونجرس ، وبسبب تغير الرأى العام فى امريكا .. ووافق ايزنهاور على الفور » .

وبعد اسبوع وقبل ان يذهب دالاس لمقابلة السفير المصرى جاء مع هوفر الى أيزنهاور ، وقضيا معه ثمانى عشرة دقيقة اطلع فيها على البيان الذى تقرر اذاعته ووافق عليه وخرجا » .

كانت كل التصرفات والتبريرات مثلا تاريخيا للقدرة الورع « القدس » والرئيس « البطل » على الكذب والتآمر .

ومع تلك الأسباب الحقيقية — كما قال فوجسرايت — ولكن السبب الأول كان ان الحلف الغربى قد استقر « لأول مرة » على هدف واحد .

وكما قال ايدن : « اتفقت السياسة البريطانية والامريكية هذه المرة تجاه مصر ، وقررنا ان مستقبل سياستنا في الشرق الأوسط يعتمد الى اكبر قدر على عبد الناصر ، واذا ما اتجه لنا مستعدا للتعاون والتحالف فسوف نقابله بالمثل - وقد استقر راي الامريكيين على ان المباحثات التي تتم الآن مع بلاك بخصوص السد العالي هي الامتحان ، وهي التي سوف توضح حقيقة ما يريد عبد الناصر ، واذا ما قرر هنا وفي المسائل الاخرى الا يتعاون والا يستجيب .. فان علينا نحن الاثنين ان نعيد النظر في سياستنا نحوه » .

وكما قال يوجين بلاك بعدئذ : « يستجيب يعني بالطبع يستسلم » .

واتفق ايدن ودالاس « لأول مرة » .. على ان السد العالي هو حياة مصر وسعادتها ، ولذا ليس هناك فرصة افضل « لاحتواء » عبد الناصر ، ولن تستطيع مصر ان تبنيه الا بمساعدة الغرب ، ولن تتجه الثورة الى الطرف الآخر ، لان هذا يعني وضع الاقتصاد المصري كله « تحت رحمة الروس » وليس امام مصر سوى ان تذعن .

وقد اكدت المخابرات الامريكية ان الروس قد عدلوا نهائيا عن عرض بناء السد العالي ، وانهم اخطروا مصر بمشروعات صناعية صغيرة ومتفرقة ، لأنهم لا يريدون المجازفة بمواردهم في مشروع هائل وفي مكان غير مأمون لهم .

وصدق دالاس هذه المعلومات ، وقرر انها الفرصة ليوجه ضربة لا يمكن الرد عليها .

وكان السبب الآخر هو باندونج ، ولم يغفر دالاس لعبد الناصر ذهابه الى باندونج ، ولكنه لم يغفر له اكثر عودته مظفرا من هناك .

وقد نجح مؤتمر باندونج نجاحا تاريخيا ، واصبح امل كل شعوب آسيا وافريقية ، بل حتى دعوته الى « عدم الانحياز » في امريكا اللاتينية .

وظهرت الصين الشعبية لاول مرة كقوة اكبر .. وتزعزعت قوائم سياسة الحصار التي اعدت لاغلاقها حولها ، واعترفت بها معظم الدول الآسيوية والافريقية ومنها مصر .

وايد الاتحاد السوفييتي مؤتمر باندونج ، وايد « ميلاد » المجموعة الافرواسيوية ودورها الجديد ، واعلن استعداده التام لتأييدها ، لكل المساعدات « غير المشروطة » التي تحتاج اليها لتعزيز استقلالها او لنموها ..

وقامت مصر بدور بارز وحاسم في المؤتمر ، حققت كل الآمال التي تعلقت بها ، وبهر المؤتمر قائد الثورة الشاب الذي كان يخرج من بلاده لأول مرة ، وكان زعيما لمصر ، وزعيما للعرب ، وبزعامة جديدة كأحد اقطاب العالم الثالث والزعيم الاول في الشرق الاوسط وافريقية .

وكان جلاس لا يطيق الزعامات « التلقائية » وخاصة في المناطق الاستراتيجية الحساسة ولا سيما في الشرق الاوسط .

وكان احد الاسباب الوحدة العربية وارتفاع صيحة القومية العربية والثورة العربية ..

وقد انطلقت الحركة ضد حلف بغداد كل قوى الثورة العربية ، وملات الارض تحت كل الانظمة الرجعية العربية ، واصبح للثورة العربية قيادة الوطنية ، واصبح لها قاعدة اكبر في مصر اهم دولة عربية ..

وامتدت السنة اللهب الى شمالي افريقية حيث اشتعلت الجزائر في ثورة عارمة ، وهددت كل القواعد والمصالح العربية والامريكية الكبيرة .

« ولم تكن الولايات المتحدة تكره شيئا بقدر ما تكره الوحدة العربية ، وكانت في رأيها أكبر خطر يهدد المصالح البترولية الأمريكية ، ويهدد أمن إسرائيل وسلامتها . وربما كانت الولايات المتحدة على استعداد لأن تسلم بزعامة عبد الناصر العربية في مصر ، ولكن أن تتجاوز حدودها إلى كل العرب فهو ما لا تقبله ، وربما تقبله بشرط واحد ، هو أن يستعمل عبد الناصر زعامته هذه في عقد الصلح مع إسرائيل » . كما يقول كوبلاند الأمريكي .

وكان من الأسباب أن زادت التطلع في جنوب الولايات المتحدة قد عارضوا مشروع السد العالي ، لأنه سوف يمكن مصر من التوسع في إنتاج القطن الطويل التيلة مما يضر بمصالحهم ومنافستهم . ولأن زراع القطن كتلة قوية في الكونجرس الأمريكي والوية بآرائها من قلب دالاس .

ولهذا رفض تمويل السد العالي ، واستقر الرأي على سياسة موحدة هي إسقاط النظام برمته .

استقرت بريطانيا بزعامة إيدن على ضرورة إسقاط النظام وأيدت الرفض ، فقط كان إيدن يريد « أن تم الرفض في هدوء وبصمة طويلة المدى » .

واستقرت فرنسا بزعامة جي موليه على ضرورة إسقاط النظام .

وكان رأى دالاس مستقرا منذ اشتعال الثورة في العدوان على ضرورة إسقاط النظام .

وقد رفض تمويل السد لأنه كان يعتقد « أنه يهدد نعش عبد الناصر » كما يقول يوجين بلاك !

« وكانت المذكرة الأمريكية تحوي طمعا للشعب المصري بألا يفقد الأمل في المساعدة الأمريكية ، وذلك هذا مما تخلص من حكومته بالطبع ، وهو تحريض سافر يشبه تماما ما جاء في

المذكرة التي أرسلت الى حكومة مصدق في ظروف متفرقة .، والتي سبقت الانقلاب الذي أسقط تلك الحكومة والذي دبرته المخابرات المركزية ، واعترفت بفضل يدها فيه » .

وكان رأي بن جوريون بالطبع تابعا لرأي دالاس ، فقد صرح بعد مارس سنة ١٩٥٤ بأنه لن يمكن عرض صلح مقبول لاسرائيل مع مصر ، ولا بد من اسقاط النظام » .

ولكن اسقاط النظام في مصر كان لا بد أن يحدث بهجوم من الخارج باتفاق مع كل الأطراف .

وفي مايو سنة ١٩٥٦ اتفق دالاس وايدن ـ اللذان كانا حائرا ما يحققان ـ على ضرورة تدبير انقلاب داخلي ضد النظام القائم في مصر .

وأعدت المشروع الأول المخابرات البريطانية ، وكان ايدن متحمسا شديد الحماس لامكانه ونجاحه .

واجتمع مشترك في وزارة الخارجية الأمريكية وممثلون لوزارة الخارجية البريطانية في لندن ، وأقروا الخطة المشتركة وحولت للتنفيذ « المشترك » بواسطة المخابرات المركزية الأمريكية وقلم المخابرات البريطاني ، ولكن بعد بحث مستفيض انتهوا الى أن الموقف في مصر غير الموقف في ايران ، وأن الانقلاب غير مضمون النتائج ، لأنه ليس هناك في مصر قوى موالية كافية وقادرة كما كانت الحال في ايران ، ولهذا ليس هناك وسيلة لاسقاط النظام في مصر سوى الهجوم من الخارج والحرب .

ولم تكن مصادفة أن يصدر ايزنهاور أمره الى فرنسا بأن تسلح اسرائيل بطائرات « مستير ٤ » التي كانت فرنسا تنتجها لحساب حلف الأطلنطي وحده وفي سرية مطلقة ، وكانت هذه الطائرات هي التي قامت بدور هام في حرب ١٩٥٦ بمساعدة طيارين فرنسيين .

ولم يكن دالاس يتطلع الى ضربة قاضية ضد الشطر الكبير ضد روسيا ذاتها ، اذ كانت احداث ما بعد المؤتمر العشرين في روسيا وشرقي اوربا توفر في رأيه فرصة لم تسنح من قبل لكي يحقق حلمه الكبير في تحرير شعوب شرقي اوربا « الأسيرة » + وفي خلخلة النظام القائم في روسيا وطيه ، على تسجل ، بوساطة متناقضاته ، وسيضرب لذلك في المنطقتين الرئيسيتين : الشرق الاوسط وشرقي اوربا ..

ضربة القنــــاة

صيحتها لنا وصوتي القلب في التحرش قبل الانفصال فلا بد من الخروج اليها ، لا بد من المواجهة مهما يكن الثمن ، ولا بد من « ضربة هرقلية » تخلع قلوبها وتدبر دروسها ، وتجعم اى ضرب او فزع منها ..

وقد كانت صفقة الأسلحة من روسيا ردا على « الوحش » الأمريكي ، وكان لا بد من ضربة أكثر دويا ، ردا على رفض تمويل السد ، وخطط الغزو ومشروعاته وعلى الوجود مجتمعة !

ولم يكن ما حدث ـ كل ما حدث ـ مفاجأة للثورة ! كانت القيادة برؤيتها الملهمة للموقف تدرك منذ البداية ما لا بد أن ينتهي إليه للأسف الأحداث .

وحينما عاد بن جوريون الى الحكومة في فبراير سنة ١٩٥٥ ووقعت غارة غزة بعد أسبوعين ، قال مراسل النيويورك تايمز في القاهرة : « إن بن جوريون لم يعد لمجرد إعداد غارة في غزة ! » وبدأ البحث عن الأسلحة انتهى بصفقة الأسلحة مع روسيا .

وحينما جاء السفير المصري في واشنطن في يوليو سنة ١٩٥٦ ـ وكان ما زال سافرا جديدا لأمريكا ـ وأكد أن الولايات

للتنمية سوف تمول السد وانه يحتاج لظروف مساعدة فقط ، أكد له عبد الناصر ان شيئا من هذا لن يحدث ، وان لم يصدقه ان يجرب تقديراته .

كان عبد الناصر يدرك انهم يريدون مواجهة ويضربونهم - وكان لا بد ان يخرج للانقاذ القطر الكبير بعزيمته .

وفي ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٦ أعلن : « إني انظر اليهم ، ولن نلتفت الى غيظهم ولا الى طغيانهم ، لأننا نؤمن بأنفسنا ونؤمن بقوتنا ، ونؤمن بعزتنا .. نؤمن بمصر ، ونؤمن بأبناء مصر وبشعب مصر ، واذا قامت في واشنطن ضجة تعلن — وقد تعودت من اي سياسي من البلاد التي تقوم على أساسها علاقات الدول — تعلن كذبا وخداعا وتضليلا ان الاقتصاد المصري لا يساعد ، وان الاقتصاد المصري يدعو الى الشك — فانني انظر اليهم واقول : موتوا بغيظكم ، فلن تستطيعوا ان تتحكموا في مصر ، ولن تستطيعوا ان تستبدوا بنا ، لأننا نعرف طريقنا ، طريق الحرية ، طريق الشرف ، طريق العزة ، طريق الكرامة » .

وقد كان واضحا ان البيان الامريكي ليس فقط تشكيكا في النظام القائم ، ولكن دعوة الشعب المصري لكي ينتفض عليه ، وقد شبهه معلقون امريكيون بالخطاب الذي ارسله ايزنهاور الى مصدق برفض مساعدة الولايات المتحدة قبيل الانقلاب المشهور في ايران ولكن يؤكد تأييده للشعب الايراني .

وربما كان ممكنا في ذلك الحين ان تتلقى مصر الرفض الامريكي في صمت ، وتتدبر لتقبل العرض الروسي الذي كان قائما ، ولكن ادرك عبد الناصر انهم يريدون تحديا ، ولا بد ان تثبت مصر انها لا تخاف التحدي ولا تخشاه .

كانت اقامة تحديه ، وكما قال فيه بعد : « اذا استسلمنا للتهديد فان ذلك يشعر جميع الدول الصغيرة انها لا تستطيع ان تحقق الحرية والاستقلال . اننا ملتزمون على المحافظة على

كرامتنا وسيادتنا واستقلالنا ضد الاستعمار العصامي والاستعمار المقنع ... !

ويعد رفض تمويل السد العالي بأيام كان عيد الثورة الرابع في ٢٣ يوليو ١٩٥٦.

وفي ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ في الاسكندرية في الذكرى الرابعة لطرد الملك فاروق وقف جمال عبد الناصر وسط الملايين ليعلن القرار الذي تجاوبت أصداؤه في العالم كله ، كان العالم كله وخاصة الغرب يترقب ، كيف يرد ؟ وماذا سوف يفعل ؟

« لن نكرر الماضي بل سنقضي على الماضي ، سوف نستعيد حقوقنا في قناة السويس ، هذه الأموال أموالنا ، وهذه القناة ملك مصر ، شركة مساهمة مصرية ، حفرت القناة بوساطة أبنائها ومات ١٢٠ ألف مصري في حفرها ، شركة قناة السويس القائمة الآن في باريس شركة مغتصبة ، اغتصبت امتيازاتنا ، وعندما جاء دليسبس الى مصر كان مجيئه يشبه مجيء بلاك الى مصر للتحدث معي .

والتاريخ لن يعيد نفسه ، بل على العكس سنبني السد العالي وسنحصل على حقوقنا المغتصبة ، سنبني السد العالي كما نريد ، وسنصمم على هذا . ٣٥ مليون جنيه كل سنة تأخذها شركة القناة فلتأخذها مصر ، مائة مليون دولار كل سنة تحصلها شركة القناة لمصلحة مصر » . وعندما وردت كلمة دلسبس في الخطاب كانت اشارة متفقا عليها ، وتقدمت مجموعة من الرجال الى مكاتب الشركة وادارتها في كل مكان في أرض مصر لتعيد الحق ولتصحح التاريخ .

« تقدمت مجموعات من الرجال الى مكاتب وادارات الشركة في القاهرة والسويس والاسماعيلية وبورسعيد ، واستولت عليها لتدير العمل ولتحميه ضد أي محاولة للتخريب » .

وفي كل شيء ـ تماما كما أعد ـ وبسهولة لم يتوقعها المعادون ونـزل على كبير عمره أكثر من مائة عام .. !



كانت فكرة القناة بين البحرين فكرة قديمة لدى الفراعنة ، وتجددت في العصر الحديث خلال حملة نابليون ، وكانت بين أهداف الحملة الرئيسية ، كانت بريطانيا تسيطر على طريق رأس الرجاء الصالح ، وتسيطر به على التجارة مع الشرق ، وكان « التجار » الفرنسيون يريدون حفر القناة لتتحول التجارة مع الشرق مرة أخرى إلى البحر الأبيض المتوسط ، وعن طريق السويس وتحت سيادة « فرنسا » ولكن أخطأ مهندسو حملة نابليون في قياس مستوى البحرين الأبيض والأحمر وقالوا : إن هناك فرقا بنسبة أمتار بينهما مما يجعل من الخطر شق القناة .. ولم تبق الحملة في مصر طويلا لتصحيح الخطأ .

وورث المشروع بعد ذلك « السان سيمونيون » وهم أتبـاع « سان سيمون » المفكر الاشتراكي « الخيالي » الفرنسي ورأوا فيه أحد المشروعات العصرية « والتكنولوجية » لإصلاح الكون والتقدم بالإنسـانية ..

وجاء إلى مصر زعيم الطائفة « بروسبر انفانتان » وحاول أن يقنع « محمد علي » بالمشروع ..

ولكن هذا برؤيته « الواقعية » قال : إنه لا يريد « بوسفورا جديدا » وكان يفضل إنشاء القناطر على النيل ، ولهـذا رفض المشروع .

وبعد نهاية « محمد علي » بدأ زحف سيل الأجانب يتدفق على مصر : جاء طالبو الامتيازات ، وممثلو البنوك والشركات ، والمغامرون من كل نوع ، وأصبح الطريق سهلا ميسرا أمامهم .. وجاءوا يقيمون كل « أصناف » المشروعات والشركات الوهميـة والاستغلالية لمجرد الثراء السريع .. !

وبلغ السيل حدا مقلقا في عصر الخديو سعيد الذي « كان رخوا مترهلا مترددا ضعيف الشخصية يطرب للأجانب ويخضع لهم ويتخاذل تماما أمامهم » .

وكان من أشد المقربين إليه نائب القنصل الفرنسي فرديناند الذي كان هو وأبوه على صلة وثيقة بالأسرة المالكة المصرية منذ أيام محمد علي ، إذ كان أبوه قنصلا أيضا في الإسكندرية .

وكان فرديناند « بمكانته لدى الأسرة المالكة » يقدم كل الخدمات الممكنة ، ويعمل وسيطا لكل طالبي الامتيازات من كل الجنسيات الفرنسيين أو البريطانيين أو الألمان ، ولكنه كان يتحيز بالطبع للشركات الفرنسية التي ازدادت والواقع ، جاءتها زيادة أثارت القنصل البريطاني حتى كتب : « أن هذه الشركات تريد السيطرة وتريد القضاء على سلطات الوالي وتحويلها تماما وتجعلها فرنسية » .

وكان سعيد يمنح الامتيازات بلا تمييز ، وإذا ما ثارت مشكلة أو ضجة دفع « التعويض » أو اشتراها مرة أخرى للحكومة المصرية ، وقد اشترى بخمسة أمثال الثمن شركة وهمية لجر البضائع في النيل سميت الشركة الانجرارية (!) .

ولم يكن صعبا على دليسبس في أول عام يتولى فيه سعيد أن يحصل لنفسه على « الغنيمة » الكبرى وعلى امتياز حفر قناة « البحرين » حلم التجار والرأسماليين الفرنسيين منذ عصر نابليون ، ولقد تحقق هذا الحلم بعد لويس نابليون الذي كان يريد إعادة مجد عمه الامبراطوري ، والذي كانت زوجته « أوجيني » المتقدة الحسناء على قرابة بدليسبس .

ولم يكن صعبا أن يقتنع سعيد بأن « البوسفور الجديد سيخلد اسمه (أي اسم سعيد) في التاريخ » ولن يكون سببا على الإطلاق في المساس باستقلال مصر ، بل على العكس سوف يكفله ، وأن تضمن كل الدول حيدة القناة .

وحرر دليسبس الامتياز سنة ١٨٥٤ كما اراد ، وحشده بكل العمومي والبنود الغائمة والتى يستطيع بعدئذ تفسيرها كما يريد .

« والامير العظيم يجب ان يبقى ملاذا خالى البال ليتفرغ لشئونه الخاصة وهو يكره المتاعب والمنازعات والمناقشات ، وهو يعمل دائما على تخليصه من اى المتاعب ، كما كتبه دليسبس » .

وقد استغل هذا وافاد منه فى تدبير راس المال ، وكانت تركيا وبريطانيا منذ البداية تعارضان المشروع معارضة عنيفة ، وقررت بريطانيا عرقلة المساهمة والاكتتاب فى المشروع فى اوربا ، ولم يكن متحمسا له سوى الفرنسيين ، وكان تدبير راس المال اللازم لتنفيذ الامتياز مشكلة لا بد ان يقع عبئها كلها على مصر .

ويروى « نوبار » الذى اصبح بعدئذ وزير خارجية مصر :

« افتتح دليسبس الاكتتاب العام فى لندن وباريس وبرلين وفيينا ، وفشل الاكتتاب ، ولكن اعلن دليسبس بجرأة ان الاكتتاب قد اكتمل ، وبجرة قلم وبدون علم سعيد اكتتب باسمه بمبلغ ٨٨ مليون فرنك وهى التى بقيت ، وعاد دليسبس الى مصر ، وذهب الى سعيد باعتباره موكله ، وقدم له قصاصة ورق عادية مقيدة عليها كل الحسابات ، وكان سعيد مشهورا بالضجر والملل ، ولهذا سلم الورقة مباشرة الى سكرتيره دون ان يطلع عليها !

وبعد ايام جاء دليسبس بالتماسه المعهود الى سعيد ، وطلب اليه ان يصدر امره بسداد الدفعة الاولى من اكتتاب مصر !

— اى دفعة ؟

— اكتتابك بمبلغ ٨٨ مليون فرنك »

ـ الكتابي أنا ؟

ـ نعم الكتابك .. ان مولاي يعلم انى ماكتبت باسمه ولحسابه ، ولو لم افعل ذلك لفشل المشروع الذي سيخلد اسمه فى التاريخ ويكفل الاستقلال ، وقد قلت ذلك وكتبته من قبل لسموكم .

ـ قلت وكتبت اين ؟ ومتى ؟

ـ فى الورقة التى قدمت لها اليكم الحساب عن الاكتتاب .

وامر سعيد باحضار الورقة ، ووجد مكتوبة على ظهرها ٨٨ مليونا باسم صاحب السمو !

وقال ديلسبس :

ـ هكذا ترى يامولاى انني كتبت ذلك ، وانك كنت على علم به ، وقد وافقت عليه بسكوتك ، وعلم بذلك كل رجالى الذين يعملون معى والذين يحملون لك كل الحب والاحترام .

واعترض سعيد مرة اخرى ، ولكن اصر ديلسبس على ان السكوت فى المرة السابقة معناه الرضا ، وتكلم سعيد عن الازمة المالية المستحكمة ، ولكن ديلسبس طمأنه وقال : انه سيعمل على تفريجها بكل ما يستطيع .

ولم يكن لدى سعيد ما يقوله بعدئذ سوى ان يردد بلهجته الساخرة « لقد الطلانى حازوقا مصريا » !

وقال سعيد قبل وفاته بوقت قصير :

« كان كل ما طلبت ٢٠ الف سهم ، فاذا بي أتورط فى ٨٠ الف سهم ، ولم استطع ان اعترض ؛ ولم احاول وقد انتهى الامر ، وهم الآن يزينون لى عقد قرض يمكنني من دفع قيمة الاسهم ، ولكننى لم اقرر شيئا ، ولم تعد لدى ارادة ولا عزيمة » .

ولم تكن الاسهم لتعنى شيئا بالنسبة لديلسبس بغير ثمنها ، ولهذا الح على سعيد لكى يعقد قرضا فى اوربا يسدد منه ثمنها ،

وكان هو الذى زين لسعيد واقنعه بعقد أول قرض اجنبى تعقده مصر » وكان نائحه وتوغ مصر فى أنياب المالية الدولية ؛ وكان القرض بمبلغ ٦٠ مليون فرنك ؛ ويدفع على الأقساط سنويا » ولكن حينما يتم سداده يكون قد استوفى ثلاثة أمثال الدين ! » .

وقد تردد سعيد فى عقد القرض الثانى لا لشىء إلا لأن حالة البلاد كانت سيئة إلى أبعد حد .. كان « بداية التدهور » كما سمى عصر سعيد .. وتولى اسماعيل واصطدم هو والشركة سريعا » واتفق الوالى الجديد ووزيره نوبار العزم الأكبر من جهودهما فى الفترة من عام ١٨٦٣ – ١٨٦٩ فى المنازعات التى لا نهاية لها مع شركة القناة ، وكان دلسبس يختلق المنازعات لكى يحصل على التعويضات حتى تعطل كثير من الاصلاحات ، وتعرقل تطور البلاد : الاقتصادى والاجتماعى .

ولم يكن دلسبس فى الحقيقة يسعى لعمل يلرى منه ثراء واسعا فحسب ، أو لاقامة عمل هندسى عظيم كبير يتمتع به العالم والتاريخ ؟ فهو لم يكن مهندسا ولا عالما ، ولكنه كان يريد أن يرسى دعائم شركة على غرار الشركات « الاستعمارية » الكبرى التى سيطرت على آسيا ، والتى كانت تستعد للسيطرة على أفريقية : كانت طلائع الصراع من أجل افريقية قد بدأت ، وكان يريد اقامة قاعدة استعمارية جديدة على نمط شركة الهند الشرقية البريطانية أو شركة جزر الهند الشرقية الهولندية أو غيرهما من الشركات التى تبدأ بالتجارة أو الملاحة أو الصناعة ، ثم تنتهى بالاستيلاء على السلطة وكل الدولة !

وكانت فرنسا قد جربت الطريق العسكرى خلال حملة نابليون ، ولم تنجح ، وجربت الطريق السياسى غير المباشر خلال عصر « محمد على » ، وأرادت أن تجعل منه تابعا ينفذ سياسة فرنسا ، ولكنها لم تنجح ، وهى الآن بعد سقوط (محمد على) وبداية التدهور تجرب طريقا آخر : الاستعمار « الاقتصادى » .

وكان هذا هو الهدف الرئيسي وراء مشروع دليسبس .

« كثيراً ما كانت تتباهى شركة القناة بأنها جلبت برزخ السويس ، وادخلت الغاز والمياه في مصر ، وأنشأت مديرية جديدة لمصر ، ولكن هذه المديرية كانت في الحقيقة مستعمرة استعمارية على أبواب العاصمة » .

« ولم يكن دليسبس يريد أن يتعمق نشاط الشركة في الناحية الشرقية ، ولكنه أوضح منذ البداية أنه يريد انشاء مستعمرة ورقعة عسكرية يكون قوامها الفلاحون والبدو المحتلون ثم اليهود الجزائريون ثم بعض المسيحيين من الشام ، وهو قد أراد أن يستخدمهم كعمال في البداية ، ثم يتوطنون بعدها تماماً ، وقد أرسى دليسبس قواعد مشروعه الاستعماري هذا منذ عام ١٨٥٦ وكان سيؤدي في النهاية الى احتلال فرنسي » .

ولم يكن ذلك خافيا ولقد بعثت تركيا التي كانت تتصرف بوحي من بريطانيا بمذكرة الى الحكومة المصرية تقول :

« ينص عقد الشركة أن لها الحق في جميع المجهات التي تمتد اليها القنوات والمطالبة بملكية الأراضي التي على شفافها ، ولا توجد أية قوة تمنع الشركة متى شاءت أن تنشيء في مواقع هامة من أراضي الدولة مستعمرات شبه مستقلة عن الدولة » .

وتصاعدت أحلام دليسبس بعد تفاقم النفوذ الأجنبي في عهد اسماعيل .

وفي ٦ يونيو عام ١٨٦٢ وصل الى مصر فجأة الأمير عبدالقادر الجزائري وكان قد ترك من كل تاريخه ، وأصبح من رجالات فرنسا ومن أعوان دليسبس .

واجتمع مع مجلس ادارة شركة قناة السويس اجتماعا استثنائيا ، وقرر الموافقة على اقتراح من دليسبس بمنح الأمير قطعة أرض مساحتها ٥ ألف هكتار (٢٤٠٠ فدان من أرض

السويس ، وذلك بعد « تصديق الامبراطور نابليون » كانه الحاكم الشرعي للبلاد !

وانتبهت الحكومة المصرية الى ما تدبره الشركة مع الأمير ، ولذلك طلبت اليه أن يغادر البلاد على الفور .

ولم تتراجع الشركة ، وما لبث الأمير عبد القادر أن عاد مرة أخرى بناء على دعوة من ديلسبس ، وحينئذ قدمت الحكومة المصرية احتجاجا رسميا .

وكان مشروع ديلسبس يرمي الى توطين الأمير عبد القادر الجزائري مع خمسين أسرة جزائرية موالية لفرنسا ، وتكوين نواة تلتف حولها البدو من مصر والشام والجزائر ، واقامة قاعدة استعمارية « فرنسية » جديدة .

واحبطت الحكومة المصرية هذا المشروع ، وصاح اسماعيل في القنصل فرنسا قائلا :

« ان حكومتك تتهمني بعدم الميل الى فرنسا ، وهذا غير صحيح ! ولكنني لا أستطيع أن أستبيح كرامتي وبلادي ! ان الشركة تنظر الى مصر كأنها بلد محتل ! » .

وصاح مرة أخرى :

« ان الشركة ما فتئت تعمل في كل مناسبة على اذلال مصر ومعاملتها معاملة التابع للمتبوع ، كأنما كانت مصر للقناة لا القناة لمصر ! »

واستفزت أساليب الشركة حتى قنصل فرنسا بوجاد فكتب :

« ان الشركة تتصرف أحيانا كحكومة مستقلة أو دولة داخل الدولة ، ولهجتها في رسائلها الى الحكومة المصرية تبعث على القلق وسوء الظن وفي وقت يجب أن تتسم سياستنا فيه بالحكمة » .

وقد طرحت الشركة هذا التنصل من مصر .

وقد كان امتياز القناة سنة ١٨٥٤ يعطي مصر حق اقامة تحصينات على القناة ، ولكن عمل ديلسبس حتى اسقط هذا النص في سنة ١٨٥٦ والا يكون لأحد حق اقامة تحصينات في القناة » وقد كان اهمال التحصينات سببا في ان وجد الانجليز سنة ١٨٨٢ منطقة القناة مورد فاقتحموها الى القاهرة ! » .

وكان ديلسبس هو الذي اقنع « عرابي » بان الانجليز سيحترمون « حيدة » القناة ولن يخترقوها .

وقد بدأ العمل في القناة سنة ١٨٥٩ ، واستغرق فيه كل قوى شعب مصر وعرقه ودمه .. !

وكان الامتياز ينص على ان الحكومة المصرية تقدم العمال بناء على طلب المهندسين المشرفين على العمل وتبعا للحاجة ، كما ينص ايضا على ان تحديد عدد العمال يجب أن « تراعى فيه حاجة الزراعة الى اليد العاملة في اوقاتها » .

وقد اتفق على ان تقدم مصر شهريا عشرين الف عامل « ولكن ديلسبس طالب » بجيش كامل من العمال قوامه ثلاثون الفا على الأقل » ، وكان عدد العمال الذين يجندون في الواقع يبلغ ستين الفا ، وهذا يبين مدى السخرة والوطأة على الزراعة وفي بلد لا يزيد تعداده على خمسة ملايين ! »

وكانت الشركة تنهك عمالها ونيهم الفلاحين يعذبون بالعمل المرهق العنيف ، ولا تعني بأحوالهم الصحية سواء اجورهم او غذائهم ، وكان العمال الصعايدة يضجون بالشكوى من البسكوت العفن الذي كانت توزعه عليهم الشركة ، ومن ندرة الماء الذي يشربونه ، ومن عدم توافر وسائل الطب والعيش .. وفتكت بهم الاوبئة فتكا ذريعا حتى كانوا يموتون كالذباب وبالآلاف » وقد اضطر الوالي سعيد ان يرسل فرقة من الجيش كانت من فرقه الفضلة ولواؤها ٥٠٠٠ جندي ، وحملتهم سفينته البخارية الخاصة في النيل حتى القاهرة ، ومنها انتقلوا الى السويس ،

وعلى الرغم من أوامر الحكومة لم يستطيعوا البقاء يوماً ، وأعيدوا على خيالهم في اليوم التالي لوصولهم وفروا هاربين ».

وحاق بالزراعة المصرية خسارة جسيمة بسبب مطالب الشركة الملحة التي لا تنتهي .. وقد ظلت أكثر من أربعة أعوام تسخر جيشاً من العمال المصريين قوامه في المتوسط — ثلاثون ألف رجل — يستبدل بهم غيرهم في كل شهر ، وكان العمل يجري في مناطق وعرة وخطرة :

قال المهندس الفرنسي أوليفباريت كبير مهندسي الشركة : « وكان العمال يخوضون فيها في الطين والماء ، ويحملون الطين السائل لينساب ويغمر أجسادهم على حين يصلون في جسيم من حرارة الشمس ، ويزيد من حرارتها انعكاسها على رمال الصحراء وهذه هي السخرة ! والبؤس والجوع والموت لجماهير غفيرة من العمال والفلاحين ! »

ولم ينس ذلك المهندس أن يقرر أن العمال المصريين إذا أحسنت قيادتهم رائعون حقاً ، وهم ذوو جلد عظيم ، وفي كل يوم يزدادون خبرة ومهارة ، وقد رأيت عن كثب فرقة عمال الحسن والفريخ ، فبهرت بها ، وبعض هؤلاء الرجال يشتغلون عشر ساعات في اليوم تحت وطأة أثقال فادحة وبنفس راضية مجردة كنفس الطفل ، وهؤلاء شعب عريق ! ولن يكون من السهل الاستغناء عن معونتهم لنا وخاصة في الصيف ! »

وقد أنكرت « مأساة » العمال المصريين حتى تركيا .. وأرسلت في مذكرة للحكومة المصرية تحتج بأنه على الرغم من إلغاء السخرة في جميع بلاد الدولة العثمانية وعلى الرغم من إصدار المرسوم الأخير بتحريمها من الآن وفي مصر فإن عمال شركة السويس لا تزال تتم بمقتضى هذا النظام » ، وإن الإدارة المصرية ترغم كل شهر عشرين ألف رجل على ترك أسرهم وأراضيهم للاشتغال في القناة ، وهم مضطرون للعودة على

نفقتهم ، واكثرهم يقطعون مسافات طويلة ، وهذا بخلاف ما يلحق بهم من خسائر بسبب اكراههم على ترك مصالحهم » ..

ولم تكن الحكومة المصرية تملك شيئا ازاء الشركة .. وحينما ضاقت الحال ارسلت مذكرة تستصرخ ضمير الحكومة الفرنسية :

« في كل شهر تجمع الحكومة المصرية بالقوة عشرين الف رجل وترسلهم الى القناة ، والواقع ان عددهم الحقيقي ستون الفا ينتزعون شهريا من شغلهم وذوي قرابتهم ، اي ٧٢٠ الفا في السنة ، وفي اي بلد حتى من أجل الدفاع يمكن ان يحتشد مثل هذا العدد الضخم ؟

ان في مصر (ملايين نفس منهم ستمائة ألف في المدن معفون من السخرة وثلاثة ملايين واربعمائة الف متفرغون للزراعة ، فاذا اسقطنا عدد الشيوخ والاطفال والعجائز كان المجموع كله وقفا على سبعمائة او ثمانمائة الف فلاح ، يكرس كل منهم في العام شهرين من حياته للشركة .

وزيادة على ذلك فان الفلاح الذي يشتغل للشركة يحمل نفقات الطريق والأسفار ، ولا يتقاضى من الشركة سوى (قرشين صاغ) في اليوم مع ان اجره في بلده يبلغ ٥ — ٦ قروش ، ويظل غائبا عن أهله قرابة شهرين » .

وذهب نوبار وزير خارجية مصر الى باريس ليبحث الامر فحسم كل الامور المعلقة بين الحكومة والشركة ، وحينما لم يجد اية استجابة هددت الحكومة المصرية بسحب العمال المصريين من القناة .. وحينئذ فقط اضطرب ديلسبس وخاف ان يتوقف العمل تماما في القناة ..

وبصلاته بالامبراطور والامبراطورة طلب الى الامبراطور ان يتدخل وان يكون الحكم بينه وبين مصر في كل المسائل المعلقة ،

وقبلت مصر هذا الاحتكام الذي لم تطلبه ، والذي رتبه ديليسبس .

وافق الامبراطور نابليون الثالث « لجنة » أعدت له تقريرا مفصلا ، وأصدر حكمه وكان كما وصف في ذلك الحين : « مثار دهشة كل القانونيين في أوربا » بل كان نموذجا للتحيز والاجحاف !

ذلك أن الحكم قضى في البند الخاص بالعمال بأن حق الشركة أن تستخدم الآلات والمعدات الميكانيكية الحديثة ، وأن تزيد عدد العمال الأوربيين وتحلهم محل العمال المصريين ؛ وعلى الحكومة المصرية من جهتها أن تدفع للشركة تعويضا عن هذا قدره ٣٨ مليون فرنك ! »

وقد علق المهندس الفرنسي أوليفييه ريت على هذا فقال :

(إن احلال الآلات والعمال الأوربيين محل المصريين لا يبرر اطلاقا اكراه مصر على دفع ٣٨ مليون فرنك ، وخصوصا أن الآلات الحديثة والعمال الفنيين كان لا بد منهم في مرحلة التوسيع والتعميق النهائية ، والواقع أن الشركة هي التي كان يجب أن تدفع تعويضا لمصر عن خسائرها !) ورغم ذلك دفع التعويض واتهمت السخرة كقانون ؛ ولو أنها استمرت مع الاستغلال في الواقع !

وحدث أن احتاجت الشركة الى « جهد استثنائي » لتطهير خمسين كيلو مترا من ترعة الاسماعيلية ، واستجاب اسماعيل الذي كان قد سقط تماما في الديون في قبضة الأجانب .

وأرسل الخديو فرقة من ١٥ ألف رجل برياسة المهندس على مبارك قامت بالعمل على خير وجه ..

واستشارت المهندس الفرنسي الكبير « أوليفييه ريت » تكتب يقول :

« في أي بلد آخر غير مصر يوجد ١٥ ألف رجل في استطاعتهم أن يتموا في أقل من خمسين يوما حفر ونقل ما يقرب

من نصف مليون متر مكعب على حين أن ادجلهم في الطين ولا شيء يظلل رءوسهم سوى السماء ؟ ! .

وبعد حفر القناة كان قد مات من العمال المصريين أكثر من ١٢٠ ألف عامل ..

وكانت مصر قد دفعت من النفقات والتعويضات والالتزامات ما يقرب من ثلثي نفقات القناة (٣٥٢) مليون فرنك من النفقات التي بلغت ٤٣٢ مليون فرنك .

وتم حفر القناة وافتتحت في نوفمبر عام ١٨٦٩ في الحفل الذي وصف بأنه أبهى حفلات القرن ، وقد استدان اسماعيل قرضاً بمليوني جنيه ، ليتم هذا الاحتفال . وكانت حفلة التشريف الامبراطورة اوجيني امبراطورة فرنسا التي خطب زوجها في الجمعية الوطنية الفرنسية بمناسبة نهاية العمل ، ولم يشر بكلمة واحدة الى مصر أو الى المصريين في ذلك الخطاب ، ونسب الفضل كله الى فرنسا وعبقرية فرنسا ..

وافتتحت القناة !

وبعد اتمام العمل بدأت المرحلة الثانية من خطة ديلسبس وهي اقصاء مصر تماماً من القناة والاشتراك في ادارة القناة .

وكان لها هذا الحق بمقتضى الأسهم التي تملكها ١٧٦٠٠٠ سهم وبمقتضى بنود الامتياز ..

وقد عقد الامتياز الأصلي سنة ١٨٥٤ بمنح حق « تعيين مدير الشركة يكون دائما بواسطة الحكومة المصرية التي تختاره ما امكن من بين كبار المساهمين » ولكن ظل ديلسبس يسعى حتى استطاع هذا الحق في تعديل سنة ١٨٥٦ ، وأصبح تعيين المدير من حق مجلس ادارة الشركة فقط .

وقبيل نهاية العمل تم الاتفاق بين اسماعيل وديلسبس على تسوية عامة بشأن كل مطالبات الشركة لدفع مصر بمقتضاها ٣٠ مليون فرنك تعويضا للشركة ..

ولما كانت خزائن الحكومة المصرية خاوية وقد استهلكت ديون اسماعيل كل شيء وأتت على كل الموارد ـ فقد طلب دلسبس أن يكون السداد عن طريق تسليم الشركة كوبونات الأسهم التي تملكها مصر وبالقدر اللازم لسداد الثلاثين مليونا .. !

وبعد الاحتفالات استصدر دليسبس قرارا من الجمعية العمومية للمساهمين بأن المالكين لأسهم مجردة من الكوبونات لا يحق لهم الاشتراك في الجمعية العمومية ، وكان المقصود مصر .

ولم يمض طويل حتى باع اسماعيل كل ما تملك مصر من أسهم لبريطانيا في الصفقة المشهورة بأبخس ثمن ، وبذلك أصبحت مصر مبعدة تماما عن القناة .. ولم تعد الى الاشتراك في ادارتها الا سنة ١٩٢٦ حينما سمح أن يكون مصريان في مجلس ادارة الشركة تعينهما الحكومة المصرية ..

ولم تكن القناة هي كل ما خسرته مصر ، بل كانت القصة (وهي كانت نموذجا) دال الجميع على الفرصة والوسيلة (وأصبحت مصر في عهد اسماعيل أكبر سوق في العالم للمضاربات والتعويضات : أصبح فيها ١٧ دولة داخل الدولة بعدد القنصليات ، وكان رعايا الدول من تجار ومقاولين وغيرهم يتطلبون الفرص لايجاد نزاع مع الحكومة على طريقة دلسبس ، ويحتالون في تأويل العقود والاتفاقات واللوائح لمطالبة الحكومة بتعويضات ضخمة ، وكان القناصل يتواطئون معهم في سلب الخزانة المصرية ، ولا يحجمون عن تهديد الحكومة بأساطيلهم (لذلك جلبت مصر تفاوتي في انشاء المحاكم المختلطة ، وهي محاكم من قضاة أجانب ومصريين لنظر قضايا الأجانب ..

ولكن فرنسا ظلت تراقب خلال تسع سنوات كاملة حتى تمت القناة خوفا من أن تحل سلطة تعسفية محل السلطة الدبلوماسية التي كان يستند اليها دليسبس) .

ولم يقدر لدلسبس مع هذا ان يخدع كل الناس كل الوقت ، فقد اصطدم مشروعه الثاني وهو « قناة بناما » والمصالح الأمريكية، وانكشف أمره الذي لم يكن لينكشف في مصر او بسبب مصر .

وفي ٩ فبراير سنة ١٨٩٢ حكمت محكمة جنايات باريس على فرديناند دليسبس وابنه شارل بالسجن خمس سنوات بتهمة النصب والرشوة .

« كان يرشو الصحف والساسة والدبلوماسيين وثبت ان ١٥٠ نائبا وشيخا في مجلس البرلمان الفرنسي كانوا يتقاضون منه مرتبات ومعونات ، وان رؤساء وزارات ووزراء كانوا يتقاضون بطريق مباشر او غير مباشر الاف وملايين الفرنكات على سبيل الرشوة .. ومن بينهم « كليمنصو » اشهر رؤساء وزراء فرنسا حتى الحرب العالمية الاولى ..

وقد ظلت « قناة السويس » في تاريخ وحياة مصر جرحا عميقا دامنا تتوارثه جيل بعد جيل .

وكانت الشركة تدرك « فداحة » الحساب الذي لا بد منه سوف يسوى يوما ! ولهذا كانت تبحث دائما عن ضمانات ، وتريد دائما ان تؤجل هذا اليوم ..

وفي بداية القرن العشرين وقبل ستين عاما من نهاية الامتياز الذي كان « ٩٩ عاما » طلبت الشركة مده .. وتوقف المشروع حينما انطلقت رصاصات شاب مصري وطني على رئيس الوزراء الذي صنع المشروع « .

ومنذ سنة ١٩٥٥ وبعد أن وضحت سياسات مصر ومبادئها الجديدة بدا جورج بيكو مدير الشركة الفرنسي يبدي مخاوفه وقلقه حول الموقف بالنسبة لقناة السويس في سنة ١٩٦٨ وهو موعد نهاية الـ ٩٩ عاما ونهاية الامتياز ، وطالب « بتنسيق بين فرنسا وبريطانيا وامريكا حتى تتلافى ازمة انتقال القناة الى المصريين الذين لا يستطيعون ولا يعرفون كيف يديرونها ؟ » وطالب

أيضا بأن « تظل الشركة بعد سنة ١٩٦٨ وفي ظل اتفاق خاص هي القائمة على شئون القناة حتى لا تضطرب أو تفسد ! »

وفي أوائل سنة ١٩٥٦ طالبت جريدة التايمس البريطانية شركة قناة السويس « من أن تخضع لضغط مصر ، وأن تزيد عدد الموظفين المصريين وهم الموظفون التابعون لحكومة عسكرية وطنية مما يؤدي الى اختلال شئون القناة .. »

وفي يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ أعلن قائد الثورة ، رئيس الجمهورية ، باسم الأمة :

« تأميم الشركة العالمية لقناة السويس لتصبح شركة مساهمة مصرية » .

وبذلك تم تصحيح التاريخ !

ثـورة القراصنة

كان السير انتونى ايدن فارس الامبراطورية ، وحامل وسام ربطة الساق ، ورئيس وزراء المملكة المتحدة ـ يقيم حفل عشاء ساهر فى المقر الرسمى لرئيس وزراء بريطانيا « ١٠ دوننج ستريت » ولضيف عزيز على الامبراطورية .

وكان ايدن يجلس محاطا بكل اقطاب الوزارة وابرار وحفدة بناة الامبراطورية العظمى امبراطورية عرفها التاريخ « والتى كانت الشمس لا تغرب عنها ، ويجب الا تغرب !

اللورد سالسبورى ، والسير اليك دوجلاس هيوم ، وهارولد ماكميلان ، واللورد كيلمور ، والسير سلوين لويد .. الخ وكل بالقابه واوسمته الملائكية وتاريخه « فى خدمة الامبراطورية » .

وكان ضيف الشرف الشاب هو جلالة الملك فيصل الثانى ملك العراق ومعه رئيس وزرائه السيد نورى السعيد ..

وكان السير انتونى ايدن سعيدا بالغ السعادة ، يتأمل باعجاب ضيفه « الشاب كأفضل نموذج للحاكم الشاب الذى يرى شعبه ويحرص عليه ، متواضع فى حياته ، بسيط فى تصرفاته » وحينما سمعت خطبته فى العشاء الذى اقيم له بالامس فى بكنجهام بالاس سرح خيالى بعيدا الى اول لقاء لى مع جلالته

منشيء العراق وعميد الاسرة الهاشمية .. حانق لورنس طوال مسيرته ، وظل حليفنا منذ الحرب العالمية الاولى .. ان « فيصل » الاول فخور بحميمه هذا الشيء » .

وحينما ننتقل بأملائه لنوري السعيد توالت ذكريات حافلة ايضا : « اول لقاء لنا في بغداد سنة ١٩٢٥ ، ومن يومها اصبحنا صديقين حميمين ، وكان تاريخنا طويلا .

بدا فيصل الاول قائدا للثورة العربية سنة ١٩١٦ وانتهى واجهة مفتعلة للسيطرة والاستعمار البريطاني » في العراق .

وتولى بعده ابنه « غازي الاول » ، ولكنه اصطدم بالخصوم الوطنيين ، ومات بعد فترة حكم قصيرة في حادث غامض مما تخصصت الخابرات البريطانية في مثله لمن يعارضون مصالح الامبراطورية ينحرفون عن خدمتها .

وتولى بعده ابنه الطفل فيصل الثاني ، وكان لعبة طيعة في يد خاله الوصي عليه « عبد الاله » ثم في يد رئيس الوزراء نوري السعيد « رجل بريطانيا واملها الباقي .

وكان نوري هو امل ايدن الاول والاخير ، كان نوري قد اصبح اقل سمعا ، ولكنه ما زال صلبا ، وأشد مرحا وعصبية ، وكان ما يعنيه ويهمه هو الحاضر ، وكان على وعي عميق جدا بالخطر المميت الذي يحيط به .. من ناصر .

وهذا ما يجمعهما الآن .. فاذا تمردت مصر بقيادة ناصر فما زال هناك العراق ، وما زال هناك نوري يصحح الموازين والاوضاع !

وتطلع ملي ايدن باملائه العادية سكرتيره وضع ورقة امامه على مائدة العشاء قراها ، وامتقع وجهه واصفر اصفرارا شديدا .

ووقف ايدن منفعلا كما لم ينفعل « لورد » بريطاني عريق .. واعلن النبأ .. « لقد أمم عبد الناصر قناة السويس ! » .

وفي حفل آخر مختلف ، وقف غريمه الأول « الفـــلاح » عبد الناصر واطلق وسط جمع حاشد من لابسي الجلاليب تأميم أهم ممر مائي في العالم .

وفي منزل روجيه ماكيل المعروف الى حفل العشاء تناولوا عشاءهم بسرعة ، ثم انفض الحفل مبكرا .

وغادر الضيفان ، المدعوان ، الحفل ولم ينس بروك السفير وهو ينصرف أن يشد على يد ايدن مشجعا وناصحا وآمرا .. « اسحقه .. اسحقه الآن وبلا تردد .. اسحقه وبلا رحمة » .

وعاد ايدن مباشرا الى اجتماع لمجلس الوزراء في الغــرفة المجاورة .

« كان الكل ببدلة الســهرة ، وبكل الأوســمة ، وبدا البعض من الآتين من سهرات لندن وحفلاتها ، وجاءوا واحدا بعد الآخر .. بأطقم مختلفة .. جاء مونتاجو ببدلة السهرة العسكرية وبكل أوسمته ونياشينه ، وجاء كل رؤساء أركان الحرب ، ودعي السفير الفرنسي وكان الوحيد الذي جاء ببدلة عادية حتى وصل القائم بالأعمال الأمريكي الذي دعي لأن الســفير ذهب في الصــباح ليقضي اجازة مطولة » .

وعقد « أغرب اجتماع لمجلس الوزراء البريطاني » لبحث مســألة من « أخطر المسائل التي واجهت بريطانيــا بعد الحــرب العالمية الثانية » .

« وكان اجتماعا محموما » كانت هناك درجات متفاوتة من الجهل والحقد ، ولكن لم يكن هناك اختلاف أو معارضة ..

وتريد ايدن الحرب على الفور ووافقوا جميعا .. وكان أكثرهم انفعالا وبطولية « ماكميلان » ..

وفي صــباح اليوم التالي أرسل ايدن رســـالة مطولة الى ايزنهاور تقول :

« آن الأوان لوقف حكم وتعالي من مصر ، ان نفوذكم ونفوذنا سوف يصبح الى الأبد وبلا رجعة فى الشرق الأوسط اذا لم نحسم كل شيء . ويجب الا نسمح لأنفسنا بان نستغرق في الحجج القانونية ! حول حق حكومة في التأميم او عدمه ، وحول مقدرة المصريين المالية على دفع التعويض او لا ، فان الامر اخطر من هذا ! ..

وانا وزملائي فى الحكومة مقتنعون تماما باننا يجب ان نكون مستعدين آخر الأمر لاستعمال القوة لكى نعيد عبد الناصر الى رشده ، ونحن من جانبنا مستعدون لهذا ، وقد أصدرت تعليماتي هذا الصباح الى رؤساء أركان الحرب لاعداد خطة عسكرية للعمل فورا ، وعلى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة أن تنسق مواقفها » .

واختار ايدن بالفعل القائد الذى تسند اليه العملية وهو الجنرال « ستوكويل » الذى أخلى جيشنا ذات يوم والذى عمل فى منطقة القناة ، وأرسل فى استدعائه من ألمانيا « ليقتحم فى أسرع وقت ممكن خطة الهجوم » !

وكان دالاس يوم التأميم فى أمريكا اللاتينية فى « ليما » عاصمة بيرو ، حيث ذهب فى جولة تفتيشية فى عواصم الامبراطورية !

لقد ودع مصر والعلمان ، واذا كان هناك نبأ قد يأتى بعدئذ من الشرق الأوسط فلن يكون سوى رد الفعل ، ولا يمكن ان يكون غير تخلخل قواعد النظام فى مصر أو تمرد الشعب المصرى ، وانتفاضته ضد النظام .. أو النبأ الحاسم وهو سقوط ناصر .. !

وقد سطرت وزارة الخارجية الأمريكية من التحذير وجهه السفير الفرنسى فى واشنطن كوف دى مورفيل الذى أدرك بعد تفكير ومعرفة وثيقة بشئون مصر « ان مصر قد تؤمم قناة السويس

ردا على الرفض الامريكى لتمويل السد » ولكن استبعد هذا الاحتمال تماما ، ولهذا ذهب « الآسي الى « ايسا » ، وذهب الباقون الى عطلة « الويك اند » .

وحينما وصلته رسالة ايدن الى ايزنهاور ، ورأى قرار ايدن بالحرب مباشرة ، على الفور ارتبك وقرر أن يوفد « مورفي » وكيل وزارة الخارجية الامريكية اليه لكى يهدئ ايدن قليلا حتى تتضح الامور » .

وفى باريس سيطرت الهستيريا ، واستدعى وزير الخارجية الفرنسى بينو السفير المصرى ، وجرت مقابلة عاصفة فقد فيها بينو أعصابه والأولويات الجاملة الدبلوماسية ، وأطلق بالشتائم على مصر ، ثم قذف للسفير بمذكرة الاحتجاج قذفها له السفير المصرى بدوره فى وجهه ، وأغلق الباب بعنف وخرج غاضبا ..

واستدعى بينو السفير الامريكى بعده ، وأعلن له فى ثورة غضب « ان تأميم القناة عمل لا يختلف فى شئ عن احتلال هتلر للراين ، واذا لم يرد الغرب بسرعة وبعنف فان بترول الشرق الاوسط وكل خطوط وأنابيب هذا البترول سوف تؤمم بعد ثلاثة أشهر ، وسوف تقع اوربا كلها تحت رحمة العرب » .

وطلب بينو الى السفير الأمريكى أيضا « ان تسمح امريكا لفرنسا بأن ترسل على الفور سربين آخرين من طائرات الميستير المخصصة لحلف الأطلنطى الى اسرائيل » .

وأكد بينو للسفير الأمريكى « ان فرنسا وبريطانيا على أهبة احتلال القناة ، وهذه المهمة لن تكون صعبة ، ولن يستطيع الروس حماية مصر أو مساعدتها ! » .

وكما حدث على الشاطئ الآخر للمانش اختير قائد القوات الفرنسية وكان الجنرال « بوفر » على أن يكون نائب القائد للقوات المشتركة الانجلوفرنسية ، وأخطر الجنرال ديجول بقرار

الحرب ، ووافق ولكنه اعترض على اسناد القيادة العامة للبريطانيين ، ووضع القوات الفرنسية تحت قيادة بريطانية ، ولهذا تقرر أن تظل القوات الفرنسية مستقلة في اطار العملية المشتركة ..

أصبح الفرنسيون يرون أن المعركة معركتهم مباشرة ..

لم تعد مهمة فرنسا تسليح اسرائيل ، انقلبوا يحضرون ويؤيدونه ولكن أصبحت حربها ، ولا بد أن يكون لها مباشرة مجد اسقاط النظام في مصر .. !

وسافر بينو الى لندن لتنسيق العمل مع لندن ، ووصل مبعوث ايزنهاور ليجد الموقف على حافة الحرب وشفا الانفجار .

وكتبت التايمس في افتتاحية لعنبرت « بيان » اعلان الحرب قالت فيها :

« اذا سمح لعبد الناصر أن يفوز بهذه النتيجة فان كل المصالح البريطانية ومصالح الغرب في الشرق الأوسط سوف تنهار ، وقد عانى العالم المعاصر من تصرفات عدة مماثلة مثل زحف هتلر على الراين وغضب ستالين على الحصرية في تشيكوسلوفاكيا ، وقد تمت كلها تحت اسم تأكيد السيادة الداخلية ، ولكنها كانت عدوانا على التاريخ . وان استيلاء عبد الناصر على قناة السويس مثل مماثل ، ولكنه نقطة تحول أيضا ، وان السفسطة حول احتمال أن له الحق قانونا انما هي حمق قد يرضي اللاعبين أو يخفف من ذوي القلوب الرقيقة ، ولكنه يهرب تماما من مواجهة القضايا الحقيقية ، وأول هذه القضايا واضح وبسيط ، وهو أن حرية الملاحة في قناة السويس في الحرب أو في السلم مصلحة غربية رئيسية ، ولا ضمان لهذه الا اذا كانت القناة في أيد أمينة ، واستيلاء ناصر على القناة بغير حق وشطحاته التي صحبت عملية الاستيلاء انما تبعد كل الصداقة والثقة .

والقضية الثانية هي قضية حقول البترول ومنشآته الكبرى في الشرق الأوسط ، وهي قاعدة من القواعد الرئيسية للصناعة وللأمن البريطاني والأوروبي عامة ، وكل من يعتقد أن تولي ناصر بالقضية لن يشجع المتطرفين الآخرين على أعمال مماثلة ضد شركات البترول وضد القواعد الاستراتيجية الغربية لا بد أن يكون أحمق أو أعمى البصيرة ..

وأما القضية الثالثة فهي أوسع وأهم ، وهي أنه لا استقرار ولا أمان في العالم طالما كانت الاتفاقات تمزق كقصاصات ورق هكذا بلا اكتراث ! » .

والتايمس جريدة محترمة وقورة طالما كانت المصالح الامبراطورية في أمان .

وقد استفزت هذه الافتتاحية وأساليبها بريطانيا ساسة هو « السير فريدريك ليث روس » فكتب ردا قال فيه : « إن الحديث عن السلسلة وما إليها قد يكون لائقا بوليس لحزب ، ولكنه قطعا لا يمكن أن يكون موفقا لحكومة مسئولة : وإن تأميم القناة لم يغير شيئا من إدارتها أو من سير العمل فيها ، ولهذا فإن الحديث عن إدارة مطلقة لها حديث لا حكمة ولا عقل فيه ، وأما الحديث الأعوج عن استعمال القوة فإنه يتجاهل أهم الحقائق ، وهي أنه لا يمكن لإدارة القناة وتأمينها على أي ظروف بقهر معاونة المصريين والعرب ، ونحن فيما يبدو ننسى دائما أنه هذا ما المستقبل بلد ما فإنه يستطيع أن يتصرف تصرفات مستقلة » .

وقد كان السير فريدريك ليث روس مستشارا للبنك الأهلي في مصر فترة طويلة ، وكانت هذه أصواتا وحيدة ضائعة ..

وصرح متحدث في وزارة الخارجية البريطانية : سوف نكون متوحشين مع ناصر ونحن نبحث عن أنسب الطرق !

وفي اليوم التالي لوصول مورفي إلى لندن تناول الغداء مع إيدن وسالسبرى وماكميلان « وكانوا على ثقة من أن الولايات

المتحدة سوف تنضم الى الحملة البريطانية — الفرنسية للقضاء على مصر ، وكان ايدن يرى ان لا ضرورة لأية مساعدة مباشرة من الولايات المتحدة الا اذا تدخلت روسيا ، وحينئذ عليها أن تعنى بأمر الدب » .

« وأكد ايدن ان القرار بغزو مصر قد اتخذته الحكومة البريطانية ، وهو قرار نهائي ، لا رجعة فيه » .

وارسل مورفي لأيزنهاور : « لا حل هنا يغني القوة وتؤكد الحكومة البريطانية أن المهمة سهلة وسريعة وتقدر القوات اللازمة بفرقة او فرقتين على الأكثر » وقد اعتمد مبلغ خمسة ملايين جنيه ، ويؤكد ايدن ان الشعب البريطاني كله وراءه ، وان هناك اجماعا من المحافظين والعمال على هذا » .

وكانت الحكومة والمعارضة حقيقة في موقف واحد ، وقد وقف جيتسكيل زعيم العمال في البرلمان واعلن : « اننا من جانبنا نأسف على هذا العمل التعسفي الذي لا مبرر له ولا شرعية فيه من جانب الحكومة المصرية ! » .

واعلن جيتسكيل :

« ياهي الكولونيل ناصر دائما بتوحيد المساحة الامبراطورية عربية من الاطلسي الى الاطلنطي ، وهذا شيء معروف ، وهو نفس ما واجهناه من هتلر وموسوليني وما يجب الا يتكرر ! » .

ووقف هربرت موريسون قطب حزب العمال ، والعمال المحافظين مشجعا : « لا تترددوا ولا تتساهلوا » .

واطمأن ايدن ودهش اللورد ستانسجيت العمالي في مجلس اللوردات من أن خطاب جيتسكيل كان اكثر « عدوانية ودعوة للحرب من خطاب ايدن في نفس الجلسة » .

وتعجب اللورد ستانسجيت الذى كان يعرف مصر جيدا أن يكون زعيم المعارضة العمالية « اقل تعقلا وحكمة » من رئيس الوزراء المحافظ !

وقرر ايزنهاور أن يستدعي دالاس من أمريكا الجنوبية ليحضر فورا الى لندن .

وفي الطائرة تفتقت عقلية دالاس عن مشروع ذى خمسة مبادىء تسوى على أساسها المشكلة .. وهى :

١ ـ لا يسمح ابدا بان تكون القناة تحت سيطرة دولة واحدة وبغير ارادة دولية .

٢ ـ لا بد ان يكون اتفاق ١٨٨٨ هو أساس المناقشة لتجنب المضاعفات بالنسبة لقناة بنما .

وكانت هذه اول مشكلة ازعجته بعد قرار التأميم .. لا بد من تأكيد ان السويس تختلف تماما عن بنما .. والسويس ممر دولي لا بد ان تديره كل دول العالم الملاحية والتجارية المشتركة .. اما قناة بنما ، فهى مجرد أرض استأجرتها حكومة الولايات المتحدة من بنما ؛ وقامت شركة امريكية خاصة بشق قناة فيها .. وهى لهذا مشروع تجارى امريكى لا تشابه بينه وبين قناة السويس ، بل لا وجه مطلقا للمقارنة بين القناتين !

٣ ـ القوة هى الطريق الاخير الذى نلجأ اليه ، ولا تستبعد الولايات المتحدة استعمال القوة اذا ما فشلت الوسائل الاخرى .

٤ ـ لا بد من تعبئة الرأى العام العالمي في صف الادارة الدولية للقناة .

٥ ـ لا بد ان نحاول الحصول على تأييد اغلبية الثلثين في مؤتمر نعقده للدول المنتفعة بالقناة .

وفي أول اجتماع عقد في لندن يوم وصوله وهو الأول من أغسطس سنة ١٩٥٦ أعلن دالاس لايدن وبينو رأيه واضحا وكاملا :

« لا بد أن نجد طريقا نجعل عبد الناصر يتقيأ ما يحاول ابتلاعه ! ولا بد أن نقوم بجهد حقيقي لكي نعبئ الرأى العام العالمي

اقامة ادارة دولية للقناة ، ولا بد أن تخلق رأيا عاما دوليا مضادا لناصر لكى يمكن عزله ، وحينئذ اذا ما تقرر القيام بعملية عسكرية فان نجاحها يكون مضمونا ومضاعفاتها تكون أقل مما لو تمت على الفور » .

وأكد دالاس لايدن « أنطباعا كان حقيقيا ودقيقا عنه — أى دالاس — كان معاديا لعبد الناصر ومعاديا لمصر » وكما قال ايدن : « تشجعنا بتصريحات دالاس وآرائه ، وكان متفقا معنا فى أن الاستيلاء على هذا الممر الدولى الهام لمصر لا يمكن السماح به لمصر ، وخاصة أن عبد الناصر لا بد أن يتقيأ ، أو لا بد أن يرغم على أن يتقيأ » كما قال .. وكانت هذه كلمات صريحة ومباشرة وقد ظلت ترن فى أذنى لأشهر طويلة » .

وأكد ايدن وبينو للمستر دالاس بنفس الكلمات الصريحة : « ان بريطانيا وفرنسا مصممتان على استرداد القناة بالقوة اذا لم يتراجع ناصر ويستسلم تماما ، والقضية الحقيقية هى ناصر وليست القناة ، لأن بريطانيا سوف تنتهى تماما اذا ما سمح لناصر أن يفوز بالقناة ، وان مركز فرنسا فى شمال افريقيا كله انما يعتمد على هذه القضية .. واذا ما نجح ناصر فان الجزائريين سوف يتشجعون ، وسوف يحصلون على تأييد وعلى أسلحة أكثر من مصر ، وسوف يدمرون الوجود الفرنسى » .

وصدر عن الاجتماع الثلاثى بيان يدعو الى مؤتمر فى لندن للدول المستغلة للقناة ويبحث الأمور التالية :

١ — تكوين الهيئة الدولية التى سوف تتولى ادارة القناة .

٢ — وضع الضمانات لحرية الملاحة فى القناة على أساس اتفاقية ١٨٨٨ .

٣ — تعويض مساهمى الشركة .

٤ — تحديد الرسوم التى تفرض على استعمال القناة .

« ــ واخيرا في مقابل الحصول على الادارة المصرية يتضمن لمصر نصيب عادل من التعويض .

كان ايزنهاور يؤيد كل ما اراده ايدن « الذي كان على ثقة من ان « عبد الناصر » سيرفضه ، ولهذا سيبرر اللجوء فورا الى الحرب » .

وعاد دالاس الى واشنطن ليصرح بقوله : « ان الاعمال العسكرية ليست بعيدة الوقوع ، واذا ما بدأت فمن الصعب التكهن بما اذا كان يمكن حصرها او لن تتسع » .

ولم يقل دالاس لايدن او بينو وايا منهما حول الحرب ؛ هل يؤيدها او يعارضها ؟ ولكن قال ايدن :

« لم اخف شيئا على دالاس ، وقلت له : ان الملحق البحري الامريكي يطلب معلومات من استعداداتنا العسكرية ، ولدي لا مانع في اعطائه كل المعلومات ، ولكن اريد ان اتيقن ان الولايات المتحدة تريد هذه المعلومات لشيء جدي » واجاب دالاس : ان الولايات المتحدة تتفهم تماما الهدف من استعداداتنا العسكرية ، وانها تعتقد انها تلك التي نمال ، وان كان من الافضل الا تحصل الولايات المتحدة على معلومات مفصلة » .

كما « قال ايدن بعدئذ : « كانت مشكلتي مع دالاس هي ان اجد دائما ملفا يعني كلماته ، والمغزى الذي يريده سواء من اقواله او من تصرفاته .. وهو مبشر كبير في السياسة الامريكية ، ولكنه يبدو احيانا كأنه لا يكترث كثيرا لنتائج كلماته » .

وبعد سفر دالاس بأيام قليلة عقد في وزارة الحربية البريطانية اكبر اجتماع عسكري حضره مائتان من كبار الضباط لكل الاسلحة برئاسة اللورد « ماونتباتن » لاقرار الخطة النهائية للعمل ..

وتقرر في الاجتماع أن تحطيم ناصر لا بد أن يبدأ بتحطيم القوة العسكرية التي يستند اليها ناصر ، وتحطيم هذه القوة لا بد ان يبدأ بتحطيم السلاح الجوي المصري ، ثم القضاء على الجيش المصري كله .

ووضعت خطة الغزو على أن يبدأ من الاسكندرية ، ثم يبدأ الزحف الى الدلتا بعد ان يكون السلاح الجوي البريطاني قد قضى على الطيران المصري ! ..

وتحدد للغزو يوم ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٦ ، وفي ذلك اليوم سوف يطلب من المرشدين الأجانب الانسحاب من العمل في القناة ، وسوف يرتبك العمل وتتدهور الادارة لعجز المصريين ، وحينئذ يبدأ الهجوم بحجة الاستيلاء على القناة لادارتها وضمان استمرار الملاحة ..

وصرح متحدث عرف أنه بريطاني بعد : بأن أي تسوية للقناة مستحيلة طالما كان ناصر في السلطة .

وذلك قبل انعقاد مؤتمر لندن بأسبوع واحد ..

ولا ريب أنه قد وصلت هذه المعلومات عن الاستعدادات العسكرية الى واشنطن ، ولهذا توالت الرسائل من ايزنهاور ودالاس للتريث وضبط النفس ، ولأنه من الخطأ مقابلة العنف المصري بالعنف ، الى ان تتضح نتائج المؤتمر القادم وتستنفد كل الوسائل للحلول السلمية .

ولكن تسربت المعلومات ايضا الى الشعب البريطاني ، وبدأ بسرعة تحول عاد خوفا من الحرب ومضاعفاتها ، واجتمعت الهيئة البرلمانية لحزب العمال البريطاني ، وقررت مطالبة الحكومة ببيان يؤكد أن الاستعدادات العسكرية الانجلوفرنسية ليست استعدادات لتدخل عسكري مشترك ، وبدأت صحف العمال تنتقد وتندد ، بالبطولة الوهمية الزائفة التي يفتعلها المحافظون

ومساعيهم لتحرير العرب ، وبدء انشقاق في الاجماع البريطاني الذي كان يعتمد عليه ايدن في بريطانيا .

وبدا ايضا انشقاق في الاجماع الغربي الذي خرج به ايدن وكان يعتمد عليه اكثر ..

وقد قال انصار دالاس : انه كان لا يقل رغبة عن ايدن وينو في التخلص من ناصر ، ولكنه لم يكن يرى القناة سببا كافيا ، ولانه ايضا كان يحمل تحفظات كثيرة على التفاهم عليه بالتحالف مع دولتين استعماريتين هما بريطانيا وفرنسا ..

وقد رد ايدن بعنف ردا لاذعا : بان سيطرة الولايات المتحدة مثلا على ليبيريا او السعودية والارباح الخرافية التي يستنزفها رأس المال الامريكي من هذين البلدين استعمار يفوق اي استعمار مارسته بريطانيا في تاريخها .

كان دالاس يريد القضاء على ناصر وعلى النظام في مصر بل وعلى مصر ذاتها ان استطاع ، ولكن ليس لحساب ايدن او لحساب بينو ، والحرب التي يريدها ايدن تعني عودة النفوذ البريطاني الى الشرق الاوسط ، وتعني خروج ايدن كبطل يرد هيبة بريطانيا ونفوذها .

وكانت الكراهية بين الاثنين تاريخية ، وبلا حدود كما قال مورفي في مذكراته :

كان الرأي السائد في واشنطون ان ايدن رجل كريه ، وكان ايزنهاور يرى انه يريد ان يستخدم الولايات المتحدة كمخلب قط لحماية المصالح البريطانية ، وكان رجال الخارجية الامريكية يرونه قليل العقل وغير متوازن ، وكان دالاس يمقت على الاخص موقفه من اوروبا ، وكان هوفر لا يطيقه ، وكان ثمة شبه اجماع على انه ليس هناك من هو اكثر صلفا ولا غباء منه .. !

وكان ايدن يعرف تماما موقف دالاس منه »

وقد قال باكيا : كان اتشيسون وزير خارجية ترومان لا يخشى قط ما هو واجب لحليف مثلنا ، وكان يتحمل ويتصرف بروح الشريك المتساوي في شركة الشد القديمة حتى لو كانت الولايات المتحدة هي التي تحمل العبء الاكبر ، ولكن دالاس كان يريد تبعية كاملة ..

وكما قال موراي : كان ايدن لا يدرك الى اي مدى تدهورت قوة بريطانيا بالنسبة الى امريكا وروسيا ، وهي حقيقة لم يكن دالاس ينساها قط .

كان ايدن عقبة امام دالاس يريد ازاحتها تماما كما كان يريد ازاحة ناصر ، وهو يفضل ان يقضي كل منهما على الآخر ، ولكن لن تنتهي الحرب الى عودة الوجود البريطاني فهذا مستحيل ..

ولم يكن الامر ليختلف مع فرنسا ، فقد كان مسموحا لفرنسا ان تسلح اسرائيل ، وان تساهم في احكام الحصار حول ناصر ، ولكن ان تعلن الحرب بنفسها ولن تستعيد قناة السويس ، وان تعيد الوجود الفرنسي في الشرق الاوسط ، وان تثبته في شمالي افريقية فهو امر مختلف تماما لا يريد دالاس ان يكون .

ولم تكن سيطرة بريطانيا وفرنسا على قناة السويس محل اعجاب الاحتكارات والمصالح الامريكية البترولية ، وخاصة في المنطقة ، وكان سعي أمريكا لتحتل مكانا أكبر فيها لا يكل ، وهي لم تكن لتأسف لنهاية هذه السيطرة ، ولأن ترث امريكا هذه القناة كما ورثت بريطانيا نصيب الأسد من فرنسا ذات يوم .

وقد كان قائد الاسطول الامريكي يبدو من اكثر المتحمسين لاسقاط النظام في مصر ، وكان يرى أن سيطرة الاسطول الأمريكي على قناة السويس ضرورية لسيطرته على البحر الأبيض ، وضرورية لسيطرة الولايات المتحدة البحرية عامة .

وكان السر وراء مساعي السلام الأمريكية أن دالاس قد وضع خطته الخاصة لاسقاط النظام في مصر بلا مضاعفات دولية

خطيرة ، ومن طريق اسرائيل ، وبحروب محدودة بين دولتين من دول المنطقة ..

وقد تحدد موعد الهجوم الاسرائيلي على مصر في الاسبوع الاول من نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، وكان هذا الموعد من أنسب الاوقات لأنه كان الاسبوع الاخير لانتخابات الرياسة الامريكية التي كانت تجري في ذلك العام ، وسوف يكون الرأي العام الامريكي منشغلا ، ولأنه في نوفمبر أيضا سوف يكون الموقف في شرقي اوربا قد بلغ ذروته على حسب تقديرات واستعدادات المخابرات الامريكية ، وسوف تكون روسيا مستغرقة تماما في مشاكلها بحيث لا يكون لها فرصة للتدخل في الشرق الأوسط .

كان دالاس يريد حربا امريكية وغير مباشرة ولكن يسقط النظام في مصر لحساب الولايات المتحدة وحدها ، ولذلك سعى دالاس بكل ما يستطيع لتأجيل الحرب ولمواجهة موقف جديد لم يكن قد حسب حسابه .

ولكن مرة اخرى اختلطت ترتيباته وحساباته مع ايدن كما حدث ذات يوم حول حلف بغداد الذي وضع دالاس خطته ومشروعه واخترعه ايدن ؛ لكي يكون بطله او محقق التأسيس حيدنا اوليا ، وهو خالق الارتباك والانشقاق في صفوف الأعداء .. !

مناورات قبل العدوان

انعقد مؤتمر لندن كما اقترح دالاس فى ١٦ من أغسطس ١٩٥٦ لبحث أزمة القناة ولبحث المشروع الذى أعده وزير خارجية أمريكا « دالاس » وحضرت المؤتمر ٢٢ دولة ، ولم تحضر مصر ، وكان فى نية مصر أن تحضر .. بل بحثت فكرة ذهاب الرئيس عبد الناصر بنفسه ليرأس وفد مصر ، ولكن أمل ايدن أن يجعل حضور مصر أو ناصر مستحيلا ، فقد ذهب إلى التلفزيون البريطانى والقى حديثا هاجم فيه مصر وقيادتها هجوما مقذعا وبذيئا دفع مصر إلى رفض حضور المؤتمر .

وقد انقسم المؤتمر منذ الجلسات الأولى انقساما طبيعيا ومتوقعا إلى الفريق الغربى الذى يضم الأغلبية الساحقة من أعضاء المؤتمر وهم ثمانى عشرة دولة يتفقون مع الاقتراح الأمريكى ، ويقضى بتشكيل ادارة دولية للقناة تشترك فيها مصر بشكل ما ، وكان الفريق الآخر وهو الأقلية يضم أربع دول هى روسيا والهند واندونيسيا وسيلان وتتفق مع اقتراح تقدمت به الهند التى كان يمثلها كريشنا منون .. ويقضى بأن تظل الادارة مصرية على أن تعاونها هيئة استشارية دولية .

ولما كان الاتفاق قد تم بعد جدل طويل على ان يكون التصويت بالاجماع لا بأغلب الاصوات ، فلم يقدر لأى الاقتراحين ان يكون قرار المؤتمر ، وبهذا لم ينته الى شيء .. ولم يتقـــدم بالازمة خطوة ..

وكان ايدن سعيدا بفشل المؤتمر ، لأنه يعني ان لا حل سوى الحرب ، وكان دالاس راضيـــا ، فقد حقق المؤتمر هدفه من المناورة لكسب الوقت ولكسر اندفاع ايدن نحو الحرب .

ومع فشل المؤتمر اقترح دالاس لكسب مزيد من الوقت ايفاد بعثة لحمل اقتراح الاغلبيـة الى مصر وتحاول اقناعها به .. لم يكن لدى اي احد امل في نجاح البعثـة ، لأنه لم يكن لدى المصريين مبرر واحد في قبول الاقتراح كما قال روبرت مورفي مساعد دالاس ، ولكن تقررت البعثة ، واختير لرئاستها من بين كل الاعضاء روبرت منزيس رئيس وزراء أستـــراليا ورئيس وفدها للمؤتمر .

وكان أسوأ اختيار ! وربما كان المقصود اختيار لبعثـــة كان مقصودا تماما أن تفشل ! .

وكان منزيس منذ بدأت ازمة القناة يهاجم بأسفه الأوصاف واقذعها مصر والنظام فيها وقياداتها ، وقد فاق ايدن ، وحينما لفت البعض نظره لحدة تصريحاته تفاخر بانه استعماري متوسع من سلالة امبراطورية عريقة !

وجاء منزيس الى مصر ليقوم باستعراض المقترحات رئيسا لثماني عشرة دولة من بينها كل دول الغرب العظمى .. في اول جلســة له مع ناصر بدأ يتكلم بلهجة من يحمل انذارا لا من يعرض مقترحات ، وبكل هدوء اغلق عبد الناصر الملف امامه ، ونظر اليه وقال : ليس هناك ما أناقشه معك ، ولا نرى أي نقاش معك ! وتدخل لوي هندرســون الامريكي على الفـــور ، ومن بعدها تكلم منزيس بحكمة تماما .

وكان منزيس قد صرح قبل مغادرته الى لندن بأن ٩ فرص لفشل هذه البعثة ٩٦ ٪ » وبعد أن جاء الى القاهرة استكملت فرص الفشل الباقية .

ولم تكن البعثة أكثر من فصل من الحرب الباردة المستمرة بين دالاس وايدن .

وكان الوقت يمر سريعا ويقترب من الموعد الذي حدده ايدن لبدء الغزو وهو ١٥ من سبتمبر ١٩٥٦ .

ولهذا تقدم ايزنهاور باقتراح ان تنقل القضية الى هيئة الامم المتحدة .. والى مجلس الامن ، وهذه هي الهيئة التي عليها بحث المشاكل والتوصل الى حلول ومنع وقوع أي عدوان .

وايد الفكرة وتحمس لها مع ايزنهاور حزب العمال المعارض في بريطانيا ، وايد الفكرة من بين المحافظين ومن بين رجال وزارة الخارجية البريطانية واحد فقط هو انتوني ناتنج الذي حاول ان يقنع بها سلوين لويد .

وصرخ ايدن في وجه ناتنج مرة أخرى : انا لا يهمني اذا ما كان جيشكيل يؤيدني او لا ، والامم المتحدة هراء وضياع وقت ، ولا بد أن تضع في رأسك ولا تنس أبدا أنه لا بد من القضاء على هذا الرجل ناصر قبل ان يقضي علينا »

ولكن سلوين لويد اقتنع حتى لمجرد الشكل واستكمال كل الوجهات الشرعية بأن الامم المتحدة مكان لا بد ان نمر فيه ، ولم يكن ايدن ليستطيع على أية حال ان يخرج على اقتراح اكده ايزنهاور واصر عليه ، ولهذا انتقلت القضية الى الامم المتحدة .. ولكيلا تدور الامم المتحدة في الفراغ ابتكر دالاس مشروعا جديدا من مشروعاته هو جمعية المنتفعين ، ويتلخص أن تتكون من كل الدول المنتفعة بالقناة جمعية تقوم بادارتها كاملة تماما ، كما كانت تفعل الشركة القديمة ، وتؤدي الى مصر حصتها ، وكان مشروعا

غامضا مختلطا حتى انه حينما سئل كيف تدير الجمعية القناة ؟ قال : يمكن من على سطح سفينة تقف في البحر الأبيض !

واعتبرت هزلا سياسيا . وشرح فكرته هنف دالاس مؤتمرا صحفيا اعلن فيه بصدد جمعية المنتفعين اننا لا ننوى بالطبع ان نشق طريقنا فى القناة بالقوة ، ولم يترك المسرح الذى ايدن انطباعا متحدى بانه اتخذ قرارا بأن يشق طريقه بالقوة .

وكان سخرية بايدن ، وكان ايضا انذارا له .

ولهذا خابت به الحال واستمر ، وكان تصريح دالاس اعلانا صريحا لعبد الناصر بانه يستطيع ان يرفض جمعية المنتفعين بلا عقاب .. واضاف ايدن : هذه السياسة الامريكية المخادعة العابثة تلقى مادة الوجه وتبلغ حلفاء رئيسيين انها تقضى على الشاركة الحقيقية ، وهى لا تترك امام الحلفاء سوى اختيار واحد : اما الانفصال تماما من الحلف او الرضوخ كعلاقة السيد والتابع فى السياسة الخارجية .

ولم يكن دالاس جادا فى تقديم مشروع جمعية المنتفعين ، ولم يكن مقتنعا بامكان نجاح الاقتراح ، وانما كان الدافع اى اقتناع بامكان نجاح هذه الفكرة لاننى لم اعرفه . كما قال روبرت مورفى الرجل الثالث فى وزارة الخارجية الامريكية ، ولكنه كان يريد المزيد من الوقت ويريد ايضا وضع ايدن فى اصعب المواقف واحرجها . كان الهدف ان يرث تنظيم السويس خلال الازمة ، ولهذا فرض ايدن التمرد نهائيا وان ينفصل ، ويخرج على الطاعة الامريكية ، وان يقوم بالغزو ويواجه دالاس والعالم والعرب بانتصار حاسم وبضربة خاطفة وسيكون ١٥ من سبتمبر سنة ١٩٥٦ تاريخا .

وكانت الخطة الموضوعة والتى استقر عليها ايدن ومولية فى ذلك اليوم ان ينسحب كل المرشدين الاجانب لجملة ومرة واحدة من العمل فى القناة ، ويعجز المصريون عن ملء الفراغ ، ويضطرب

ويرقبك سير العمل .. وحينئذ تتقدم قوات الغزو البريطانية أولا ومعها القوات الفرنسية للاستيلاء على القناة حماية للتجارة العالمية وضمانا لاستمرار الملاحة فى هذا الممر الحيوى !

وانسحبت الغالبية العظمى للمرشدين الأجانب بالفعل ، ولكن كانت هناك مفاجأة تنتظر أيدن من المصريين الذين وجهوا له كل الضربات الحقيقية :

صمد المرشدون المصريون القلائل الذين كانوا يعملون فى القناة ، ووقفوا بوطنية يلفت لدورها ، وتألف معهم القلة من المرشدين الأجانب اليونانيين الذين رفضوا تهديد الشركة وإغراءها للانسحاب ، وانضم المرشدون الذين جاءوا من الدول الصديقة ، ولم تقف الملاحة ، ولم تسقط الإدارة ولم تتعرقل التجارة الدولية لحظة . ولم يجد أيدن الذريعة التى بنى عليها كل خططه ..

وكان حقيقا .. ولقد جورج بيكو مدير الشركة فى باريس قاله ، ولم ينطق إلا أن يصيح : « إنه مدهش ! هذه إدارة لمديرة بأى القياس » كان الغرب متيقنا أن المصريين لن يستطيعوا أن يقوموا بالمهمة ، وقد حدد أيدن هذا اليوم ليبدأ الغزو أوتوماتيكيا .

ولكن هذا الغرب قد ظل لأكثر من قرن يتجاهل المصريين ويقلل دائما من شأنهم ، ناسيا أن هؤلاء المصريين هم الذين كانوا يسيرون الملاحة بطول نهر النيل لأكثر من خمسة آلاف عام ، وهى مهمة تحتاج إلى براعة أكثر مما يحتاج إليه إرشاد مركب كبير بالآلات عبر قناة سالكة ليس بها أى موج .. !

ولم يكن هناك مناص من أن يؤجل الغزو إلى يوم آخر ، ولتوجد ذريعة أخرى ، وتحدد الموعد الجديد ١٦ من سبتمبر سنة ٥٦ .

وفى يوم ١٥ من سبتمبر سنة ١٩٥٦ تلقى أيدن صفعة أخرى ، فقد أصدر الاتحاد السوفيتى بيانا قال فيه : أن الاتحاد

السوفييتي لا يمكن أن يقف ساكنا إزاء أي احتلال بالسلام في الشرق الأوسط ، لأن أي احتلال لا بد أن يمس أمن ومصالح الدولة السوفييتية ..

وكانت لغة جديدة وإعلانا بأن الشرق الأوسط ليس منطقة نفوذ خالصة للغرب يعمل فيها ما يشاء ، وأن السلام فيه أصبح من مسئوليات الاتحاد السوفييتي .. وقد كان من غلطات إيدن القاضية أنه لم يدرك مغزى البيان الإنذار الصحيح .

وتوالت الاستعدادات للهجوم والغزو من كل الأطراف التي كانت تستعد : كل بطريقته ولهدفه الخاص ، ولكن بدأت أيضا التناقضات تظهر وتحتدم بينهم .

ولم تكن إسرائيل بالطبع بعيدة عن تطور الأحداث ، ولكنها أصبحت تدرك أنها لن تستطيع أن تنفرد بالغزو والخطة التي جاء بها بن جوريون إلى الحكم ، والتي وضع تفاصيلها ديان ، والتي تحدد لها أخيرا الأسبوع الأول من نوفمبر ، والتي كان يقف وراءها بلا شك ويباركها دالاس .

أدركت إسرائيل أنه لم يعد ممكنا أن تهجم وتسقط النظام القائم في مصر ، وتخلع عبد الناصر ، ثم تحتل الدولة العظمى لكي تعقد الصلح وتقر السلام ، ولكي ترسم من جديد خريطة الشرق الأوسط كما تريد !

وقد تدخلت بريطانيا وهي تستعد الآن استعدادا محموما متصلا لكي تقوم بالغزو ولتكون لواءه الرئيسية ، ولكي تستعيد القناة وتستعيد الشرق الأوسط كله .

وتدخلت فرنسا ، وأصبحت طرفا مباشرا ، أصبحت طرفا يستعد للغزو ويشترك فيه ، لتعود لرقصها للقناة والشرق الأوسط .

ولهذا رأت إسرائيل أن الشيء الذي يضمن لها نجاح خطتها أو تكملا يتم الغزو جدوتها أن تنضم لحلف القراصنة ، وإذا لم تقم به وحدها فيجب أن يتم معها .

ويعرض موليه على ايدن ان تشترك اسرائيل ولن يتأخر الثلاثة في القيام بالغزو ، وتردد ايدن .

كان يعرف بالطبع ان بن جوريون انما ينفذ سياسة دالاس ، ونصح رجال وزارة الخارجية البريطانية ، ونصح الدبلوماسيون البريطانيون في الدول العربية الا تشترك بريطانيا في غزو مشترك مع اسرائيل ، وكان رأيهم أن فرنسا واسرائيل اكبر دولتين مكروهتين لدى العرب ، وان اشتراك فرنسا مع بريطانيا غير كاف وحده ، ولكن اشتراك اسرائيل سوف يعقد المواقف تماما ، وسوف يضع الحكام والنظم العربية الموالية في أحرج المآزق ، وسوف يدفع شعبية عبد الناصر دفعة جديدة اكبر بين الجماهير العربية .

ولكن فرنسا كانت تلح على اشتراك اسرائيل ، لأن فرنسا مهما كان الحلف الجديد والمؤقت مع بريطانيا لا تثق تماما في ايدن وفي سياسته ، وقد تتنازل بريطانيا بكل الغيبة والصراع البريطاني الفرنسي قديم وتقليدي في الشرق الأوسط .

وقد وضع الجنرال شال الفرنسي خطة جديدة تقضي بأن تهاجم اسرائيل مصر عبر سيناء ، وحينما تعبرها تتدخل بريطانيا وفرنسا وتدعو الدولتان الى ايقاف الحرب .. واذا لم تقف تحتلان القناة ، وذلك حتى لا تتوقف الملاحة .

ويعرض موليه الخطة الجديدة على ايدن ويناقشاها ، وفي النهاية وافق ايدن على اشتراك اسرائيل ، وذهب مبعوث بريطاني - برسالة من الحكومة البريطانية الى بن جوريون بخطة أخرى وجاء في الرسالة .

يجب الا تهاجم اسرائيل الأردن بأية حال ، وحينما تذهب بريطانيا الى الحرب في السويس فعلى اسرائيل ان تهاجم مصر في نفس الوقت وهو ما يناسب كل الأطراف المشتركة ، وسوف تستنكر بريطانيا بأقسى لغة ممكنة هذا العدوان الاسرائيلي ، ولكن

لمجرد الشكل ؛ وفي مفاوضات الصلح بعد ذلك سوف تساعد بريطانيا اسرائيل حتى تحصل على أفضل الشروط الممكنة .

وادرك بن جوريون بالطبع ان ايدن يريد ان يستعمله مخلب قط .. وقرر أن يعامله بالمثل .

وطلب بن جوريون ان ينعقد اجتماع ثلاثي سري بين الاطراف الثلاثة يتفق فيه على كل الخطط والتفاصيل حتى يتحدد لكل طرف دوره ونصيبه .

وتم في ضاحية بعيدة في باريس « سيفر » الاجتماع الذي احيط بسرية تامة وكتمان شديد ، وظل الجميع بعد ذلك ينكرونه ؛ واستمر ثلاثة ايام من ٢٢/١٠ الى ٢٤ منه سنة ١٩٥٦ بين بن جوريون وديان وسلوين لويد وجي موليه وكريستيان بينو .

وعرضت كل الخطط ، وعرض ديان خطته واستراتيجيته ضد مصر ، وهي مفاجأة المصريين وتحطيم سلاح الطيران المصري اولا ، وعلى الارض وفي حرب قصيرة خاطفة لا تسمح ولا تترك وقتا للتدخل .

وعرضت خطة شال الفرنسية ، وعرضت خطة موسكتير البريطانية التي وضعها ستوكويل ..

وانتهى الاجتماع الى اتفاق على خطة اطلق عليها « موسكتير الجديدة » وتقضي بما يأتي :

١ مفاجأة وتحطيم سلاح الطيران المصري على الارض ، وسوف يقوم بالمهمة سلاح الطيران البريطاني ، وبذلك يستطيع سلاح الطيران الاسرائيلي حماية مدن وسماء اسرائيل .

٢ هجوم جوي محكم يحطم المراكز الرئيسية للاتصالات المصرية ووسائل النقل والمواصلات ، ويقضي على القوات المسلحة المصرية تماما مع حرب نفسية شاملة تحطم معنويات المصريين ..

٣ احتلال منطقة القناة بكل القوات البرية والبحرية والجوية اللازمة .

٤ الزحف نحو الدلتا وضرب القاهرة لإسقاط ناصر ، وإقامة نظام جديد في مصر .

وأقرت من خطة الجنرال شال ان تبدأ اسرائيل بالهجوم .. ثم تتقدم الدولتان بالانذار لكل من اسرائيل ومصر بوقف الحرب والانسحاب عشرة كيلومترات بعيدا عن ضفتي القناة .

واحكاما للخطة واستيفاء لكل التفاصيل طلب سلوين لويد أن يسمح لسلاح الطيران البريطاني أن يلقي بعض قنابل على القوات الاسرائيلية لتمويها في حالة رفض الانسحاب ، وتأكيدا لموضوعية وعدالة بريطانيا ، وتحدد الغزو ٢٩ من اكتوبر سنة ١٩٥٦ .

ولقد تمت اجتماعات « سيفر » في الوقت الذي كان مجلس الامن مستغرقا في بحث المشكلة ، وقد توصل الى حل ، واستقر على ستة مبادىء ، وافقت عليها مصر واقرها مجلس الامن - وتقرر أن تناقش تفاصيلها في جنيف في ٢٩ من اكتوبر نفسه .

وكانت المبادىء الستة هي :

١ حرية الملاحة في القناة بلا تمييز

٢ احترام سيادة مصر

٣ حماية الملاحة من التقلبات السياسية .

٤ تحديد الرسوم بالاتفاق مع الدول المنتفعة

٥ تخصيص نسبة من الرسوم لتحسين الملاحة في القناة

٦ حل الخلافات عن طريق التحكيم .

وقد وكرت الولايات المتحدة ، بمعنى انها كانت على علم بهذا التواطؤ ، وتلو الحل والتفاني طويلا : هل تمت اجتماعات « سيفر » وراء ظهر الولايات المتحدة الأمريكية وبدون علمها ؟

كانت فرنسا هي قاعدة المخابرات الامريكية في اوربا ، وكانت بمثابة المأوى شبكة فيها وتمتد كالاخطبوط الى كل ركن في فرنسا وفي اوروبا ولم يكن طبيعيا للمخابرات الامريكية التي كانت بلا شك تتابع كل احداث ثورة السويس وتطوراتها أن تجهل اجتماعا حضرته كل هذه الشخصيات واستمر لثلاثة ايام في ضاحية من باريس .

ولم يكن بن جوريون او ديان بصلاتهما الامريكية ليقوما بخطوة مثل هذه لا تعرف منها المخابرات الامريكية أو البنتاجون (أى وزارة الدفاع الأمريكية) او دالاس شخصيا .

وعلى اية حال ذهب وزير فرنسي في حكومة جي موليه هو « جاك » شابان دالماس رئيس وزراء فرنسا الحالي الى السفير الامريكي في باريس دوجلاس ديلون ، واخبره أن بريطانيا وفرنسا واسرائيل قد اعدت عملية غزو مشتركة ضد ناصر ، وانها على وشك الوقوع ، وروى له كل ما وصل الى علمه .

وكان كل ما قاله له السفير الامريكي هو : الا يمكن تأجيل العملية حتى ما بعد الانتخابات الامريكية ؟ وارسل السفير تفاصيل المقابلة الى واشنطن ، وقال : الان دالاس رئيس المخابرات المركزية الامريكية في ذلك الحين وشقيق جون فوستر دالاس الذي حرص على أن يكون له هذا المنصب ليعتمد عليه في انقلاباته ومؤامراته الخفية .

قال : حصلت المخابرات المركزية على المعلومات من عدة مصادر ، وتوافرت لها حقائق وتكهنات دقيقة عن التواطؤ الثلاثي ، وخاصة من تقارير جاءت من قبرص ، وقد كان أمرا شائعا ومعروفا في المخابرات الامريكية أن اعلان اسرائيل للتعبئة يوم ٢٣ من اكتوبر هو علامة الهجوم !

وقال كريستيان بينو وزير خارجية فرنسا يومئذ :

احسسنا في تلك الايام ان الولايات المتحدة لا تريد ان تعرف ، وانها لا تطلب معلومات عما يحدث ، وكنا مطمئنين الى ان اجهزة المخابرات على اتصال وثيق بعضها ببعض وخاصـــة البريطانية والامريكية ، وعلى اية الاحوال كانت هناك اتصالات معقولة بقيادة الاسطول السادس طلبنا اليهم فيها ان يبتعدوا بالاســـطول عن تحركات اساطيلنا .

ولكن الدليل الآخر والاكثر قطعا هو طلب الولايات المتحدة من كل رعاياها الذين لا تستدعي وجودهم في المنطقة ان يغادروها على الفور وقبل الغزو بيومين فقط .. »

العـــدوان

صدر بلاغ عسكرى اسرائيلى مساء يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ يقول : تقدمت وحدات من جيش الدفاع الاسرائيلى ، وهاجمت قواعد الفدائيين فى الكونتيلا ورأس النقب ، واتخذت مواقع للعرب فى الطريق ، الى نخل والى مشارف قناة السويس ، وقد تمت هذه العملية ردا على الهجمات العسكرية المتوالية على المدنيين الاسرائيليين ، وعلى الاراضى الاسرائيلية وبلا هدف سوى التدمير وحرمان شعب اسرائيل من أى امكان للتعايش السلمى » .

وفى صباح اليوم التالى أذاعت وزارة الخارجية ، الاسرائيلية بيانا مطولا جاء فيه :

« اتخذت اسرائيل تدابير أمن للقضاء على قواعد الفدائيين فى شبه جزيرة سيناء لأن الكولونيل « ناصر » وجد بعد نهاية مناقشات مجلس الأمن أن فى امكانه أن يدفع الفدائيين ليجددوا غاراتهم داخل اسرائيل وخلال الأسبوع الأخير فقدت اسرائيل ٢٢ قتيلا وجريحا نتيجة الألغام التى يزرعها هؤلاء الفدائيون فى النقب الجنوبى ، ان مصر تعمل لكى تحيط اسرائيل بحزام حصار حديدى هدفه الصريح الذى لا يخفى هو القضاء تماما

على اسرائيل ، وهي لا تدخر ذلك جهدا ، وقد توجت جهودها اخيرا بعقد المحالفة العسكرية المصرية الأردنية لهذا السبب ، وقد حاولت اسرائيل وقامت بكل ما في وسعها لتحقيق السلام مع مصر ، ولكن اليد الممدودة بالسلام كانت ترفضها مصر دائما بشدة وقسوة ! .

وفى نفس ذلك الصباح أدلى المتحدث الرسمي باسم الحكومة البريطانية في لندن ، بتصريح مختصر قال فيه :

ان القتال نشب بين مصر واسرائيل فى سيناء ، ولكن لن تحاول بريطانيا ان تستغل هذا القتال .

وفي المساء استدعي السفير المصري الى وزارة الخارجية البريطانية ، ليتسلم انذارا يطلب انسحاب القوات المصرية مسافة عشرة كيلو مترات الى غرب القناة والا تدخلت القوات البريطانية والفرنسية على الفور لاحتلال القناة ضمانا للملاحة ، وتنتهى مدة الانذار فجر اليوم التالى ٣١ من أكتوبر .

وقال ايدن بمرارة الاطفال في يوم ١٥ اكتوبر . جاءت رسالة الى لندن بأن اسرائيل على وشك الضربة ، وفي يوم ٢٧ أعلنت الضربة بالفعل وفى مساء يوم ٢٩ قامت اسرائيل بالهجوم . واعتقد وما زلت اعتقد انها على حق !

وفى يوم ٢٩ اكتوبر بحث مجلس الوزراء البريطاني مسئوليتنا المحددة وقرر ان على فرنسا وبريطانيا ان تطلبا الى كلا الطرفين ايقاف القتال والانسحاب لمواقعهما مسافة على ضفتي القناة ، واذا ما رفض احد الطرفين او كلاهما الانسحاب خلال المدة المحددة ، فان على القوات البريطانية والفرنسية ان تتدخل مباشرة كاجراء وقتى ، ولتفصل المتحاربين ، ولكي يكون تدخلهما فعالا فسوف يحتم احتلال مواقع استراتيجية رئيسية ، هي بور سعيد والسويس والاسماعيلية وذلك لضمان حرية الملاحة في القناة ، ولتأمين المنطقة ، من أن تصبح ميدان القتال . . !

اما في باريس فقد استدعى كريستيان بينو وزير خارجية فرنسا السفير الامريكي ديلون واعترف له بكل شيء ، وروى له قصة التواطؤ الثلاثي كاملة وما تم بين بريطانيا وفرنسا واسرائيل وخطة الغزو المتفق عليها وخطواتها واهدافها وأبرق ديلون بكل شيء على الفور الى حكومته .

وفي واشنطن بدا للجميع كأنهم أفيقوا على صدمة ، واذاع ايزنهاور من التليفزيون الى الشعب :

ان الولايات المتحدة لم تستشر ولم تحط علما من حلفائها بعزمهم على استخدام القوة ولهذا فان للولايات المتحدة كل الحق ان تستنكر هذا التصرف الخاطىء ، ولكن تسلك سبيلا آخر ، وان كانت تحرص في نفس الوقت على ان تحافظ على صداقة حلفائها ، وان هدف الولايات المتحدة الآن هو حصر النزاع ، ولذلك ستعمل لانهائه وسوف تستعمل الولايات المتحدة كل امكانات الامم المتحدة كأقوى اداة وامل للسلام !

وارسل ايزنهاور الى بن جوريون رسالة اخرى قال فيها :

مادامت اسرائيل قد حققت هدفها من الهجوم وهو تدمير قواعد الفدائيين ، فان عليها ان تنسحب ، واذا ما فعلت هذا فانني سوف اعلن تقديري العميق لها .

ولكن في اليوم التالي خرجت «النيويورك تايمس» ذات الصلات الوثيقة بالحكومة الامريكية ووزارة الخارجية خاصة تقول بلا مواربة :

يصبح الأمر مهزلة ، اذا ما سمحنا للكولونيل ناصر ان يمثل امام الامم المتحدة وامام العالم دور الضحية البريئة للعدوان ، وعلى العكس تماما اذا كان هناك رجل واحد مذنب ومسئول عن هذا العدوان فهو الرئيس المصري ، وهو الذي اعلن الحرب على اسرائيل وعلى بريطانيا وفرنسا بعداواته وبتهديداته . وبتسلل عصابات القتلة الذين يرسلهم وباثارة القلاقل والفتن في شمال أفريقية الفرنسية

وباستيلائه على قناة السويس بالقوة ، وبطرحه للاتفاقيات بنفس الطريقة التي سار بها هتلر الى الراين وسد القناة امام الملاحة الاسرائيلية متحديا قرارات الامم المتحدة ، واخيرا بدعايته الصارخة ضد اسرائيل وبرغبته لالقائها فى البحر هو والدول العربية التى تتبعه ، ثم بخطته لاقامة امبراطورية عربية تحت هيمنته ، ولعمله لتوليها فى دوائر حددها الى كل افريقيا ثم الى العالم الاسلامى »

ومن الناحية : كانت تصلح اعلان اشتراك فى الغزو من جانب الولايات المتحدة ، وقد شجع بها ايدن ومولية كثيرا !

وفى مصر حيث كان يتقرر كل شىء حسب الشعب لمقاومة العدوان وتصدت القوات المصرية لصد الغزو .

وفى الاشتباك الاول ومنذ انطلقت النيران تأكد لقادة الغزو الاسرائيلى انها ليست نزهة عسكرية سهلة حتى قناة السويس وربما القاهرة ، ودار قتال وصفه ديان فيما بعد :

هذا قتال لم نألفه من قبل ، ولا نتوقعه حتى فرق بقوات متمرسة مثل قواتنا .

ووصفه التقرير الرسمى الاسرائيلى عن الحرب قائلا : قاتل المصريون بشجاعة ومن اجل كل شبر لوطن .

وقال ديان عن معركة مثلا : « انها اكثر معركة دموية خاضتها اسرائيل » .

وقد رفضت مصر الانذار البريطانى ، ولكن كان على القوات المصرية فى سيناء ان تسارع بالانسحاب .

كان « ابرع وانجح عمل تستطيعه هو الانسحاب » .

وقد ادركت القيادة فى مصر بعد الانذار خطوط المؤامرة وابعادها وايقنت أن هدف الهجوم الاسرائيلى كان استدراج القوات المسلحة المصرية الى سيناء ثم حصارها بعد نزول قوات الغزو الانجليزى

فرنسي واحتلال القناة وإبادتها هناك ، وكانت الخطة جيدة تحقق هدفين أساسيين :

١ القضاء على القوات المسلحة المصرية .

٢ احتلال مصر بسهولة بغير مقاومة منظمة .

وكانت ليلة ٣١ اكتوبر هي أخطر ليلة في تاريخنا » كما قال عبد الناصر . واجتمعت القيادة المصرية واتخذت قرارين حاسمين :

١ سحب الجيش من سيناء لمواجهة الغزو الفرنسي البريطاني في الداخل

٢ تسليح الشعب والاستعداد لحرب شعبية طويلة المدى إذا ما اقتضى الأمر .

وقال جمال عبد الناصر بعدئذ :

ان اسرائيل لم تستطع ان تتقدم امام قواتنا إلا عندما كانت الأوامر قد صدرت اليها بالانسحاب بعد تدخل بريطانيا وفرنسا ، ولقد تمت عملية الانسحاب . ونقول ، وربما نوافق ، انها تعتبر معجزة في التحركات في الظروف التي تمت فيها .

وقد كانت أشد المعارك في حرب سيناء ـ معارك المواجهة ، هي معركة ابو عجيلة ، وقد وصفها معقب أمريكي - انها يمكن ان تكون اسطورة بالنسبة للمصريين » .

وقد كانت هناك خطة جاهزة معدة بالعمل للمقاومة الداخلية ـ وقد اعدت لكل الاحتمالات . ووزعت الأسلحة والذخيرة وأجهزة الاتصال وخزنت جميعها في مناطق وأماكن متفرقة ، وقسمت البلاد الى مناطق ، وعين مسئول لكل منها ، بل خصص المقر الشتوي في القاهرة ليكون مقر القائد حرب المقاومة السرية ، اذا ما اقتضت الحاجة .

ووزع نصف مليون قطعة من السلاح على الرجال والنساء وكل من طالب بالسلاح من وطنه .

وحينما انتهت مدة الانذار البريطاني الفرنسي كانت مصر تستطيع المواجهة ، وقد تأخر سلاح الطيران البريطاني بضع ساعات في بدء الغارات ، وهو قد فاجأ بعض المطارات والطائرات ، ولكن سلاح الطيران المصري كان قد استطاع ان ينجو بمعظم طائراته الى مطارات بعيدة آمنة ، ولتشل فصل هام من خطة الغزو

وحينما بدأت الغارات جورها عززتها الاذاعة البريطانية العربية من قبرص ببيان للمصريين قالت فيه :

ان طائراتنا وقاذفاتنا في هذه اللحظة تسيطر على سمائكم ، وهذه هي الضربة الأولى التي تنزل بكم ، ولماذا تنزل بكم هذه المصائب . لأن عبد الناصر رئيسكم فقد صوابه واستولى على قناة السويس التي تهم العالم كله ، ونقد الرشد ، ورفض كل محاولات للوصول الى حل على أساس السلام ، وجهنا مرحسكم عبد الناصر لهجمات اسرائيل ، بل واصل عبد الناصر تهديده ضد اسرائيل ، وهو يعرف انه لا يستطيع المقاومة في سيناء والدفاع عنها ، وهو جبانا يتحمل النتائج ، وسوف تنزل القنابل والقذائف من بوارجنا على ارض مصر، ويثبت لكم أن عبد الناصر لم يحافظ على وعوده لكم، وجلب لكم الحرب ، وهو قد وعدكم بالحرية والعدالة ، ولكن فرض عليكم الاستبداد ، ايها المصريون اقبلوا شروط الحلفاء التي ستأتي لكم بالسلام والرخاء والا فسوف تتحملون جميعا مسئولية أعمال عبد الناصر ، وسوف يتحملها الأبرياء والمتهورون منكم على السواء !

وكانت هذه هي الحرب النفسية التي تقررت في الخطة غير أن الغارات والحرب النفسية جمعت الناس حول ناصر تماما تماما . كما جمعت الغارات الألمانية النازية البريطانيين حول تشرشل ، وكما جمعت الغارات الأمريكية الفيتناميين حول هوشي منه !

ويبدو أن مارشالات الجو لم يستطيعوا أن يدركوا قط أن الغارات الجوية تحقق دائما عكس أهدافها ، وفي مصر انقلبت الغارات البريطانية والحرب النفسية كل ما بقي من معارضة ضد الثورة ، من اقطاعيين نزعت أراضيهم ورجال أعمال مست ممتلكاتهم وضباط سرحوا من الجيش ، كلهم تحولوا من ساخطين الى وطنيين متحمسين • وبلا أي خوف من تمسه سلاح في محنة عصيبة سار ناصر في الشوارع في سيارة مفتوحة والملايين حـوله تهتف « حنحارب حنحارب » وقد وقف عبد الناصر يوم بدأت الغارات وأعلن :

« لمصر دائما ستقاتل دفاعا عن سيادتها وعن حريتها وعن كرامتها ، ستقاتل أيها المواطنون قوى الظلم التي تريد استعباد حريتنا ، ستقاتل أيها الاخوة في سبيل حرية مصر وفي سبيل حرية الشعب المصري ، ستقاتل كما كنا دائما في حرب شاملة ، جنودها الشعب الشعب المصري .. جنبا الى جنب مع قواته المسلحة .

ان كل فرد منكم جندي في جيش التحرير الوطني ، لقد صدرت الأوامر بتوزيع السلاح ، وعندنا منه الكثير ، وسنقاتل في معركة مريرة ، سنقاتل في كل معركة من قرية الى قرية .. ومن مكان الى مكان ، ليكن كل فرد منكم أيها المواطنون جنديا في القوات المسلحة حتى ندافع عن شرفنا .. وحتى ندافع عن كرامتنا .. وحتى ندافع عن حريتنا .. وليكن شعارنا أننا سنقاتل ولن نسلم ، سنقاتل — ولن نسلم .. اننا اليوم أيها الاخوة نكتب صفحة جديدة من تاريخنا .. اننا الآن نريد الصبر والايمان حتى ننتصر » .

وفي اليوم التالي وقف عبد الناصر في الأزهر الذي شهد كفاح مصر الحديث كله والذي عاصره طويلا ، وشرح الموقف كاملا للجماهير ، وأعلن رأيه مرة ثانية .

« نحن اليوم نقرر مستقبل وطننا ، وسنقاتل معكم شبرا فى شبر وسنقاتل الى آخر نقطة ، ولن نسلم أبدا ، وسنبنى بلدنا وتاريخنا مستقبلا ، وليكن هذا شعار كل مصرى » .

وخرج عبد الناصر وسط الملايين التى احاطت به تهتف « حنحارب » ولم يخرج على هذا الاجماع سوى فلول السياسيين القدامى الذين التقوا وفدا ليذهب الى عبد الناصر ويطلب اليه قبول الانذار والتسليم انقاذا لمصر ، واختلفوا فيما بينهم طويلا عمن يرأس الوفد حتى استقروا أخيرا على « سليمان حافظ » .

وعرفت المخابرات الامر وارسلت من أخطرهم فى الوقت المناسب على لسان ناصر ، بانهم لو جاءوا فسوف اضربهم جميعا بالرصاص فى ساحة مجلس قيادة الثورة ، ولم يحضر احد ! كما روى عبد الناصر .

ولم يرتفع صوت خيانة .

وكان عبد الناصر قد انتقل الى مجلس قيادة الثورة ليقود المعركة من هناك ، وظل هناك بملابس الميدان حتى يوم ١٥ نوفمبر ثم عاد الى منزله لأول مرة .

اتحد الشعب المصرى كله وانصهر فى معركة تقرير مصيره وبقيادة بطله التاريخى الذى لم يعد بطلا للمصريين فحسب ، ولكن أصبح بطلا قوميا لكل العرب ، وبطلا آسيويا ــ افريقيا لكل العالم الجديد الثالث الذى تتبع المعركة كمعركته ، واصبح عبد الناصر بطلا من ابطال العصر .. وانقسم العالم كله حوله الى مؤيدين ومعجبين ! ..

وكان هذا بداية فشل الغزو كله ، لم يسقط عبد الناصر ، ولم تقم الثورة ضده فى مصر ، وكانت كل التقارير تكاد تجمع القول : ان السخط يعم مصر ، وان اول ضربة تأتى من الخارج سوف تشجع كل القوى الناقمة وسوف يسقط النظام كله .

وكان موظفو السفارة البريطانية المحتجزون داخل السفارة قبل ترحيلهم يتسقطون من وراء الأسوار أنباء الثورة فى القاهرة

التي أكدت تقاريرهم لى ايدن أنها سوف تنصب على الفرد ولكن على العكس تماما كانت صلابة الجبهة الداخلية صدمة لبريطانيا كما قالت مجلة تايم الأمريكية .

وانتفضت الجماهير العربية ، والجماهير المصرية ، وأرغمت سورية ضخ البترول الى موانى البحر الأبيض ، وتهددت المصالح البترولية الغربية كلها فى المنطقة واندلعت المظاهرات عاصفة متحمسة فى كل مكان من العالم العربى ، وحتى فى العراق سقط آمال وأحلام ايدن ، ووجد نوري السعيد نفسه في أحرج موقف حياته وفى كل مكان فى آسيا وأفريقيا سرى الفزع والغضب من أن الاستعمار القديم يعود وبكل أساليبه القديمة ، وإذا ما انتصر في مصر .. فسوف يمد انتصاراته الى كل مكان !

وانقسم الكومنولث البريطاني انقساما حادا بانهياره ، وكان الكومنولث هو ما بقي من العظمة البريطانية التى يتشبث بها ايدن ويبني عليها كل مجده .

وخرجت على ايدن اكبر وأهم دولة فيه وهي الهند ، وأعلن نهرو أن هذا هو اقبح وأشرس عدوان يمكن أن يحدث وكل عواطفنا مع مصر ، ولم تقف كندا الدولة الكبيرة الثانية فى الكومنولث مع ايدن ، بل لم يؤيده سوى استراليا ونيوزلندة ، وأثار هذا القلق حتى بين كثير من المحافظين .

ولكن خيبة الأمل الكبرى كانت في بريطانيا نفسها ، لقد انقسم الشعب البريطاني انقساما كان الأول من نوعه في تاريخه الحديث . وسارت المظاهرات جارفة عنيفة ضد الغزو وتسمعون الاجتماعات في كل مكان ، وواجه ايدن منذ اليوم الأول جلسات عاصفة لم تسبق من قبل في البرلمان البريطاني وتبودلت ألفاظ وصفعات لم تتداولها القاعة من قبل ، واضطر رئيس المجلس فى الجلسة الثانية بعد العدوان أن يرفع الجلسة حتى تهدأ ثورة الأعضاء وحتى لايقع تشابك بالأيدي .

قال جيتسكيل - لن ايدن يسوق بريطانيا الى الكارثة ولابد من تلافيها مهما يكن الثمن ، وقال انورين بيفان - لم نعد بريطانيا القوى وحوش الغاب ، وتصوروا لو واجهنا نحن بنفس الطريقة !

وفى الضفة الاخرى من الاطلنطى وجد دالاس فرصته النادرة ليوجه الضربة الاخيرة والقاضية الى خصمه اللدود ايدن ، ولبس مسوح القديس ، وتنصل من اية صلة بالغزو أو علم به ، واعلن فى جلسة الامم المتحدة أن التجاء ثلاث من اعضاء هذه المنظمة الى العنف والهجوم المسلح ضد عضو رابع ، لايمكن الا ان يعد خطأ كبيرا ، وواحدا من الاخطاء التى اذا ما قدر عليها مرتكبوها فانها يمكن ان تؤدى الى انهيار ميثاق الامم المتحدة وكل المنظمة ، وانى لاخشى اذا لم نتصرف فورا وباجماع كاف فتجعل توصياتنا ملزمة اخشى فى بتطور ما جاء وما سمى عملا بوليسيا الى شيء آخر اكبر !

ولكن الفشل العسكرى كان فى ميدان المعركة ، فقد تعثر الغزو نفسه وتلكأ ، وقاومت القوات المصرية المسلحة مقاومة باسلة ، فلم تكتسح القوات الاسرائيلية سيناء كالاعصار ، ولم يقض سلاح الطيران البريطانى على الطيران المصرى بضربة واحدة على الأرض ثم اختلف موعد انزال قوات الغزو فلم يبدأ الا فى ٥ نوفمبر ، واختلف القائد جونز مع القائد البريطانى ستوكويل ، واختلف الاثنان مع القائد العام ، كيتلى ، وتغيرت الخطط الموضوعة للنزول والاحتلال والتقدم عدة مرات ، واخيرا هبطت القوات الى بور سعيد يوم ٥ نوفمبر ، وفوجئت بسبب المقاومة وحدتها--

كانت المقاومة عنيفة تماما ، وكانت المدافع تصل باكبر قدر من البراعة ، وقد سببت لنا متاعب كثيرة ، كان القتال صعبا ، كما قال تقرير الجنرال كيتلى ، وتطورت المقاومة بعد ذلك الى مقاومة شعبية عامة فى كل بور سعيد ، لم تخولها ولم تستعد لها قوات الاحتلال ولم تكد وحشية القوات الفرنسية ولا معرفة الضباط والقوات البريطانية ببور سعيد وبعضها كانت فى القناة منذ شهور

قبل يونيو عام ١٩٥٦ . كما قال التقرير أيضـا ، ولم تستطع القوات على أية حال احتلال الاسماعيلية وفق الخطة ثم الزحف حتى القاهرة !

ومنذ يوم ٦ نوفمبر كان ايدن فى لندن مرهقا ومشتتا ، يبحث عن مخرج من العملية كلها ، وبدأ يتحقق انه لا يستطيع أن يواجه كل المعارضة الداخلية والخارجية ، وشكا همومه الى حليفه جى موليه ، وسارع الى لندن بينو وبورجيس مونورى وزير الدفاع الفرنسى ليشدا من عزيمته وليقنعاه بمواصلة الغزو وبان فرص نجاحه مازالت قائمة وكبيرة .

وكان فشل الغزو يعنى سقوطهم جميعا ، ولم يمنع تطور الأحداث وتلاحقها فى شرقى أوروبا الاتحاد السوفيتى من متابعة الأحداث فى الشرق الأوسط ، ولم يستطع ايدن ان يقوم بعمل سريع حاسم يضع الاتحاد السوفيتى ـ كما كان يأمل ـ امام الأمر الواقع ويجعل قدرته على التدخل بأية مساعدة مستحيلة .

وفى يوم ٤ نوفمبر استطاعت القوات السوفيتية أن تقضى على الثورة المضادة فى بودابست ، وان تسيطر على الموقف تماما .

وبعد منتصف الليل فى يوم ٥ من نوفمبر استدعى السفير البريطانى فى موسكو الى وزارة الخارجية السوفيتية ليتسلم انذارا عاجلا يقول :

ان قناة السويس كانت مجرد ذريعة لحرب عدوانية مدبرة ضد الشعوب العربية ، وتهدف الى القضاء على استقلال هذه البلاد ، ولنتصور بريطانيا نفسها فى أى موقف لو هاجمتها دول أخرى أقوى تملك كل الأسلحة الحديثة والقادرة على التدمير ، ويمكن ان تستعمل وسائل أخرى بدلا من ان ترسل قواتها البحرية أو الجوية بأن تستعمل مثلا الصواريخ ! لا شك اذا ما استعملت الصواريخ ضد بريطانيا أو فرنسا فانك سوف تسمى هذا عملا بربريا ، ولكن أى فرق ؟ وأعلن الانذار :

ان الحكومة السوفيتية مصممة تماما على ان تستخدم القوة لتقضي على هذا العدوان وتعيد السلام في الشرق !

وستسلم في الوقت نفسه في نفس الوقت السفيران الفرنسي والاسرائيلي ، وتسلم كل منهما نسخة من الانذار .

وعرض الانذار الى فرنسا باشتراكية موليه وقدرتها على التوفيق بينها وبين الحروب الاستعمارية وقال : ان اشتراكية هذه .. !

وكان الانذار الى اسرائيل أقسى فلهجة .. قال :

أوضحت تصرفات اسرائيل قيمة كل التأكيدات الزائفة عن حب اسرائيل للسلام ورغبتها في التعايش السلمي مع جيرانها العرب . واسرائيل وهي تعمل لحساب الغير وبناء على التعليمات التي تصدر اليها من سادتها وتلعب لعبا اجراميا وغير مسئول بمصير السلام وبمصير شعبها .

ويكتب ديان في مذكراته بحنق ، غضب بن جوريون كثيرا لانطلاق لهجة الخطاب السوفيتي اليه ولما في الاحتقار والازدراء والسخرية القاسية التي احتواه .

وأثار الانذار السوفيتي فزعا في الغرب كله .

وفي الساعة الواحدة والنصف أي بعد ساعتين من تسلم الانذار بتوقيت باريس ايقظ موليه السفير الأمريكي ديللون واستدعاه .

وكما قال ديللون : كان شديد القلق وطلب تأكيدات امريكية على أعلى مستوى اذا ما هاجمت روسيا القوات الفرنسية والبريطانية في الشرق الاوسط وقال : انه يحتاج الى هذه التأكيدات ليواجه بها رغبة ايدن الملحة في ايقاف اطلاق النار .

وكان ايدن قد اتصل به تليفونيا مباشرة بعد تلقيه الرسالة السوفيتية ، واتصل ايدن مرة ثانية بالتليفون خلال وجودي مع موليه وخلال الحديث وضع موليه سماعة التليفون ، واخبرني أن البريطانيين بالتأكيد سوف يوقفون اطلاق النار ، وانه أي موليه

يبعد نفسه مضطرا الى مجاراتهم ، وان كان لايريد هذا ، وأشار الى خريطة وقال : ان القوات المتقدمة وصلت الاسماعيلية وقد تصل الى السويس فى ١٢ ساعة . واختلفت رواية ايدن وقال احترت مذكرة بولجانين وتهديداتهم ينبغي الا تؤخذ مأخذ الجد . ولقد ارسلت له ردا بالمثل ، وقلت له : اننا قد حققنا الهدف من الغزو وهو فصل المتحاربين ، ونحن نرحب بتولى الأمم المتحدة لتأخذ منا المسئولية .

وقد كان العامل الرئيسى لدي ولدى كل زملائي اعضاء مجلس الوزراء هو اننا تدخلنا لكي نفصل المتحاربين بعضهما عن بعض ، ولنحصر النزاع في الشرق الأوسط . أما وقد تحقق هذا وانتهت الحرب وانحصر النزاع فلم يعد هناك مبرر لاستمرار الحرب . وقد قبل حلفاؤنا هذا القرار بالخلاص ولهم وان كانوا قد أرادوا الاستمرار في الحرب قليلا .

وصدر الأمر الى القوات في بور سعيد بايقاف القتال ، وروى قائد الغزو ستوكويل :

وكان يوما مرهقا حافلا بالمغامرة والدراما . ولكن الصدمة السابقة كانت في انتظاري ، كان كل ما اريده في تلك اللحظة كأسا من الويسكي بالصودا ، ولكن دخل علي رئيس الاركان يحمل اشارة عاجلة وحينما قرأت ، قلت اقرأ .. اوقف اطلاق النار عند منتصف الليل . وحينما جلت القوات البريطانية عن مصر فى نهاية عام ١٩٥٦ كان ستوكويل بين ضباطها ، وفي ذلك اليوم التفت احد الضباط الى زميله وقال ساخرا : بلا مجد ولا اعتراف بالجميل !

وقال الآخر :

وهل تنتظر اعترافا بالجميل من هؤلاء المصريين ؟

كان عجبا الا يكتسب المصريون بمكانهم لو كان يقذفوا رفاتنا جاؤوا بالورود على الاقل . وبعد اشهر قليلة عاد ستوكويل على رأس

حملة ضخمة ليعيد المجد ، وليعلم المصريين العرفان ، ولكنه يخرج بعد أيام فقط بالرغم عنه مهزوما جبانا !

منذ ٧٤ عاما دخلت بريطانيا من نفس الأرض وبقيت كل هذه السنين ، وهي تخرج الآن بهزيمة مدحورة !

في تلك اللحظة كانت الامبراطورية البريطانية قد انتهت قبل أن ينعم اليستر ال بكامله ، كانت أيدي الفرسان الفراعنة الكبار ، فرنسيس دريك ، والتر رالي ، ونلسون ، وتشرشل .. وأخيرا ايدن .. ولقد خلع هؤلاء الفراعنة بعد الضربة الأخلية الحمراء ، رداء الفراعنة وارتدوا القبعات العالية ـ وأصبحوا جنتلمانات ، ولوردات ، وحملة الألقاب ـ ولكن ظل الفرسان ـ حيا في كل منهم وطريقته للحياة والكلام ، يكفي أن يتطلعوا الى أرض تلامسهم أو تعجبهم ليذهب الأسطول ويخضعها ، ودانت الأراضي والبحار وحتى الأمواج !

فاذا نزلت قوات بريطانيا فلابد أن تحكم ، والبريطانيون قد ولدوا ليحكموا ، وقدر العالم وصلاحه في أن يحكموا ، أن يحكموا حتى أمواج البحار ، وفق نشيد بريطاني مشهور وفي تلك الساعة انتهت الأسطورة ، وغاص التاريخ الطويل في مياه ضحلة في خليج السويس وأزادها مرارة أنها في مصر على يد فلاح ،

كم فشل الغزو وكانت أسباب الفشل وفق الأهمية هي :

- المقاومة المصرية ، سواء المقاومة العسكرية أو الشعبية وفي ظل قيادة بطولية وتاريخية
- الانذار السوفيتي ، والموقف الحاسم للاتحاد السوفييتي من الغزو
- التناقض في صفوف الحلف الغربي ، وموقف الولايات المتحدة لأسباب استراتيجية ضد الغزو ،
- معارضة الرأى العام البريطاني ، استنكار الرأي العام العالمي ،
- هيئة الأمم المتحدة ، وموقف مجلس الأمن والجمعية العامة ،



الفشل الكبير

بدا الأسبوع الأخير من أكتوبر سنة ١٩٥٦ ملائما تماما .. كأنسب الأوقات وأفضلها للمستر دالاس والاستراتيجية الكونية ـ الأمريكية .

كان يحلم بأن تكون نهاية ذلك العام ذروة مجده السياسي ، وهو سوف يوجه ضربة قاضية الى « الشيوعية » تبدأ منها نهايتها تماما وسوف يوجه ضربة أخرى في نفس الوقت للمعسكر الآخر « الحياد » ترتج وتتقوض أركانه ، وهو لا يزال في بدايته ، وسوف يصبح العالم كله آمنا أمام السيادة الأمريكية .

وبدت بشائر النجاح ودلائله متلاحقة ، ففي شرقي أوروبا بلغت الأحداث في المجر ذروتها ، وسقط النظام القائم ، وقامت حكومة جديدة .. وطالبت بانسحاب القوات السوفيتية من المجر ، وكانت فيها بمقتضى اتفاقيات حلف وارسو وانسحبت القوات بالفعل ! وهلل ألن دالاس رئيس المخابرات المركزية الأمريكية .. وقال : اننا نشهد معجزة أن الثورة الشعبية يمكن أن تقوم وتنجح بالرغم من كل القوات وكل الأسلحة الكبيرة والحديثة !

وأضاف : اننا على عتبة نصر عظيم عملنا له وانتظرناه طويلا .

وفي الشرق الاوسط استطاع دالاس ان يؤجل الهجوم حتى نهاية اكتوبر ، ولم يهتم به ايدن ولم يتردد به ليخطب فيما بعد كل تياره ، وربما لم يتم الغزو كما أراد دالاس منذ البداية ، في باسرائيل وحدها ، ولكن اسرائيل كانت هناك ، وكانت طليعة الغزو ، وطالما كانت موجودة فان الوجود الامريكي مكفول تماما ، ولكن لم يعش التفاؤل طويلا ذلك انه قد خرجت كل قوى الثورة المضادة المجرية في المجر بعد انسحاب القوات السوفيتية ، وتدفقت من الحدود كل القوى التي أعدتها وجهزتها المخابرات الامريكية ، ونشبت حرب اهلية صغيرة اتسع مداها حتى اصبحت مذبحة عامة . بشعة .. واعلنت القوى المضادة نيتها في تصفية النظام الاشتراكي وكل اثاره وأعادت النظام القديم للملاك والرأسمالية والكنيسة والعودة الى اوربا اي الغرب .

وذهب الكاردينال منزنتي رئيس الاساقفة والذي اصبح الزعيم الاول للحركة الى الاذاعة وطالب بالغاء الاصلاح الزراعي كاجراء اساسي ..

وتحولت الحركة التي بدات شرعية لتصحيح التطبيق الاشتراكي بقيادة اشتراكيين وحزبيين الى ان تصبح نكسة لعهد الاستغلال والاستبداد القديم !

وساد التردد ثم العجز في الحكومة المجرية القائمة ، ولكن الزعماء لاحق الاحداث وتفاقمها — انشق منها جناح يتزعمه احد اقطاب الاصلاح « كادار » — وكونوا على عجل حكومة ثورية طالبت القوات السوفيتية بالعودة سريعا وبالتدخل لانقاذ المجر الاشتراكية ، ولانقاذ اوربا الاشتراكية عامة .

وعادت القوات السوفيتية وفي ساعات قليلة وعصيبة ايضا كانت قد قضت على المؤامرة تماما .. وكان الثمن غاليا بالطبع ، وبالنسبة لكل الاطراف ، وكانت الضجة صاخبة وثقيلة ، ولكن لم تترك السياسة الامريكية ولا وحشية القوى المضادة بديلا لهذا الطريق

وكانت أجهزة الدعاية الأمريكية في أوربا قد ألهبت حماس القوى التحررية في المجر وفي كل أوروبا ، وهللت وبشرت بالتحرير وشيكا من المجر ، ولا يقف على تحرير أوروبا كلها .

كانت الاشتراكية بالنسبة لدالاس حدثا عارضا وشاذا ، كأنها نزوة وانحراف من التاريخ ، ولابد أن يصححه ، ولابد أن يزول عن جديد .

ولكن في اللحظة الحاسمة اكتشف بخيبة أمل وغضبة مريرة أن الطريقة الوحيدة لمساعدة المجر ، إنما هي حرب نووية شاملة ، وليس هناك رجل في وعيه يريد أن يبدأ حربا نووية من أجل المجر ولن يفيد في شيء أن ترسل قوات أمريكية هناك ، لأن القوات السوفيتية الكثيرة سوف تبيدها وسوف تسحقها -- إن الجغرافيا حددت للأسف أن تنزل كل المصائب على المجريين -- !

كان انطلاقا واعترافا ذاتيا بسقوطه ونهاية حلم خلابة من السياسة الأمريكية عرفت باسمه « الدالاسية » . وقد قضت القوات السوفيتية على القضية في شرقي أوروبا في ٤ نوفمبر قضاء مبرما وفي مساء اليوم التالي تسمع الاتحاد السوفيتي بالإنذار إلى دول الغزو الثلاث حول الشرق الأوسط .

وقد أثارت لهجة الإنذار وطريقة تحديد الرعب والفزع في أوروبا كلها ، واشتعلت أجهزة القلق في الولايات المتحدة الأمريكية ، كان حدثا لا يمكن تجاهله ، ولابد من حساب كل احتمالاته الخطيرة .

وقد انقلب سير الأمور بعض الشيء في الشرق الأوسط -- ولكن انتهى إلى نفس النتيجة -- وقد عارض دالاس الغزو منذ البداية ولكن لم تكن معارضة لأنه غزو أو عدوان ، فقد عمل دالاس منذ ١٩٥٤ بحماس لم يفتر لإسقاط النظام في مصر ، وكان دالاس وراء عودة بن جوريون إلى الحكم في فبراير سنة ١٩٥٥ ، فقد عاد بخطة كاملة لإسقاط النظام في مصر !

وفي مايو سنة ١٩٥٦ قبل دالاس أن يشترك هو ومعاونوه

ايدن في خطة مشتركة لتنظيم انقلاب في مصر على نمط الانقلاب في ايران لم يتم تنفيذها

وفي يوليو سنة ١٩٥٦ رفض دالاس المساهمة في السد العالي لانه كان يتصور انه يسدد ضربة للنظام في مصر ، كما قال يوجين بلاك ..

وحينما اشتدت ازمة السويس وذهب دالاس الى لندن كان اول تصريح له هو ان نبحث عن طريق يجعل عبد الناصر يتقيأ ما التهمه ! وكان اللفظ النابي تعبيرا عن مدى حقده وكرهه .. !

وكانت الاقتراحات التي قدمها دالاس عن الادارة الدولية لقناة السويس في مؤتمر لندن ، وكانت محور مناقشات المؤتمر ، ثم اقترح جمعية المنتفعين التي تقدم بها في الامم المتحدة ، وكلا الاقتراحين كان يعني تجريد مصر من حقها الذى استردته بالتأميم ، وكان دالاس يعلم كل استعدادات دول الغزو ولم يعارضها ، ولهذا لم يكن طبيعيا ولا منطقيا أن ينقلب بين يوم وليلة وبعد الغزو الى مدافع عن النظام في مصر ومعارض لأى عدوان عليه وأن تتحول السياسة الامريكية الى سياسة معادية للاستعمار ومؤيدة لحقوق الشعوب ولهيئة الامم المتحدة ، بل وأن تمضي بعدائها ويسندها البعض لانها اوقفت العدوان وانقذت مصر وحدها ..

ولقد كان موقف دالاس منذ ذهب الى لندن الا يثني ايدن عن تصميمه على الهجوم السريع المباشر الذى تحدد له يوم ١٥ سبتمبر

وكان يريد الا ينفرد ايدن بالغزو واسقاط النظام في مصر ، وكان يريد ايضا الا يسبق الغزو البريطاني الفرنسي الغزو الاسرائيلي الذى اعدت خطته منذ ديسمبر سنة ١٩٥٥

كان كل هم دالاس أن يؤجل تنفيذ ايدن حتى الاسبوع الاول من اكتوبر ، وأن تسبق اسرائيل ، وأن تسقط النظام في مصر ،

مهلا.

وان تتدخل الولايات المتحدة لتعيد رسم خريطة للشرق الأوسط كما تريد ، ولكن بدا واضحا منذ سبتمبر سنة ١٩٥٦ انه ليس من الممكن ان تنفرد اسرائيل بغزو أو ان تعاجيء به البريطانيين والفرنسيين ، ولهذا انضمت اسرائيل لتكون موجودة ، ولتكرر في الغزو ما حدث خلال حلف بغداد من ان يعد الاساس خطة ، ثم يخطرها آيك ليصبح بعدها ٠٠ !

كان افضل طريق هو ينفض يديه ، وان ينتظر النتائج ، وان يحصل منها على كل ما يستطيع ٠

وقد اكد موقفه ان الغزو تعثر منذ البداية حتى النهاية ، فلم تكتسح الجيوش الاسرائيلية سيناء في ساعات لتصل الى قناة السويس ، ولم يدمر سلاح الطيران البريطاني السلاح الجوي المصري على الأرض ويقضي عليه عن آخره ، ولم تتم ترتيبات الانزال في بور سعيد في المواعيد وبالدقة المطلوبة ، ليتم احتلال القناة بأكملها ، ويبدأ الزحف الى القاهرة ، ولكن تعقدت كل المواقف ، وكان اسلم المواقف الا يعارض ما حدث ، وأن يقف ضده وأن يعلن براءته منه ، وان ينتظر ليرى ويتدخل في الوقت المناسب لتقسيم الغنائم ٠٠ !

ولقد كان في استطاعة هالاس ولي امكان الولايات المتحدة الامريكية لو كانت تعارض الغزو حقيقة ان تمنع وقوعه منذ البداية

وقد كتب ديان في مذكراته عن حملة سنة ١٩٥٦ :

ربما لو كانت المذكرة السوفيتية قد وصلت قبل يوم ٢٩ من اكتوبر الى اسرائيل وبريطانيا وفرنسا ما تمت حملة سيناء ٠

واذا كان انذار سوفيتي قبل يوم ٢٩ من اكتوبر ربما كان يستطيع ان يوقف الغزو — فان انذارا امريكيا كان ، لاشك ، يستطيع ان يمنع وقوعه ٠

وقد كان لدى الولايات المتحدة الوقت ، وكانت لديها المعلومات ، فقد أكد آلان دالاس رئيس المخابرات المركزية أنه كان فرد تماما ومصريا لديهم يوم ٢٧ أكتوبر ان اسرائيل على وشك الهجوم . ولم تقدم الولايات المتحدة انذارا حاسما ، ولكن أمرت رعاياها بالرحيل عن الشرق الأوسط . وهذا كان قد تبدو على الولايات المتحدة ان توقف الهجوم الاسرائيلي أو الفارض البريطانية عقبه كان في استطاعتها على الاقل ان توقف غزو بورسعيد الذي حدث يوم ٥ نوفمبر وخاصة بعد أحاديث أيزنهاور في التليفزيون وخطب دالاس في الأمم المتحدة ضد العدوان : قال الجنرال كيتل البريطاني وقائد العام للغزو .

كان اشد ما يقلقنا منذ ٢٦ أكتوبر هو نشاط الاسطول السادس الامريكي ، وقد كان يمكن أن تواجهنا كل المصاعب والمتاعب بسببه ، ولكن حسن تصرف قادة الاسطول له مكننا من القيام بمهمتنا كاملة وعلى احسن وجه وبلا أي مشاكل أو متاعب ـ ويصرح قائد الاسطول السادس براون بقوله .

ان الاسطول السادس لم يقم بأية مناورة أو اي تحركات يمكن ان تسبب حرجا لأية من الوحدات البحرية البريطانية في [illegible] ..

وكان يكفي أن يتحرك الأسطول السادس في مسير قليلا يتم في استعداد للغزو ، وكان يكفي أن يتمركز في أوضاع حتى لايهاجم بور سعيد ويحتل القنال . ولكن كل ماقام به كان تسهيل اجلاء الرعايا الامريكيين ! ..

لم يكن دالاس ضد الغزو ولا ضد النتائج التي يمكن ان يسفر عنها الغزو ، ولكنه كان فقط ضد الطريقة التي تم بها ، وحتى هذا كان على استعداد للتجاوز عنه لو تحققت النتائج التي يرجوها ـ

كانت المشكلة الآن أن يهجم بن جوريون ويسقط النظام ويحتل ملاحي ويحسم مشكلة الشرق الأوسط وحده . ولكن أخطأت حساباته وتحركاته . وأصبح الآن عليه أن ينفصل من الغزو — وأن يجني بعد ذلك كل ما يمكن من نتائج وغنائم !..

عارض دالاس الغزو في مصر ، لأسباب عملية ، كان دالاس يقول : « ليس للولايات المتحدة أصدقاء وإنما لها مصالح » ، وكانت مصالح الولايات المتحدة حاسمة .

وحينما بدأت أحداث المجر ومصر معا طالبه آلان دالاس رئيس المخابرات الأمريكية بمعارضة الغزو في الشرق الأوسط ، وقال إنها لمأساة أننا في اللحظة التي نقف فيها على حافة نصر عظيم في شرقي أوروبا ضد الاستعمار السوفييتي يصبح علينا أن نختار بين أن نسير في ركاب الاستعمار البريطاني والفرنسي في آسيا وإفريقيا أو أن ننفصل عن حلفائنا ، ولكن هذا اختيار حاسم ويجب أن يفصل فيه اليوم .

ومن الصعب تصور الآن دالاس معاديا للاستعمار ونصيرا للثورات الشعبية ، ولكن نجاح التحرير في شرقي أوروبا كان يحتم معارضة الغزو وسيما في الشرق الأوسط ، ومع هذا لم يكن هذا هو العامل الوحيد ، كان ضد عودة النفوذ البريطاني إلى الشرق الأوسط أو استقرار النفوذ الفرنسي في شمال أفريقية ، وضد بقاء قناة السويس في أيدي شركة فرنسية لبريطانيا فيها نفوذ كبير .

ولكن حتى هذه المعارضة للغزو انتهت حينما بدا أن بريطانيا وفرنسا أصبحتا أعجز من أن تستطيعا تحقيق هدفا ..!

وقد حدث بعد أن ألقى دالاس خطبته في هيئة الأمم المتحدة وهي الخطبة التي ندد فيها بالغزو والعدوان « والمشهد الذي لا يمكن السكوت عليه وهو هجوم ثلاث دول من أعضاء الأمم المتحدة

عند عشر رابع » ـ حدث ان سقط مريضا ونقل الى المستشفى لاجراء جراحة خطيرة ، وبعد اسبوع من ايقاف القتال ذهب سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا الى المستشفى ومعه السفير البريطاني في واشنطن هارولد كاشيا لزيارة دالاس فكان كما يروي السفير البريطاني :

جاء دالاس وكان يسير بصعوبة وعناء ، ومد يده مصافحا لويد بحرارة وقال : لماذا بحق السماء اوقفتم الغزو ؟ ورد سلوين لويد : لو كنت ارجو لو سألت هذا السؤال مبكرا ! ولكن دالاس لم يبال ، واستمر ينعى على الحملة انها وقفت قبل ان تحقق هدفها وهو اسقاط ناصر » وقال : انه لو كان في الوزارة لكانت سياسة الولايات المتحدة اكثر رقة على بريطانيا ، ولكن خلال مرضه تولى معالجة الازمة ايزنهاور وهوفر ..؟

وكانت الهزيمة ، المثل بالنسبة لدالاس ـ ان يسقط ايدن في بريطانيا ولن يسقط النظام في مصر معها ..

وسوف ترث الولايات المتحدة النفوذ البريطاني وتصبح الدولة الاولى في الشرق الاوسط ، تستطيع ان تحقق الهدف الاصلي بطريقة اخرى .

وهذا ما حدث وتحركت الولايات المتحدة بعد الغزو مباشرة بدعوى جديدة هي « ملء الفراغ » لان سقوط النفوذ البريطاني والفرنسي في الشرق الاوسط قد ترك فراغا في المنطقة ، وان الولايات المتحدة الامريكية هي التي لا بد ان تملأه » وذلك حتى لا تملأه الشيوعية الدولية .. »

وصيغت نظرية كاملة ومشروع مفصل لهذه السياسة أطلق عليهما اسم ايزنهاور ، وكانت موضع زهوه ، وتحتل قصلا كاملا من مذكراته .

ولم تنفذ نظرية أيزنهاور ومشروعه أهدافها الأساسية ومطامعها وأولها أن تحل الولايات المتحدة محل بريطانيا وفرنسا وأن تصبح الدولة المشتي الوحيدة في المنطقة ثم أن تدعم وتحمي القوى والنظم العربية الموالية للغرب ، وأن تتسلل وتتحول رويدا كاملا للولايات المتحدة الأمريكية ..

وكان الهدف الثالث هو حصار الثورة المصرية وناصر الذي خرج من الأزمة بطل العرب ، وأحد أبطال العصر ، وبدأ الحصار بمنع الدواء والقمح عن مصر ، ثم بمحاولة إسقاط النظام في سورية وكان الهدف الأخير الذي لايقل أهمية هو طرد الاتحاد السوفيتي من المنطقة ، وكان قد اكتسب عطفا واسعا بموقفه خلال الأزمة وقبلها ، ولابد أن يحاصر هذا النفوذ ولكن يصفى ..

ومن أجل نجاح مشروع أيزنهاور قامت الولايات المتحدة بالضغط على بريطانيا وفرنسا وإسرائيل للانسحاب من بور سعيد ثم من سيناء !

كان لابد للولايات المتحدة تمهيدا لدورها الجديد أن تبدو معارضة تماما « للاستعمار » ومختلفة عنه في سياساتها .

وكانت الولايات المتحدة تريد أن تبدو أمام العرب الذين سوف تملأ « الفراغ » بينهم أنها « موضوعية » محايدة ، وليست منحازة لإسرائيل ، ولابد أن تعزز مكانة صداقاتها من العرب .

وكان بن جوريون قد أعلن في الكنيست بعد إيقاف القتال أن إسرائيل لم تحتل سيناء أو تضمها ، ولكنها حررت جزء من الوطن الإسرائيلي ! وهي لن تتخلى عنه مهما كان الثمن ، ولكن بعد الخطاب بأربع وعشرين ساعة فقط كما قال مناحم بيجن غير بن جوريون رأيه تغييرا مفاجئا لم يعرف أحد له سببا ، وكانت التعليمات الأمريكية قد جاءت حاسمة .

وقد كفلت الولايات المتحدة مع هذا لاسرائيل المرور في مضايق خليج العقبة ، وذلك بوجود القوات الدولية في شرم الشيخ وتيران وكانت هذه هدفا رئيسيا من أهداف اسرائيل ومن أهداف الحملة على سيناء وهو قد فتح ثغرة أكبر في الحصار الاقتصادي والاستراتيجي الذي كانت تفرضه الدول العربية على اسرائيل والذي كان أشد مايقلقها .

لم يكن (الضغط) على اسرائيل عقابا على عدوانها أو اقرارا بحق العرب أو تأكيدا لعدالة موقف مصر ، ولكن كان مجرد تمهيد لنجاح مشروع أيزنهاور وسياسة ملء الفراغ !

وكان مشروع ايزنهاور في جوهره يعني بداية الحرب المباشرة بين الثورة المصرية والاستعمار الجديد (الامريكي) ، لقد تسلم الاستعمار القديم البريطاني والفرنسي (الأوروبي) وتسلم المهمة الآن كاملة ومباشرة الاستعمار الأقوى والجديد !

ولهذا بدأ مشروع ايزنهاور في الضفة الغربية بمحاولة اسقاط النظام في سورية ، وبتصفية الحكم الوطني الذى كان قائما في الاردن وتصفية الحكومة الوطنية الأردنية .

وكان اسقاط النظام في سورية ضروريا وجوهريا لتنفيذ السياسة الجديدة في حصار النظام في مصر ، واشتركت دول حلف بغداد والسعودية في اعداد خطة الانقلاب وبتوجيه (لوى هندرسون) السفير الأمريكي السابق في ايران خلال الانقلاب الايراني ..

بدأت المعركة المباشرة بين الثورة المصرية وبين الامبريالية الأمريكية في داخل مصر وعلى نطاق الوطن العربي كله ، ولكن مهما يكن الأمر فقد فشل الغزو والعدوان ، وبفشله سقط دالاس ، وسقطت سياسته ، وسقط إيدن ، وسقطت سياسة بريطانيا

العظمى ، وردت مصر انجلترا الصغيرة ولمعت ماكميلان رئيسا لوزراء بريطانيا بعد إيدن ، لأنه كان ضابط اتصال لأيزنهاور خلال الحرب العالمية الثانية وسوف ينفذ سياسة التابع لا الشريك ؛ وقتال بن جوريون ، سقط كل الزهو والصلف الذي جاء به في فبراير سنة ١٩٥٥ مؤكدا انه سوف يسقط النظام في مصر ، وربما لم تنته سياساته . ولكنه قريب من القيادة وسقط موليه . وسقطت الاشتراكية الديمقراطية الفرنسية ، ثم سقطت الجمهورية الرابعة ، كلها ، واستمرت ثورة الجزائر !

وخرجت الثورة المصرية منتصرة . كانت كل الحسابات الغربية تؤكد أن ضربة قوية من الخارج ستدفع الشعب كله إلى الانقضاض على النظام ، ولكن ما حدث كان العكس تماما ! كان الغزو تعميدا جديدا للثورة ، ولقد هزمت الرجعية الداخلية سنة ١٩٥٤ ، لأنها لم تجد سندا خارجيا ، وفشل السند الخارجي سنة ١٩٥٦ ، لأنه لم يجد رجعية داخلية . وظل الشعب المصري هو العامل الحاسم ، كانت ثورته وكان تاريخه ، وكان الغزو ميلادا جديدا ، لثورة لن تنتكس ، لن يقضي عليها أحد ، لقد ولدت لتبقى .

يصدر الجزء الثاني في ١٥ يناير سنة ١٩٧٣

فهـــرس الكتاب

صفحة



عبد الناصر هو [illegible] صديق الاتحاد السوفيتي ...

ليونيد بريجنيف



لو كنا قد لعبنا دوراً في صنع الانقلاب ولو شاركنا في تثبيت سلطانه، ولو شاركنا في بناء قواعده [illegible] عبد الناصر [illegible] [illegible] في هذا
وكان [illegible] [illegible] يتصور أن [illegible] من [illegible] في [illegible] الآتية ...

مايلز كوبلاند
من المخابرات المركزية الأمريكية



- [illegible] [illegible] [illegible] لا [illegible] لا تستطيع أن تشتريه أو ترهبه، وكنا نكرهه كراهية التحريم، ولكن لا نستطيع [illegible] [illegible] كان الهدف منها [illegible].

[illegible]
من إدارة المخابرات المركزية الأمريكية

ما أكبره في عبد الناصر أنه لا يكف عن التعلم ...

نهرو

الثمن ٢٥ قرش